

للأسرى

ميراث الترجمة

رفاءك

مخاضات العشر

ترجمة: أحمد حسن الزيات
تقديم: حلمي النمنم



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر : طلعت الشايب

– العدد : ١٠٥٠

– رفائيل (صحائف سن العشرين)

– ألفونس لامرتين

– أحمد حسن الزيات

– حلمى النمنم

– الطبعة الأولى ١٩٢٦

– ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

رفائيل

صحائف سن العشرين

تأليف : ألفونس لامرتين

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومي للترجمة

رفائيل

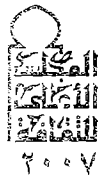
صحائف من العشرين

الشاعر

www.books4all.net

تأليف : ألفونس لامرتين

ترجمة : أحمد حسن الزيات



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لامرتين ، ألفونس دو ، ١٧٩٠ - ١٨٦٩
رفائيل : صحائف سن العشرين / ألفونس لامرتين : ترجمة : أحمد
حسن الزيات - ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٢٩٢ ص : ٢٤ سم - المشروع القومى للترجمة .
١ - القصص الفرنسية .
(أ) الزيات ، أحمد حسن (مترجم)
(ب) العنوان
٢٤٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٠٧٢
الترقيم الدولى 1 - 261 - 437 - 977 I.S.BN.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة

الزيات ورافائيل

غطت شهرة مجلة الرسالة وأهميتها على بقية جوانب حياة مؤسسها أحمد حسن الزيات وإنتاجه الأدبي والثقافي .. الزيات هو مؤسس "الرسالة" ورئيس تحريرها سنوات صدورها العشرين ، وكأنما أراد لها الزيات أن تكون صوت جيل بعينه ، الجيل الذي ازدهر وتآلق في أعقاب ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣ ؛ فلم يكن مصادفة أن يغلق الزيات "الرسالة"، وأن تتوقف عن الصدور في العام نفسه والتوقيت الذي تم فيه إلغاء دستور ١٩٢٣، وحل جميع الأحزاب المصرية في ١٩٥٣ ، وعلى الرغم من تعدد المجلات الثقافية والأدبية سنوات الثلاثينيات والأربعينيات فإن "الرسالة" كانت في المقدمة منها بمعيار العمق والتنوع وحتى بمعيار التوزيع أيضاً ؛ فقد بلغ توزيعها بعد أقل من عام إلى ثلاثين ألف نسخة من العدد الواحد .

تأسست الرسالة في بداية سنة ١٩٣٣ ، تحديداً ١٥ يناير ، في وقت مهم ، قبلها بعام كانت "السياسة الأسبوعية" ، قد توقفت عن الصدور ؛ فقد انشغل رئيس تحريرها د . محمد حسين هيكل بالسياسة اليومية، وفي ١٩٣٢ أيضاً كانت "البلاغ الأسبوعي" قد توقفت ، وكان قد رحل عن دنيانا كل من أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وبدا أن الحياة الثقافية تتجه إلى حالة من الفقر ، خاصة وأن د . طه حسين قد أبعد عن الجامعة المصرية ، وكان الزيات قد عاد من بغداد ؛ حيث كان قد انتدب من الحكومة العراقية في ١٩٢٩ لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العليا في بغداد ، وظل هناك لمدة ثلاث سنوات ، ورفض أن يتم التجديد له هناك ثلاث سنوات أخرى ،

وقد حقق نجاحاً ، وألقى العديد من المحاضرات فى المحافل والمنتديات الثقافية ببغداد ، وعاد فى ١٩٣٢ ليجد ما سُمى فى الثقافة المصرية باسم " عام الحزن " ، وحلَّ محله فى المعلمين العليا ببغداد بعد ذلك د . زكى مبارك ثم عبدالوهاب عزام .

وبدأ هو هنا فى القاهرة محاولاً الخروج من تلك الحالة بأن اقترح فى نوفمبر ١٩٣٢ على د . طه حسين إصدار مجلة ثقافية أو أدبية تملأ الفراغ الذى تركته " السياسة الأسبوعية " و " البلاغ الأسبوعى " ، ولم يجد الزيات لدى د . طه حماساً ، والحقيقة أن د . طه كان متخوفاً ؛ لأن ثقافة النخبة المصرية آنذاك تكاد أن تكون ثقافة أوروبية والعامة من المصريين تحكمهم الأمية ، ولكن الزيات كان يراهن على فئة أو طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء ، تلك الفئة التى تريد أن تقرأ ولعلها لا تجد ما تقرأ ، وكان رأى طه حسين أن تلك الفئة الوسطى التى يبحث عنها الزيات ، يكتفى أفرادها بالقراءة العابرة لمقال هنا أو رأى هناك ، ومع ذلك تعاونوا معاً فى إصدار " الرسالة " ، وصدرت إعلانات العدد الأول عن " الرسالة " بعبارة (مجلة الرسالة يحررها الأستاذان الزيات ود . طه حسين) ثم تم تعيين د . طه فى مجلة " كوكب الشرق " ، وتفرغ الزيات وحده للرسالة .

ولد الزيات فى الثانى من أبريل سنة ١٨٨٥ فى قرية كفر دميرة التابعة لمركز طلخا بمديرية الدقهلية ، وكشأن أطفال الريف تلقى تعليمه الأولى بكتّاب (مكتب) القرية ، ولما لم يكن هناك مدارس لمواصلة التعليم فقد أرسلته أسرته إلى القاهرة حيث الأزهر لمواصلة تعليمه ؛ التحق بالرواق العباسي سنة ١٨٩٧ ، وكان يتولى التدريس به وقتها الشيخ محمد عبده ، وكانت تلك سنوات ألقى محمد عبده فى الإصلاح وتجديد الفكر الدينى ، وقد أصابت جذوة محمد عبده الكثيرين وقتها داخل الأزهر ، والواضح أن الزيات كان واحداً منهم ، فلم يتمكن من مواصلة المسيرة بعده فى الأزهر ، فقد كان عتاه رجال الأزهر يضيقون بأفكار محمد عبده ومن ثم بتلاميذه والمتأثرين بتلك الأفكار ، واقع الأمر أن قدامى رجال الأزهر كانوا قد رموا أفكار محمد عبده بالخروج والمروق ، بل والكفر ، وكان لابد أن تنتغل تلك الاتهامات إلى تلاميذه أو على الأقل يكونون موضع شك وريبة ، وكان الزيات من هؤلاء ، يُضاف إلى ذلك أن التعليم الحديث كان ينادى

هؤلاء التلاميذ ويجذب عقولهم إلى مدارس ومعهده ، كانت هناك "دار العلوم" التي أسسها على مبارك وكانت تجذب إليها المتطلعين إلى العلوم الحديثة والرافضين لطرق التعليم بالأزهر ووسائله، وقد ألقى فيها محمد عبده محاضرات عن ابن خلدون ، وكانت هناك مدرسة القضاء الشرعى التي اجتذبت من بين من اجتذبت أحمد أمين ، وكانت الجامعة المصرية على وشك التأسيس . وهكذا ترك الزيات الأزهر سنة ١٩٠٧ بون أن يحصل على "العالمية" ، وللحق فإنه أجبر على ترك الأزهر، ولنقل طُرد كما طرد معه فى الوقت نفسه طه حسين ومحمود زناى ، وفى السنة نفسها تأسست مدرسة القضاء الشرعى، وفى العام التالى مباشرة تبدأ الجامعة المصرية عملها ، ويلتحق بها مباشرة الزيات وأيضاً طه حسين .

تخرج الزيات فى الجامعة عام ١٩١٢ ولم يتجه إلى الدراسات العليا ونيل الماجستير والدكتوراه كما اتجه صديقه طه حسين ، فقد ذهب مباشرة إلى ميدان الحياة العملية ، وعُيِّن فى السنة نفسها مدرساً للغة العربية بمدارس الفرير ، وبعدها بخمس سنوات. بدأ فى تعلم اللغة الفرنسية وهى آنذاك إلى جوار العربية لغة صفوة المجتمع من المثقفين والمتعلمين ، تعلمها محمد عبده وأتقنها لطفى السيد وقاسم أمين ود . هيكل ود . منصور فهمى ود . طه حسين وغيرهم ، كان هؤلاء المثقفون يصرون على أن تكون الفرنسية لغة الثقافة فى مواجهة الإنجليزية ، لغة المحتل والاحتلال ، ويتم تدريسها فى المدارس الأولية بمصر ، ويبدو أن الزيات تمكن من الفرنسية ، فيلتحق فى ١٩٢٢ بالقاهرة بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وفى ١٩٢٥ يسافر إلى فرنسا ، ويقضى عدة شهور بباريس لنيل "إجازة الحقوق" ، وإن كان د . طه حسين شكك فى أنه نال تلك " الإجازة " ، ووفقاً لرأى د . طه أن الزيات فى رحلته الدراسية طالع الحياة هناك وتابع مصادر الثقافة الفرنسية وأدائها وفنونها ، لكنه لم ينل " الإجازة " وأياً كان الأمر فإن ذلك لا يعنى شيئاً لنا الآن ، توفيق الحكيم فعل الشيء نفسه فى باريس .. وكان الزيات قد ترك التدريس بمدارس الفرير سنة التحاقه بمدرسة الحقوق ؛ حيث انتدب للتدريس ، وتولى مسئولية القسم العربى بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ..

فور عودته من باريس شرع في ترجمة " رفايل " ، وصدرت في العام التالي مباشرة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي أسسها أحمد أمين وعدد من رفاقه مثل محمد بدران ، وكانت اللجنة تنتقى وتدقق إصداراتها سواء ما كان منها تأليفاً أو ترجمة . وكان صدور كتاب مترجماً عنها . لا يعني فقط أننا بإزاء دقة الترجمة ، بل وأيضاً رصانة الأسلوب العربى وجمال الترجمة ، وتلك معضلة كثير من المترجمين الآن .

ولن أتحدث عن جودة الترجمة ودقتها ، فقد قام بذلك د . منصور فهمى فى تقديمه للطبعة الأولى من الترجمة ؛ حيث انتهى إلى القول (إن الأستاذ الزيات كان فناً فى نقله ، أميناً فى فنه ، موفقاً فى عمله) . والواضح أن ما دفع الزيات إلى ترجمة هذا العمل ، ليس مجرد الترجمة ، بل حالة من الإعجاب بالشاعر الفرنسى وبعمله ؛ ففى غلاف الترجمة كتب عنوان الكتاب وحين أراد أن يكتب اسم المؤلف كتبه هكذا " لشاعر الحب والجمال لامرتين " . وقد وضع لامرتين بين قوسين وكتبت ببسط أصغر قليلاً ، " لى أن الأصل عنده هو صفة الشاعر . قبل اسم ، شعر الحب والجمال ، ومن يقرأ الترجمة يشعر كأنما كتب العمل أصلاً باللغة العربية ؛ أسلوب رصين ، وكلمات شاعرية ، نعمة ، ممثلة بالوجد

وقد تحدث الزيات فى سنوات عمره الأخيرة عن أنه عاش فى باريس تجربة صانعية لم يقدر لها أن تكتمل . فقد عاد بسرعة ، ولعل هذا سبب إشارة طه حسين عابرة إلى أن الزيات ، أتم بعرفة باريس ومعايشتها فترة إقامته بها ، فلو أخذ التجربة نحو الشعور لامرتين ، وثققت أمام صانعها رفايل . وربما أفعته هذه ويقرر انفسا إلى لغة العربية وقراءتها .

ويذكر الزيات من (تسميتهم أخوى الحبيبين ج . س . ق) فيهدى إليهما الترجمة . تصيب لى (حبكم الخالد من الكتاب الخالد) ويقول بهم فى نهاية الأمداء حول (ولو أن عبد طابع الشرق الجليل ، قبل إنكم حبيب ورفايل) ، والمعنى أن هذا عبد لم يزل يردد اسمه إلى أن لم يزل يردد اسمه . تجربة حياة وعمل مرتبة .

بمساعدة وديانة . مساعدة وأشخص من عند المترجم ويترجم به .

صدرت ترجمة "رفائيل" سنة ١٩٢٦ ، أى فى العام نفسه الذى شهد أزمة أو معركة كتاب د . طه حسين " فى الشعر الجاهلى " وقبلها بشهور كانت هناك معركة كتاب الشيخ على عبد الرازق " الإسلام وأصول الحكم " كانت مصر قد دخلت عهد دستور ١٩٢٣ وبدأت المرحلة التى ستُعرف لاحقاً باسم " المرحلة الليبرالية فى مصر ، وكان العقل المصرى يشق طريقه فى اتجاهين مترابطين متكاملين ، التعامل النقدى مع الأفكار القديمة ؛ المتوارثة والمرتبطة بالتراث الإسلامى ، وكذلك الانفتاح بوعى وبروح نقدية على الأدب والفكر الغربى ، تمثل ذلك فى صدر أعمال متميزة فى التراث العربى تحقيقاً وشرحاً وانتقاداً ، بالإضافة إلى ترجمة عدد من الأعمال والدراسات المهمة عن بعض اللغات الأجنبية ، خاصة الفرنسية والإنجليزية ، وفى هذا الصدد قام الزيات ، بالإضافة إلى رفائيل ، بترجمة عمل آخر لا يقل أهمية ، وهو للشاعر الفيلسوف الألمانى المعجب بالشرق الإسلامى وحضارته "جيتة" ، وقد ترجم الزيات "آلام فترتر عن اللغة الفرنسية وليس عن الأصل الألمانى ، وانقطعت صلته تماماً بالترجمة بعد ذلك؛ حيث شُغل بالتأليف وإصدار الكتب العربية إلى أن أصدر "الرسالة" فى ١٩٣٣ .

وقد حققت الرسالة نجاحاً كبيراً ، وكذلك مؤلفاته العربية خاصة (تاريخ الآداب العربية) وكتابه (عبقرية الإسلام) الذى يذهب بعض الدارسين إلى أن العقاد تأثر بهذا العنوان فى سلسلة العبقریات ، وكتابه "دفاع عن البلاغة" الذى أشادت به اليونسكو ، وتوقف الباحثون والدارسون أمام هذه الأعمال بإهتمام كبير .

وعاش الزيات عمره معتزلاً بترجمته لرفائيل، قبل وفاته صدرت طبعة جديدة منها ، وعلق عليها أنيس منصور فى " الأهرام " بأن الترجمة مضى عليها أربعون عاماً ، وفهم الزيات ذلك القول على أنه غمز فى الترجمة وحد من قيمتها ، وبتعبير الزيات أنه قد تراجعت أهمية الكتاب بالتقدم ، وبادر الزيات بكتابة رسالة بهذا المعنى إلى أنيس منصور مفنداً وجهة نظره ومؤكداً أهمية الكتاب ، وأنه مازال يُقرأ ويجتذب المهتمين بالأدب والثقافة ، وقد نشر أنيس منصور رسالة الزيات بالأهرام فى عدد ١٥ مايو سنة ١٩٦٨ ، وعلق عليها واصفاً الزيات بأنه " أسبق أدباء مصر إلى العبارة الرشيقة

والهندسة الأدبية ، وبعد أقل من شهر على تلك الرسالة وذلك التعليق ، مضى الزيات إلى ربه فى ١٣ يونية سنة ١٩٦٨ ، راضياً بما قدمه للأدب والثقافة العربية ، سواء بالترجمة أو بالتأليف وما قدمه كثير ومهم وبقى إلى اليوم وممتد إلى الغد .
ولعل قيام سلسلة " ميراث الترجمة " بنشر " رفائيل " بين أعدادها لدليل جديد وإضافى على أهمية هذا العمل وجودة الترجمة التى قام بها أحمد حسن الزيات ، قبل أكثر من ثمانين عاماً .

حلمى النمنم

مكتبة سواد الأريكة
www.books4all.net

رفاءك

صكائف سن العشرين

شعر الجبر والجمال (لدرتين)

نقله الى العربية

احمد حسن الزيات

لسانسيه في الحقوق من جامعة باريس

واستاذ الادب العربى بالجامعة الامريكية بالقاهرة



لامرتين

نساء ومبائر

ولد ألفونس د لامرتين بما كون سنة ١٧٩٠ من أبوين شريين
وقضى عهد الطفولة في (ميلي) تحت جناح أمه الزموم ثم عهد بتهويمه
وتعليمه الى القسيس ديمونت وهو رجل واسع الاطلاع ، أربحي الطباع ،

(د)

خيالى النزعة . فكان له فى نفسه وحسه أثر جميل . ولما نما جسمه ، وقوى فهمه ، أرسل الى مدرسة فى ليون ثم أدخل بعد ذلك معهداً لليسوعيين فى ميلى ، فأنجم به دراسته ، واستكمل ثقافته ، ونال منه اجازة فى الفلسفة . ثم عاد الى أهله سنة ١٨٠٨ ، وقضت عليه ملكيته الا يعمل فى حكومة (الطاغية) بونابرت كما كان يسميه ، فأخذ الى البطالة وسكن الى العزلة واستغرق فى المطالعة فغذى عقله وقلبه بما كتب روسو ، وتاس ، ودانتى ، وپترارك ، وشاكسبير ، وملتون ، وشاتوبريان ، وأسيان . ثم تعلم الايطالية والانجليزية . وعكف على دراسة تأسيس

ثم حركته دواعى الصبا الى الحب فنال من صفوه ومن رنقه ، وتامت قلبه فتاة من (ميلى) فأولع بها ولوعا خبل عقله ، وشف جسمه . فبعث به أهله الى ايطاليا ليبرأ ويسلو . ولما عادت أسرة (البريون) الى الملك سلك نفسه فى نظام الحرس ، ولكنه ما عثم أن ترك الجيش الى السياسة . على أن شيئاً من ذلك لم يشغله عن قرص الشعر ، فشر منه ما أحله فى الذروة بين شعراء الغزل ، ومهد له الطريق الى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٠ . وفى سنة ١٨٣٢ استأنف الرحيل . فعبّر البحر مع زوجته وابنته الى الشرق ، فزار سوريا وفلسطين . وفى بيروت رزاه الموت فى ابنته . وكان لأمريتين اذ ذاك قد بلغ أوج الشهرة ، وتسور شرفات المجد ، وصافح كنف الثروة ، فأتاه الخبر فى بعلبك أنه انتخب نائباً عن دائرة (بيرج) فعاد الى فرنسا ودخل مجلس النواب . ولما سئل عن الجهة التى سيتخذ فيها مقعده أجاب (فى السقف) اشارة الى أنه فوق المنافسات الحزبية والاهواء السياسية . وفى سنة ١٨٤٨ رشح لرياسة الجمهورية فظهر عليه لويس

(٥)

نابليون . واتقلب نظام الحكومة سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وطاردته في شيخوخته جيوش الفقر ، وفدحته أعباء الدين ، فنصب للعمل خمسة عشر عاماً لا يقترقله ، ولا يكل عزمه ، حتى كسب ستة ملايين فرنك قضى بها دينه . ثم مدت له الحكومة يد المعونة فرتبت له وظيفة مقدارها خمسمائة ألف فرنك يعطاها في كل سنة ما دام حياً . ولكن المنية لم تدته يتمتع بهذا الرزق غير عامين ثم اخترمته سنة ١٨٦٩ في وحشة من الناس ، ووحدة من الأهل . فقد توفيت قبله زوجته وأولاده ، فلم يغمض عينه غير حفيدته

شعره

كان لامرئين يقدم في رأيه رجل الفعل على رجل القول ، ويقول (ان الشعر ينبغي أن يكون سلوة الفراغ وزينة الحياة ، وليكن قوت اليوم وملاك العيش هو الجهاد والعمل) على أنه خلق بالطبع شاعراً غمر البديهة فياض القرحة ينطبق عليه ما قاله هو على لسان الشاعر المحتضر : « أنا أغنى يا صاحبي كما يتنفس الانسان ، ويفرد العصفور ، ويعزف الهواء ، ويخر الماء » ولقد كان شعره الحى العميق المؤثر بدء عهد جديد للشعر الوجدانى . وطالما قال بلهجة الفخور : « انه ابدل الهة الشعر من قيثارها ذات الاوتار السبعة أعصاب القلب البشرى يحركها ما لا عد له من خلجات النفس وهزات الطبيعة »

كان تأثره داخلياً ذاتياً فما فكر في غير نفسه ، ولا استمد الا من حسه . ومن قوله : « ان الشعر غناء الباطن » والحقيقة أن لامرئين أراد أن يشعر فغنى كما قال ابن الاثير في البحري

(و)

فكان منذ صباه موسيقى الجمل ، موزون الكلم ، وثاب الخيال ، فينس الشعر ، يستمد وحيه والهامة من مصادر ثلاثة : من نوازع القلب ، وجمال الطبيعة ، وحماسة الإيمان

مؤلفاته

للأميرتين مؤلفات كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها وتحليلها . فبحسبنا أن نسردها سرداً . فمؤلفاته النظمية هي ديوان التأملات ، وخيز ما فيه ماقالة في « الثمر » أوجوليا وديوان التأملات الأولى ، ونغمات شعرية ودينية ، وتأملات شعرية ، وجوسلين ، وسقطه ملاك ومؤلفاته النثرية هي الرحلة الشرقية ، وتاريخ الحبيب وندبن ، والمسارات ، وهي كتابان لمخص فيهما تاريخ شبابه وجملة حياته . أولها جرازيل ، وثانيهما رفائيل ، ثم ديوان رسائله

لاسرزين والسيدة جوليا شارل

في ربيع سنة ١٨١٦ أصيب لاسرزين بمرض في السكبد ، فأشار عليه طبيبه بالاستحمام في أكس ، فوفد عليها في أواخر أكتوبر . واتفق ان كان في المصح الذي نزل به فتاة مريضة هي السيدة جوليا شارل زوج الاستاذ شارل ناموس المجمع العلمي الفرنسي . فكان يزيد حبه لها ، وعطفه عليها شحوبها البادي ، وهزالها المالح ، وعزاتها المؤلمة ، فتنه منها ملاحظها الشاعرة ، وثقافتها النادرة ، ولهجتها البارعة ، وقسماتها الرائعة ، فتأصل بها ، وأغرم بحبها ، وقضى معها ثلاثة أسابيع على ضفاف بحيرة بورجيه ، ذاق

(ز)

ففيها حلاوة الغزل الجميل ، ولذة الحب النبيل ، ورقة الشغور المحض . ثم عادت الى باريس وعاد هو الى (ميل) ولم يرها ثانية الا في يناير سنة ١٨١٧ في منزل زوجها بباريس ، فتساقيا كؤوس الحب وترعة صافية في أرباض العاصمة الجميلة ورياضها مدة أربعة أشهر . ثم افترقا على أن



جوليا شارل حبيبة لامرتين

يتلاقيا مع الخريف في سقوا . ولكن القدر أبى عليهما هذا اللقاء . فذهب لامرتين الى اكس ينتظر قدوم حبيبته ، فما وجد غير النبال الفاجع باشفاها على الموت ، فارتد الى ما كون . وهناك أتاه نعيمها ، فهاله الخبر وروح به

(ح)

الحزن ، واشتد عليه الصبر ، وانبجس الدمع من عينه ، والشعر من قلبه ،
فاتى فى رثائها وذكرها بالمعجب المعجز . وقصائده فى (الفير) وهو اسمها
المستعار أشد ما فى ديوان التأملات اسمها للشعور وامتلاكها للنفس
كان لصلمة هذه السيدة بلامرتين أثر عميق فى حياته ، وصدى داو
فى شعره . وربما كان تأثيرها فيه لا يقل عن تأثير السيدة دثرنس فى
روسو . وفيما نشره الاستاذ (دوميك) من رسائلها سنة ١٩٠٥ ما يؤيد ذلك
وفى سنة ١٨٤٩ . بدأ يكتب ذكرياته عن هذه الحادثة تحت اسم
رفائيل مستعيناً بذكراته ورسائله على ما ناله النسيان وعبث به الزمن .
فكان من ذلك هذا الكتاب الذى ستقرأه الآن



مقدمة

بقلم الاستاذ الدكتور منصور فهمي

ألف الكتاب اذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب ان يضمنوها بعض ما يحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمّهات المسائل، وحسنًا يفعلون، فان مقدمات الكتب هي مداخلها التي تهيب القارئ الى ماسيقراً، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف المعاني وشتى الصور. على أني تهيبت أن أضع مقدمة لقصة رفايل عند ما تكرم أخى الاستاذ الزيات بدعوتى الى ذلك، لأننى خشيت ان أنا نحوت فى هذا الكتاب منجى الكتاب فصغرت صورته وخلصت فكرته أن أكون قد شوّهت شيئاً من جماله وانقصت كثيراً من كماله. لان قصة رفايل جمال حى وأدب راق وفن صاف، وهيهات ان ينقل المرء الى القارئ صورة من صور الجمال الحى! وهل تستطيع ريشة المصور مها آتاها الله من الرقة والدقة ان تنقل صورة صحيحة لحسناء لابس الجمال معناها ومبناها؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مها نال من حسن الصياغة وقوة البلاغة ان يلخص كتاباً فنياً من كتب الأدب، ويسط للناس ما فيه من روعة وحسن؟ ان من حاول ذلك شق عليه الامر والتوت به السبيل. ان خير ما أنصح به لمن يريد ان يتمتع نفسه بأثر الجمال الحى ان أغريه برؤية ذلك الجمال حياً. وخير ما ينتصح به من يريد ان يتذوق الادب أن يقرأ ما كتب الاديب. وعلى ذلك ينبغى أن يقرأ هذا الكتاب من فاتحته الى خاتمته

على اننى فضلاً عن تهيبى تلخيص ما فى الكتاب تخرجت أن أدفع

(ى)

بقلمى فى ميدان ليس من فرسانه ، فان الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن تعريب أديب كبير ، وجدير بقلمى ان يدع مضمار الأدب للادباء ، ويترك مجال البلاغة للبلغاء . ولكن حرصى على اجابة الصديق سهل على ما استصعبت ، وهدى قلمى الى ما أحببت ، فبدأ لى ان أقتطف من الكتاب بعض زهراته لاجعلها دليلا على ما فيه من سمو البيان ورقة الادب . ولكن اقتطاف شىء منه ليس باليسير الهين ، فان كل ما يقع عليه نظر القارىء لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، أو انسجام حسن ، فكيف لا يحار الانسان اذا أراد ان يتخير شيئا دون شىء ؟ وكيف يترك قطعة فيها عظمة الفكرة الى اخرى فيها سحر اللسان ؟ ففى الكتاب ما شئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكرة وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيقى وحلاوة الايمان وطهارة الحب . وسترى فى كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادقا على كل ذلك . على أن أضوأ نواحي الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب الى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون فى الوجود الا الحقائق المادية ان ذلك الحب العذرى النقي هو اختلاق شاعر أو تصوير مصور ، وينسى هؤلاء ان من خير وظائف الكتاب والفنانين ان يستنزلا من السماء الى الارض علماً وسطاً بين عالم هذه الارض المظلمة التى نسير عليها ونتأثر بحقائقها وبين عالم الكمال الذى نحن اليه النفس وتنزع اليه الانسانية ، وان هذا العالم السماوى الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة الى حقائق أصفى ، وان ما يبدو من الامور للناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، حتى اذا ما بلغوه اصبحت حقيقة من وجودهم ، وجزءاً من سلوكهم واخلاقهم . ألم تكن تلك الحقائق الخلقية من شفقة على المظلوم ،

(ك)

وامتهان للرق ، واحترام لحقوق الانسان ، خيالات الشعراء في العصر الغابر
فأصبحت اليوم حقائق أو شبه حقائق ؟ ان المثل العليا من القول والفعل
لتسمو بالانسان من الارض الى السماء

وشئ آخر في الكتاب أعلى وأجلى : ذلك هو الوصف بنوعيه الحسي
والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مخصبتين ظهرتتا
على اشد ما تكونان في عصر النهضة الغربية ، وامتدتا بوحيهما وهديهما حركة
المدنية . فالاولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة الى سبر اغوار النفس ليتبينوا
ما فى عالمها من معان ، ويصفوا ما فى ساحاتها من مشاهد

وقدما تطاولت الرقاب الى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها
القدسى ، وجابت صحراواته طوائف الفلاسفة وفئات المتصوفين ، فاذا عاد الينا
احدهم نبأ لا نستخلص منه الا ان فى هذا العالم ما يدهش وما يحير .
لذلك تلجلجت ألسنة المحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتنصوفة
واضرابهم رموزاً وتمتمة أشبه برق المشعوذين والسحرة . وذلك لأن اكثر
شؤون النفس مستغلق لا تجد العبارات الى تصوير معانيه سبيلا . ودام ذلك
الامر حتى قبض الله للناس رجالا من عصر النهضة جلوا بأستهم تلك الشؤون ،
ووصفوا باقلامهم تلك الحالات ، وصرفوا عنايتهم الى تجريد المعنويات ،
فكسب ذلك لغات الغربيين عنصراً جديداً قواها ونماها ، لأن الكتاب
الذى يغوص فى اعماق نفسه ليتصيد المعانى صافية جليلة لا يلبث ان يعود
الى القراء بدرر من الالفاظ ، ولا تلبث تلك الالفاظ الدرية ان تندس
فى أنسجة اللغة فتزداد نماء وجلاء وقوة . أما النزعة الثانية فهى امتداد
العقل الى معرفة الموجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجى .

(ل)

والوجود الخارجى هو هذه الاشياء المحيطة بنا ، وان علمها ليضيق بضيق علم الانسان بمميزاته ، وضائلة فهمه لصفاته ، وقصور نظره عن استطلاع جهاته ، ولكنه يحل ويتسع بمقدار احصاء المرء لشؤونه ، وتناول بيانه لهذه العبارات التى بمقدار وفرتها تنبىء ان الانسان على قلته قد اتصل بالكثير ، وعلى ضعفه قد جابه من هذا الكون العسير ، فصاغ للموجودات المسميات ، وعرف منها ما كان زكرة لديه ، ووسم بالفاظه وأسمائه من مظاهرها ما كان خفياً عليه . ولا شك انه بقدر ما يبلغ الانسان من معرفة هذين العالمين ، وبقدر ما يتقصى النظر فى مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه ويرقى بيانه . وفى الكتب المقدسة ان الله لما سوى آدم علمه الاسماء كلها . ولعل أبا البشر بلغ بتوفيق ربه درجة من العلم لا يفوقها الا علم الله . وذلك لأن معرفته لجهات النفس وعلمه باسمائها اذا أضيف اليه أسماء الموجودات الخارجية ومعرفتها كان ذلك كمال العلم . وفضل الله يؤتیه من يشاء

فكان الأستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التى استمدتها كاتبها من جمال الطبيعة وجلال الايمان وشرف العاطفة قد حرص على ان يقرئنا صحيان فيها دقات الكونين من عالم الغيب والشهادة ، أو من عالم المعنى وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية اجل خدمة . وأى خدمة أعظم من ان يعين الانسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل الشعور ودقته ؟

ان الاوائل من العرب لم يغفلوا بعض الاوصاف فوصفوا الابل وسيرها والخيول وكرها ، ووصفوا أساليب القتال من محاولة ومصالوة ، ومناظر الطبيعة

(م)

من سحاب وهضاب وبر وبحر ، ووصفوا الخور ومزجوا بين بعض الاوصاف وألموا أحياناً بوصف حالات النفس من هيام وغرام ، أو زهادة وإبهال . لكن هذه الاوصاف التي توخوها لم تكن الاجزاء صغيرة علموا به القليل من حالات النفس ، وقدراً يسيراً كشفوه من مساحة هذا الكون الخارجي . فبعد مضي عصرهم امتدت معارف الانسان الى ارض غير هاتيك الاراضي ، والى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الانسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورق ، وأصبحت الارض غير الارض ، والسماء غير السماء ، والنفس غير النفس . فاذا نقل الينا الناقلون كتاباً حديثاً يتضمن أوصافاً لارض غير التي ذكرها العرب ، ويحتوي مشاعر غير التي أحسها العرب ، فانهم بعملهم هذا يمدون في لغتنا سبباً ، ويضيفون الى زهراتها زهراً ، والى نغماتها ألحاناً ، والى حياتها حياة ان رفائيل أثر من آثار هذا العصر الحديث ، وثمره من ثمار هذا الزمن المتأخر ، وهو آية من آيات فنه ، والهام نابغة من نوابغه ، قد اشتمل على التصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب . فلما تبين ان لغتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت ضجة قامت حديثاً بين جماعة من أدبائنا يذهب بعضهم الى ان اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب في تسمية الاشياء وتصوير المعاني . ويذهب البعض الآخر الى ان العربية قد وسعت المعاني كلها ، وتناولت جميع الاغراض من ذوات وأعراض . ويدولى ان الفريق الاول قد أحاطوا بالكثير مما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولكنهم ألموا بالقليل مما احتوته اللغة الغربية من العبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا انها لا تطاول اللغات الاخرى ، فأثموا في بعض هذا الظن ، ويأسوا من ان تحقق لهم العربية ما يحيش في صدورهم من

(ن)

المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى
المخترعات . وكأن هذا الفريق فيما يراه في أمر اللغة لا يخلو بعضه من غير
صادقة عليها ، ورغبة محمودة في اعلاء منارها ، وبعضه عن افتتان بأدب الغرب
فتنه عن لغته وأدبه ، وبعضه من جهل بما في العربية من ثروة وقوة وعظمة
ومن جهل شيئاً عاده . أما الجماعة الذين أفرطوا في الوثوق بخصائص اللغة
العربية وحسبوا انها قاربت كمالها ، وكادوا يقولون فيها ليس في الامكان أبدع
مما كان ، فان أكثرهم ممن لم ينل حظاً من العلم بما في آداب الامم ، وفاته ان
فضل الله لم يكن ليتركز في انسان ، ولا يجلس على مكان دون مكان . ولعل
أشد ما ورط هؤلاء الجماعة في هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الاثر
في حفظ مشخصات الامم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون
الى خلودهم . وعندى ان هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا انهم
يقاتلون في غير عدو ، وان ضجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست
الانفوس الناس تتحرك فتحرك الفاظاً على اللسان ، وتعاير في الازدهان ، عند
ما تدفعها الدوافع والحاجات ، وتميزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته
وتطربها نغماته . فلو ان نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم
أموره ، ووسعت مراميهم ، واحتالت الى ذلك بانواع النحت والاشتقاق ،
وبعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول
وخير برهان على ذلك ان قصة رفايل التي نحن بصدددها يقرأها الانسان
عربية صحيحة على أسلوب العرب ، وبيان العرب ، وفيها رخامة الحانهم ورنات
أوتارهم ، وهي تحمل الينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة
بلغة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم . أو يقول المتطرفون بعد ذلك ان اللغة جامدة ؟

(س)

أو يقول الجامدون بعد ذلك ان نفوسنا لا تتأثر بما تنقله الينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه في تصوير الوجود ؟

بقي على ان أقول كلمة في رفايل من جهة الترجمة والتعريب . وتوطئة لذلك اثبت هنا ما نقله البستاني في مقدمة الياذة عن العاملى عن الصلاح الصفدى قال :

« ولترجمة في النقل ضربان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحصى وغيرهما وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتى اللسان بلغظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيلثمها وينقل الى أخرى كذلك حتى يأتى على جهة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما انه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ، ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائما . وأيضا يقع خلل من جهة استعمال المجازات ومعى كثيرة في جميع اللغات

الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحاق والحوهرى وغيرهما ، وهو ان يأتى بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنه . من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ أم خالفها . وهذا الطريق أجود . ولهذا لم يحتج كتب حنين بن اسحاق الى تبذير لافى العلوم الرضية لانه لم يكن قايما . بخلاف كتب الغلب ولططق والطبيعى والانهى فان الذى عبره مثلا لم يحتج الى اصلاح »

ثم قال البستاني بعد ذلك : « وان هذين الطريقين اللذين اشار اليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء سبعة قرون هما المذهبان المعروف عنيهما في النقل حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب (صحيح) »

يعنى ان الترجمة في من أدق القرون برعوا مترجمي من سلامة للمعنى وبعبارة القدرة ولا سيما في الترجمة الادبية ، وذلك لان اللفظ الواحد في لغة من اللغات قد يترجم باللفظ الواحد في لغة المترجم . وهذا لا يحصل ان كلمة المترجم لها نفس المعنى من الالفاظ . يعنى عن معنى الكلمة لفظ واحد

(ع)

فى لغة أخرى . وفى هذه الظروف تظهر قوة المترجم وبراعته وفنه . اذ تراه يتخير من الالفاظ الكثرية لفظاً دون آخر ، اما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المعنى ، واما لأنه فضلاً عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، ويؤخر جملة تقدمت ، ويقدم أخرى تأخرت ، دون ان يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى

ولقد وجدت فى ترجمة رفايل ابن الاخ شكر الله له جهوده جمع فى منهاجه فى الترجمة فضائل الاساليب جميعاً . فلم يفرط فى نظام الكلمات اذا سلم المعنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما فى أسلوب ابن البطريق والحصى ، ولم يفرط فى معنى اذا لزم الامر لتفريط فى مبنى ، فكأنه توخى بذلك خبر ما جاءت به طريقة حنين والجوهري . وبين تزويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللغتين المنقول اليها والمنقول عنها ، فتخير الالفاظ وصقل الاسلوب وأدى الامانة بما يقتضيه الدقة والايجاز . والخلاصة ان الاستاذ الزيات كان فناناً فى نقله ، أميناً فى فنه ، موفقاً فى عمله

على اننى كنت أؤثر ان يلتزم النقل^(١) عن نسخة واحدة بعينها ، فان تفاوت الطبعات أدى لامرتين الى شئ من الزيادة والنقص فى بعض مواضع الكتاب ، ولذلك جاء بعضه منقولاً عن نسخة والبعض عن أخرى ، وبين

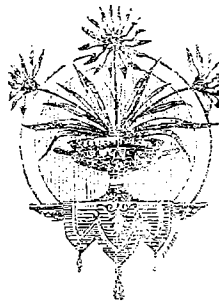
(١) رأى لامرتين بعد الطبعة الاولى لرفايل ان فى بعض الجمل شيئاً من المبالغة أو بعضاً من الحدة فتناولها بالحذف فى الطبعات التالية ثم غير فى تقسيم الفصول . وكان لماى ساعة الترجمة هاتان الطبعتان ، فكنت أوافق مرة وأخالفه أخرى ابتغاء الجمع بين فضيلتي النسختين . أما عناء المتعقب بجانب هذه الميزة فيعبرون

(ف)

الاصليين تفاوت يقتضى لمن يريد ان يراجع الترجمة ان يعالجها من
نسختين وفي ذلك ما فيه من مشقة . على ان عدم الحرص على نسخة واحدة
لم يخرج المترجم الفاضل أبداً في مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول
المؤلف وعمله . ولم يكن فيما لم يحرص عليه مقترفاً صغيرة ولا كبيرة

أسأل الله للأخ الكريم ان يوفقه في عمله ، ويعد في أجله ، لينقل اليينا
كثيراً من هذه الروائع الادبية ، فان الله قد خصه بما لم يخص به الكثيرين
من النفاة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة
وفصيحها ما لم يؤت به الكثير من متعاطيها ، فلا يسعى الا ان أرجوه ان
ينقل اليينا الكثير والكثير ، فتم ينقل بذلك لغتنا العربية الى خطوات في
سبيل تقدمها فضلاً عما يغدو به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه
المرات الشهية ، والزهرات العظيمة ، التي تفتحت في رياض الغرب فكان
لكل قطر من شذاها نصيب ما

منصور فخرى



الرهاء

أخوَيَّ الحبيبين «ع . س» و «ح . س»

اسمح لي أن أقدم الي حبكما الخالد هذا الكتاب
الخالد . فان لكما جميل الأثر في اشراق سطوره ،
وانبثاق نوره : فمن عينك الساجية يا أختاه فهمت لغة
الدموع ، ومن نفسك الصافية أدركت معنى الحساسة ،
ومن قلبك الفيض أحسست طهر المودة ، ومن
لسانك العذب اقتبست هذا البيان

أما أنت يا أخِيَّ فمن نظرتك الوديعه فهمت جمال
الطبيبة ، ومن بسمتك الرقيقة استشعرت اخلاص
الأخوة ، ومن ملامح وجهك الأبلج عرفت
دلائل النبيل

فأتما صورة ما في هذه الصفائف المشرقة من
عواطف كريمة ، ومواقف عظيمة ، وشمائل حلوة ؛
ولولا أن عليكما طابع الشرق الجميل ، لقلت إنكما
جوليا ورفائيل

١٠ الرياض

٢٠ مارس ١٩٢٦

فاتحة الطالب وخاتمة رفائيل

ايس رفائيلُ اسم ذلك الصديق الذي كتب هذه الصفحات ، وانما هو علمٌ كُنّا كثيراً ما نطلقه عليه مزاحاً ودُعابة ، لانه كان وهو في صدر شبابه ورونق يفاعته شديداً الشبه بصورة لرفائيل^(١) وهو غلام ، تجدها بروما في ايوان بَرَبْريني ، وبفلورنسا في قصر بَتِي ، وبفرنسا في متحف اللُّمُور . كذلك كُنّا ندعوه بهذا الاسم لان أخص صفاته ، وأظهر مميزاته ، شعور قوى بالجمال في الطبيعة والفن ، حتى لكانَ نفسه مرآة للجمال الحسى أو المعنوى المبتوث فيما خلق الله وفيما صنع الانسان . ومرجع ذلك فيه الى حساسة بارعة كادت تبلغ حد المرض لولا أن كف من غَرَبها الزمن ؛ فكُنّا نقول ان به مرض السماء ، اشارة الى ما يسمونه مرض الوطن ، وهو ما يأخذ الغريب من الوحشة والهم لفراق سكنته ووطنه . وكان هو يوافقنا على ذلك في ابتسامة رقيقة

(١) رفائيل صنزيو هو أشهر المصورين وأقدر المثالين في المذهب الرومانى . تمثلت فيه وفي صاحبيه ليونارد دلفنى وميخائيل أنج عبقرية الفن في عهد النهضة . وكان له المكان الاسمى في بلاط الباباين يوليوس الثانى وليون العاشر . رقد شارك في زخرفة الفاتيكان وترك على قصر عمره من الروائع الفنية ما ظفر بالتخليد ، وعز على التقليد . ولد بأرينو سنة ١٤٨٣ وتوفى عام ١٥٢٠ ودفن بالبنطيون

على أن هذا الحب الذى شغف قلبه للجمال كان طريقاً الى بؤسه
وشقوته ، ولو كان فى غير حاله لكان سبيلا الى نبوغه وشهرته . فلو أنه
أمسك الريشة لصوّر « عذارى فُولجَنُو »^(١) ، أو استعمل المنحت لمثل
« بَسِيشِيَه كَانُوفا »^(٢) ، أو كان يعرف لغة الاحان لدوّن رفيف الريح البحرية
تهب آنّة شاكية على ألياف الصنوبر فى ايطاليا ، أو أنفاس الفتاة الناعمة
النائمة تحلم بهن لا تريد أن تسميه ؛ ولو أنه كان شاعراً لكتب مناجاة
أيوب لله ، وموشحات هِرْمِيْنِي لتاس^(٣) ، وحديث رميو وجوليت فى ضوء
القمر لشكسبير ، وصورة هيدى للورد بئرن . وكان حبه للخير لا يقل عن
حبه للجمال ، إلا أن حبه للفضيلة كان لجمالها لا لكمالها ، ولنفاستها لا لقداستها .
وما كان الطمع ظاهراً فى أعماله ، ولكنه كان باطناً فى خياله . فلو أنه عاش
فى عهد الجمهوريات الأولى أيام كان الرجل ينمو كله فى جو الحرية كما ينمو
الجسم المرسل فى الهواء الطلق والشمس الضحوك ، اذن لرقى رقى قيصر^(٤) ،

(١) هى صور مختلفة للندراء صورها رفائيل لكاندرازية فولجيو احدى المدن

الاطالية

(٢) فى الميتولوجيا ان بَسِيشِيَه فتاة بارعة الجمال أحبها أمور . وقد اثن المصورون
والمثالون فى تصويرها وتمثيلها . ومن هؤلاء انطوان كَانُوفا المثال الايطالى (١٧٥٧ —
١٨٣٢ م) فقد نحت لها تمثالين من المرمر يمثل احدهما أمور مطوقاً بذراعه خصر
بَسِيشِيَه وهو يربها فراشة ، ويمثله الاخر ممسكاً بها عنقها من السقوط فى هاوية

(٣) تاس شاعر ايطالى تقدير له كتاب خلاص اورشليم وهو من البدائع الخالدة

ولد فى سورنت سنة ١٥٤٤ وتوفى بائساً فقيراً سنة ١٥٩٥

(٤) بريد يوليوس قيصر القائد الرومانى العظيم

ولتلكم كلام ديمستين^(١) ، ولما تميته قاطون^(٢) . ولكن جدّه المهيض
العائر قعد به على الرغم منه في دعة البطالة وعزلة التأمل ؛ فكان له جناح
يبسطه وينشره ، دون أن يجد حواليه هواء يحمله ويُطيره . ثم مات غريصاً
الشباب وهو يلتهم الفضاء بالنظر دون أن يظفر منه بمجال ومسبح !
لقد كان هذا العالم في دنياه حلمًا ، فعسى أن يكون هذا الحلم في
أخراه حقيقة !

أرأيت صورة الفتى رفائيل التي حدثتك عنها منذ قليل ؟ انها صورة
غلام ناشئ في السادسة عشرة من عمره ، على وجهه أثر من الشحوب وسَفَق
قليل من شمس روما ، ولكن خديه لا يزال عليهما رُواء الصبي وزغب
الطفولة ، وكأنما يتألق بريق من النور على خمل بشرته . مرقفه منكى على

(١) ديمستين أشهر خطباء اليونان . ولد بأثينا سنة ٣٨١ ق م وأعجب وهو صغير
ببلاغة الخطباء وتصفيق الناس لهم فتأقت نفسه الى التشبه بهم فحذر الناس منه لقم عبارته
وضعف صوته ولثغة لسانه . فكاد يئأس من نفسه لولا أن شجعه ساتيروس الممثل
الشهير وأفهمه أنه لا ينقصه الا حسن الاداء واجادة الالقاء . فابتنى حجرة تحت الارض
واختفى فيها ليبرن لسانه . وكان يخلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة تلك الحجرة .
وكان يصعد الجبل عدواً أو يرقى صخوراً على ساحل البحر وهو يلقي اياتاً من الشعر وفي
فه بعض الحصى ليحل عقدة لسانه . وظل على تلك الحال سنين حتى ملك اعنة القلوب
بفصاحته ، ووقف في وجه فيلبس يدافع عن حرية بلاده ، ويدود عن استغلال شعبه ،
توفي سنة ٣٢٢ ق م

(٢) قاطون دوتيك هو حفيد قاطون انسين ولد سنة ٩٥ ق م وشهر بدفاعه عن
الحرية أمام استبداد قيصر . ثم اخترق جسده بسيفه على أثر هزيمة طبسوس سنة ٤٦
ق م ، فكانت حياته وهوته رهزاً لشجاعة القلب ، ورباطة الجأش ، وشرف النفس

منبضدة ، وساعده منتصب تحت فؤده الأيمن فاستراح الرأس على راحته ،
وأصابعه الجميلة الوضع قد طبعت على الذقن والحد خطأ خفيفاً أبيض . أما
الفم فرقيق ساهم حالم ، والأنف دقيق ما بين العينين ضارب قليلا الى



هذه صورة ريتشارد الثالث صاحب الأسدين يومى من أبداع ما خطته يد فنان .
تستحق الاصل المحفوظ في المتحف القومى ، ولكن لم يستطع الحفاظ
على أسفاده ان يظهر هذا الجبان المشوه

...ة وكأما رقة البشملة شئت هن كازوكورد اوردى و راعينان ذواتا لون
زرى صاف قائم كدوّن سماء الايطيين كبرى نجر سلطان الى الأمام فى

طموح قليل الى السماء ، كأنما تتبصران ما هو أسمى من الطبيعة ، وهما مشبعتان الى أقصاهما بالنور ، مخضلتان قليلا من الأشعة المغموسة في رُضاب الندى أو فيض المدامع ؛ والجبهة قوس يكاد يتم عقده ، ترى من درائها اختلاج عضلات الذهن تحت البشرة الناعمة الرقيقة ؛ والصدغ مفكر ، والاذن منصتة ، والشعر مرسل فاحم مقصوص لأول مرة على غير انظام . يلتقى شيئا من ظلاله على الخد واليد ؛ وعلى الرأس قلنسوة صغيرة مسطوحة من القطيفة السوداء تغطي أعلى الناصية ثم تسقط على الجبهة . فمن مرأمام هذه الصورة تفكر ثم اكئاب دون أن يعرف سببا لتفكره واكتئابه . تلك عبقرية ناشئة تحلم على اعتاب القدر قبل أن تدخل ، ونفس شابة واقفة على أبواب الحياة تفكر فيما تقبل عليه ، وفيما تصير اليه

إذا علمت ذلك فأضيف ستة أعوام على عمر هذا الصبي الحالم ، ثم وضح هذه الملامح ، ولوح هذا اللون ، وغضن تلك الجبهة ، وكوم هذا الشعر ، واكسر هذا النظر ، وارسم الأسمى على تلك الشفة ، ومد هذه القامة ، وأبرز تلك العضلات ، واستبدل بهذه الحلة الايطالية التي ترجع الى عهد ليون الماشر حلة قائمة ذات شكل واحد لفتى نشأ في عهد البساطة بين القرى والحقول ، لا يريد من الثوب إلا أن يستره في حشمة ؛ ثم امسح على هذه الهيئة كلها بشيء من النحول الناشئ من ادمان الفكر ، أو الحاح الألم ، يكن لك من مجموع ذلك صورة صادقة لطاقمة لرفائيل وهو في العشرين من عمره كانت أسرته فقيرة على طول ما أقامت في جبال فوريز منبت أرومتها

ومدرج طفولتها . فأبوه كان من رجال الحرب ، ألقى السيف وأخذ المحراث على نحو ما يفعل أشراف اسبانيا ، ولم يبق له من كرامة ولا وجهة ولا اعتبار الا في الشرف الذى رجح عنده بكل شيء . وأمه كانت لا تزال شابة جميلة يحسبها الناظر لمشابتها اياه أختاً له . ربيت في حجر النرف ، وتقلبت في أعطاف النعيم ، وشبت على أناقة الحاضرة . ولكنها لم تحتفظ من هذه النشأة الا بعبير اللهجة وخلابة المنطق . فلما نُفِيت الى هذه الجبال وعاشت بين زوج نالت به حاجة قلبها وبغية حبها ، وأولاد وجدت فيهم كل رضاها وغاية فخرها ، لم تأس على ماض ولم تسخط على حاضر ، وانما طوت كتاب شبابها الجميل على هذه الكلمات الثلاث : ربها ، وزوجها ، وأولادها . وكانت تختص رفائيل بحبها واعزازها ، وتود لو كانت تملك تصريف القدر فتجعل حظه حظ ملك . ولكنها وا أسفاه ! ما كانت تملك غير قلبها أداة لرفعه ، ووسيلة لنفعه . فعارض القدرُ أملها باليأس ، وقوض الدهر بناء حظها حتى الاساس من ثروة ضئيلة ، وأحلام جميلة !

وكان حينئذ شيخان من رجال الكنيسة قد اعتصما بهذه الجبال بعد عهد الارهاب بزمن يسير فرارا من المضطهدين الذين يتعقبونهما لاعتقادهما آراء في التصوف لا أدريها . فوجدا في بيت هذه الأم ملاذاً وحى ، وأحبا رفائيل وهو يومئذ في حجرها ، وتنبأ له نبوءة ورصدا له كوكبا وقالا لها : « ارعى بقلبك هذا الطفل » والأم من طبعها أن تعتقد . فكان هذا الاعتقاد سنداً في اليأس ، وأملها في اليأس ؛ الا أنه حملها في سبيل تربيتها

فوق طاقتها ، ثم تكشف لها برقه عن سحاب خلب ووعد كذوب
عرفت رفايل وهو في الثانية عشرة من عمره ، فتساهمنا الوفاء ، وتقاسمنا
الود ، حتى كنت أحب الناس اليه بعد أمه . ولما قضينا عهد الدراسة عدنا
فتلاقينا في باريس ثم في روما . وكان قد أقدمه اليها قريب لأبيه لينسخ
معه كتبها مخطوطة من مكتبة الفاتيكان . ومن ثم وقع في نفسه الميل الى
اللغة الايطالية وأدبها فنقفها وأتقنها إتقانه للغته . ثم كان كثيرا ما يرتجل
مقطوعات من الشعر الرقيق ، ونحن في ظلال الصنوبر من مدينة بيفيلي ،
والشمس راقدة على سرير الشفق تودع النهار ، والسهل ممتليء بعظام روما
ورفاها ، فيهبج أشجاني ويستدر حوالب عيني . ولكنه ما كان يدون شيئا
مما يقول ، فسألته مرة : « لماذا لا تكتب شعرك يارفايل ؟ » فأجابني
قائلا : « عجباً ! وهل يكتب الهواء ألحانه التي تسمعها من هذه الأوراق
الهازجة ؟ أم هل يكتب البحر أنينه الذي يلفظه على كسبانه وشطآنه ؟
لا جمال فيما يكتب . وان أقدس شيء وأنفسه في قلب الرجل هو الممكنون
الذي لا يظهر . الآلة من لحم والاحن من نار ! فإذا أنت صانع ؟ وان بين
ما تحسه وبين ما تعبر عنه من البعد لَمَّا بين النفس وحروف الهجاء ،
أعني اللانهاية . فهل تريد أن توقع على ناي من القصب أنغام الفلك ؟ »
ثم تركت رفايل ، وعاد القدر فلف به شملي في باريس . لقينته يبحث
بحث المعنى الخائب عن عمل يخفف أعباء نفسه ، ويفرج ضائقة نحسه . وكان
الشباب من أترابنا يطلّبونه ويبحثون عنه ، والنساء ينظرن اليه وهو مارت

بين في الشارع نظرة ذى علق . ولكنه أبدا لم يغش أبهاء السمر ولم يحب من النساء غير أمه . ثم فقدنا أثره وجهلنا خبره على حين بفترة مدة ثلاث سنوات كاملة . ثم علمنا من بعد أن ناساً رأوه في سويسرا ، وفي ألمانيا ، وفي سقوا ، ثم في باريس أثناء الشتاء يقضى هزيعاً من لياليه على جسر من جسر السين ، أو على رصف من أرصافه . وكان ظاهره يتم على العاقبة والعوز ، ولكننا لم نستبطن دخيلة أمره وحقيقة فقره إلا بعد سنين . كان وهو غائب متجه افكارنا ، وموضوع أحاديثنا ، لانه من الافذاذ القليل الذين يتحدونك أن تنساهم ، أو تشغل عنهم بسواهم

ثم ضرب الدهر بيننا ، وصدع البين شملنا ، فلم نلتق الا مصادفة بعد فراق اثني عشر عاماً . واليك كيف كان ذلك : كان لى فى اقليمه إرث ، وكان من هذا الارث قطعة أرض أريد أن أبيعها ، فلما بلغت هذه البلاد تنسنت خبره ، فقيل لى انه فجع فى أبيه وأمه وزوجه على قترات من السنين . ثم أصيب فى ثروته ، بعد مصابه فى أمرته ، فلم يبق فى يده من ملك آبائه الا مسكن من برج عتيق مريع مهدم يشرف على واد من الأودية ، والا حديقة وبستان ومرج فى هذا الوادى ، وخمسة أوستة فدادين من نكاد الارض يفلحها هو نفسه على بقرتين عجفاوين ، فما يميزه من جيرانه الفلاحين غير الكتب التى يحملها معه الى الحقل . ولكنه منذ بضعة أسابيع احتبس فى طلبة البالى فما عاد يبصره أحد . فظن الناس أنه ربما استأنف تلك الرحلات الطويلة التى كانت تستغرق سنين . وسارت كلمات الاسف على أفواه العارفين به

والمتنفعين منه ، وقالوا : « إن فراقه بلاء على الجيرة وأهل الحى ، فقد كان على ققره يُفَضِّل عليهم افضال الغنى ، وكثير من الفُرش الجيلة فى هذه البلاد منسوج من أصواف ضأنه ، وكان فى المساء يعلم أطفال الضياع المجاورة القراءة والكتابة والرسم ، ثم هو يدفعهم بناره ، ويطعمهم من خبزه ، والله يعلم هل يُفَضِّل عنده بعد اطعامهم شئ . يأكله اذا ما نقص النمر وقل الحصاد كهذه السنة العجفاء »

بهذا اللسان كان القوم يحدثنونى عن رفائيل . فأحببت أن أزور على الاقل مسكن هذا الصديق القديم . فاقترادنى اليه بعض الناس حتى بلغ بى سفح الكمة التى قام عليها برج الاسود تكتنفه اصطبلات واطنة فى وسط أيككة من شجر البقس والبندق . فاجتازت مجرّى ناضبا من مجارى السيل على جذع شجرة ، وصعدت الى البرج فى طريق لاحب^(١) من الحجارة ، فرأيت على جانب جديب من الهضبة بقرتين وثلاث غنات ترعى فى حراسة شيخ كليل البصر يذكر الله على سبحته وهو جالس فوق شعار منحوت من الحجر قد سقط من عقد الباب . فتقدمت الى هذا الشيخ واستفهمته عن رفائيل ، فقال لى : انه ما سافر ، وانما اعتراه مرض ثقيل ألزمه الفراش منذ شهرين ، وهو يرى أنه لا يخرج من هذا البرج الا الى تلك المقبرة . ثم أشار الشيخ بيد عارية الاشاجع^(٢) الى الهضبة المقابلة فرأيت فوقها المقبرة .

(١) الطريق اللاحب : الواضح

(٢) عارى الاشاجع : قليل لحم السكف . والاشاجع اصول الاصابع

فسألته أو يستطيع أحد أن يراه؟ فقال ولم لا؟ اصعد الدرج واجذب رتاج الباب على الشمال ينفتح لك عن القاعة الكبرى، فادخل تجده ممدداً على سريره وديعاً كالملك ساذجاً كالطفل»

قال ذلك وهو ينهذه دمه المسفوح بظهر يده . فصعدت سلماً خارجياً وعرا يستند الى جانب البرج ، وينتهي برحبة صغيرة عليها سقف من الخشب والطوب تناثرت قراميده فوق بلاط السلم ، ثم جذبت الرتاج الى الشمال ودخلت فاذا منظر لا انساها ما حبيت : غرفة واسعة تشغل مساحة الفراغ الذى بين الحوائط والبرج ، بها شباك كبيران ذوا قواطع من الحجر ، زجاجهما المغبر المكسر مُدخل فى مربعات شطرنجية معيّنة من الرصاص ، وهى مرصوفة بالطوب مسقوفة بمجدوع غليظة من الخشب قد اسودت من الدخان ، ومدفأة مرتفعة ذات قوائم من الخشب المضلع فى غير دقة ، تدلى من علاقة فيها قدر مملوءة من البطاطس تحتها حطبة تحترق من طرفها . وليس فى هذه الغرفة من أثاث غير كرسيين عاليين مسندهما من الخشب المصقول ، وظاهريهما من قماش رمادى احتمل^(١) لونه فما يستطيع ان تعرف أصله ، ومنضدة كبيرة على جانب منها خبز ملفف فى خوان ، وعلى الجانب الآخر أوراق وكتب مبعثرة مهوشة ، ثم سرير ذو أعمدة نحرة ، وستور من الصوف الازرق المفوف قد

هصرت حول الاعمدة حتى تأذن للنسيم ان يدخل من الشباك المفتوح ،
 وللشمس ان تلتقي اشعتها على اللحاف المنشور ، ورجل جالس على حافة
 هذا السرير لا يزال فى ربيع العمر ولكنما شفه السقم ، وبراء البؤس ، فماد
 من الهزال مثل الخيال . كان حين فتحت عليه الباب يفتت قطع الخبز
 لسرب من أفراخ الدُّورى والسنونو ، يضطرب ويموج على أرض الغرفة
 تحت قدميه . فلما أحست المصافير وقع قدمي طارت فوقعت على
 رفرف القاعة وفوق سماء السرير ، وعرفتُ رؤايل من خلال شحوبه
 ونحوه . فان صورته وان فقدت صباحتها ، لم تفقد سماحتها ، وان ذهب
 عنها جمال الحياة ، فقد بقى عليها جمال الموت . وكان شعره الاسود يتهدل
 حلِّقا فوق كنفه كما يتهدل شعر الحراث بعد غناء اليوم ، وكانت لحينه
 طويلة مرسله ، قد نبتت على نسق طبيعى متعادل ، فتركتك ترى جمال
 مقطع الشفتين ، وبروز الوجنتين ، وتقوس العينين ، وتجويف الصدغين ،
 وبياض البشرة ؛ وعليه قيص مفتوح عن صدر ناحل شديد العضل
 والعصب ، فلو تركه الوهن ينتصب لأكسب هيأته جلالا وعظمة

عرفنى من أول نظرة ، نخطا الى خطوة وذراعه مبسوطتان
 يريد أن يضمنى الى صدره ، ولكنه سقط على حافة السرير ،
 فبادرت اليه وكلانا لا يملك سوابق دمه . ثم تحدثنا فقص على تاريخ
 حياته وهو سلسلة متصلة من الاخفاق والخيبة . فتارة بالفقر الذى قصم
 جناحه ، وأفسد صلاحه ، وتارة بالموت الذى حال بينه وبين اقتطاف

الزهرة أو اجتناء الثمرة ؛ ثم حكى لى فجيعته بأبيه وأمه وزوجه وولده ، وكيف رماه الدهر فى عمله بالخذلان ، وفى أمله بالحرمان ، حتى خلعته بالقهر من ملك أبيه ، وألجأه الى هذه العزلة فى هذه الانقراض الباقية من بيت الأسرة ، لا أنيس له الا هذا الراعى الهرم الذى يخدمه من غير أجر ، ابقاء لحرمة البيت وإرعاء على مجد أهله . ثم ذكر لى ذلك السقم الذى نخَّوَّته وأذواه وسيسقط به على الموت اذا ما سقطت أوراق الخريف ، فيدفن فى مقبرة القرية التى ضمت عظام آبائه وأحبابه . ثم قال وهو يشير بأصبعه الى صف الطيور الواقعة على رفرف السرير : « أتدري ما الذى زادهم على كل هم ، وفاق ألمه كل ألم ؟ هى هذه العصافير المساكين التى اتخذت منها خُلصائى ، وجعلتها آخر أهل ولائى ! انها ستبحث عني فى الربيع المقبل فلا تجد لى رجلاً ولا تحس منى حركة ، وان ترى بعدُ ذلك الزجاج المكسر فتدخل الغرفة من خلاله ، ولا ذلك الكتنان المتساقط من حَشِيَّتِي على الارض فتبنى عشها من نُساله . على أن الحاضنة التى أوصيت لها بما تركت من رزق يسير ستُعني بهذه الطيور ما دامت حية ، — وفى ذلك بعض العزاء — فاذا ما فارقت الحياة بقى لها الله الذى لا يحرم الصغار ولا الضعفاء نعمة الاكل والماء . وكان الحنان بادياً فى حركاته وكلماته وهو يتحدث عن هذه الطيور الصغيرة ، فيكأن رقة قلبه لما عزها الخلوص الى الانسان ، لجأت بعطفها وبرها الى الحيوان . ثم قال : أتلبث فى هذه البلاد زمناً ؟ فقلت له نعم . فقال : حسن ! انك اذن ستغضى عيني ، وسأكل اليك

أن يُشَقَّ ضريحى فى أقرب الاماكن الى ضريح أمى وزوجى وولدى «
ثم طلب الى أن أدنى منه صندوقا كبيرا من الخشب المنتوش كان مطمورا
تحت عِدْل من أعدال الذرة فى إحدى زوايا الغرفة . فوضعت الصندوق
على السرير وأقبل هو عليه بخرج منه رِزْمًا من الورق ظل يمزقها نصف
ساعة وهو صامت . ثم رجا من حاضنته أن تلقى بجذائنها فى النار
أمامه . وكان فى هذه الأوراق طائفة كبيرة من الشعر فى كل اللغات ،
وصفحات كثيرة فى موضوعات متفرقة وأوقات مختلفة كأنها ذكريات .
فسألته على استحياء لماذا تحرق كل هذا ؟ أليس للرجل بجانب ميراثه
المادى ميراث أدبى يتركه لمن بعده ؟ ربما تحرق فيما تحرق خواطر
وعواطف تبعث فى بعض النفوس الحياة والقوة » فقال : « دعى أفعل .
فحسب هذا العالم ما فيه من دموع . ولا جدوى على الناس فى أن نضيف
الى تلك العبرات هذه القطرات . ان هذه الاشعار ريش قريحى الشابة
العابثة ، وقد أسلَّتهُ من زمن واستقلت أجنحة الابد » ثم استمر يمزق
ويحرق وأنا فى أنشاء ذلك أتأمل المزارع الجدداء من خلال الزجاج
المحطم . ولما فرغ من ذلك دعانى اليه وقال : « خذ هذا المخطوط الصغير
فانقذه وحده ، فليس لى جلد على إحراقه . ولو تركته بعدى لاتخذت
حاضنتى من أوراقه أكياساً لبندورها ، وأنا ضنين بالاسم الذى يالها
على الهوان والدنس . خذه واحتفظ به حتى تعلم أنى مت فيكون لك
الخيار حينئذ إما أن تحرقه وإما أن تتركه الى أن يبلغك الكبر فتجد فى

قراءته الحين بعد الحين ذكرى صديقك .

فأخذت الملف وغيبته في ثيابه ، ثم خرجت وفي نفسى أن أعود
اليه غداً وفي كل يوم لأخفف عنه بالعناية والحديث عبء أسقامه ، في
أخريات أيامه . وما كدت أتوسط السلم حتى رأيت زهاء عشرين طفلاً
يحمل كل منهم بابوجه^(١) في يده ، وهم يصعدون الدَّرَجَ ذاهبين الى
رفائيل يأخذون عنه الدروس التى حرص على تلقينهم إياها حتى على سرير
موته . ثم أبصرت على بعد منهم قسيس القرية آتياً يقضى صدر الليل
بجانبه ، فخبثته خيائى وبه ما بى من الأسى والحزن . ولما عدت في اليوم
التالى الى البرج كان رفائيل قد استوفى في الليل أنفاسه وقضى نحبه ،
وكان ناقوس القرية المجاورة قد بدأ يدق دقة النعى ، والنساء والاطفال
قد خرجوا من دورهم باكين معولين ينظرون الى جهة البرج ، ورجلان
يحفران الارض في حقل صغير أخضر بجانب الكنيسة يشقان فيه ضرباً
تحت صليب ! فدنوت من الباب فرأيت غمامة من عصافير
السنونو تطير نائمة حول الشبائيك المفتحة ، لا تفتر عن الدخول
والخروج ، كأنما اجتاحت أعشائها جائحة . ولما قرأت هذا الكتاب
فهمت لماذا ألّف رفائيل هذه العصفير ، وماذا كانت تبعته من الذكرى
في قلبه ، حتى ساعة لقاء ربه !

(١) البابوج : القبط أو الصندل

رفائل

١

ان من الأمكنة والأجواء والساعات والفصول والظروف
الخارجية لَمَا يتصل سلكه بحبات القلب ومشاعره ، حتى لتخال
الطبيعة جزءاً من النفس ، والنفس جزءاً من الطبيعة ؛ فاذا
فصلت المسرح عن الرواية والرواية عن المسرح ذوى المشهد
وانمحت العاطفة . جرد ريمه من شواطئ بريطانيا الصخرية ،
وأثالا من مروج الصحراء الوسيعة ، وآلام قرت من أندية السواب
الكثيفة ، وپول وقرجینی من غوارب الماء المشبعة من الشمس ،
وجبال المرز الناضئة من الحرارة ، فانك لا تفهم شاتبريان ولا
جوتَ ولا برتردَن دُ سنَ پیر

ان بين الأماكن والأشياء علاقة وثقى ، لأن الطبيعة
واحدة فى قلب الرجل وفى عينه . انما نحن أبناء الأرض ،

وما يجرى في عُصارتها من الحياة هو نفسه ما يجرى في عروقنا منها ، وما تحسه هي وتقوله لأعيننا بلسان مناظرها ووجوهها ، وطلاقتها وعبوسها ، يتبين في نفوسنا رجعه وأثره . هيهات أن تستكنه عاطفة في غير موضعها الذي نبتت فيه واستقرت به !

٢

هناك لدى مدخل سقوا — وهو ذلك التيه الطبيعي لتلك الأودية العميقة المتحدرة الى سويسرا وفرنسا تحدر مدارج السيول على جبال سمبلون وسن برنار وسنيز — ينجل من عقدة جبال الألب وادٍ فسيح الرقعة قليل الوعورة ، يشق له بين المخاضر والأنهار والبحيرات طريقاً الى جنيف وأنيسى بين جبل القط وجبال بوج الحائطية . فاذا أبصرت عن شماله رأيت ضلعاً من جبل القط قد تنأى على امتداد فرسخين ، فضرب في السماء قائم اللون ، واحد الشكل ، موطأ الذروة ، تحسبه سوراً متسع العرض قد مرّدوا سطحه على خيط بناء . ثم تكاد لا تجد ما يقطع هذا التماثل الهندسي الأسنن أو ثلاث أسنان برزن من صخرة شهباء في طرفه الشرقي ، فدلن الأعين على أن ليس ليد الإنسان عمل فيه ، وما كان لغير يد الله أن تعبت بهذرى الجروم . أما سفح هذا الجبل

من ناحية شميرى فيمتد في أحشاء السهل في سلاسة ولين ، ثم يترك وراءه وهو يهبط درجات وهضبات تُغشيها أشجار التنوب والجوز والشاهبَلُوط^(١) ، وتوشج^(٢) بينها أغصان الكروم العارشة . فاذا سرحت بصرك في هذه المخضرة الموحشة المتنفة رأيت خلالها المنازل الريفية تلوح بيضاء على مسافات بعيدة ، والقباب العالية تظهر شماء فوق القرى الحفيرة ، والابراج البالية تبدو سوداء فوق القصور المشرفة^(٣) العتيقة . وفي قرارة ذلك المنحدر الأوهد تبصر السهل وقد كان في غابر الدهر بحيرة فيحاء لاتزال تحفظ من شكلها الأول غورها المطمئن ، وشطآنها المتعرجة ورءوسها البارزة ؛ غير أنها استبدلت بأمواجها الزرقاء أمواجاً من خضرة الجوز ، وحوّة المريج ، وصفرة الحصيد . ثم تقوم في سرّة هذا الوادى الأبطح بضعة نجود كانت في عهدها الأول جزراً ، وفوق تلك النجود منازل يحلها يبيس النبات ، ويظللها وريق الشجر . ثم ترى من وراء هذا الحوض الناضب جبل القط وهو على أشد ما يكون إجداباً ووعورة ، قد طعن في أديم السماء بروقيه^(٤) ، وخوض في بحيرة صافية الماء بقدميه . وتلك البحيرة

(١) الشاهبلوط : أبو فروة (٢) توشج بينها : تشبكها (٣) المشرفة : ذات الشرفات (٤) الروق : القرن

تطول على التقريب ستة فراسخ في عرض يتراوح بين فرسخ
وثلاثة. تراها وهي تتجه الى فرنسا وعرة الشاطئ جرداء الساحل ،
فاذا ما اتجهت الى سَهْوَا رأيتها على النقيض من ذلك تظمن
وتندغم في أجوان وخلقجان تُغَشِّي جانبيها الغياض والرياض ،
وتكتنفها العرائش والكروم ، حتى تنمحي عند رَجْع البصر في
صخور شاتليون ، وهناك ينصب طفح مياهها في نهر الرون .
وفي الجانب الشمالي يقوم على قاعدة من الحجر الصفوان^(١) دير
(الهتسكُمب) - وهو مدفن الأمراء من آل سَهْوَا - فيُلْقَى
بظلال أسواره على أمواج هذه البحيرة . وذلك الدير قد احتضنه
جبل القط فوقاه الشمس فأمسى في ظلمة متصلة تذكرنا ذلك الليل
الأبدى الذي غَشِيَ هؤلاء الأمراء وقد هبطوا من عروشهم الى
هذه الرموس ، اللهم الا في الطفل^(٢) فتلقى عليه الشمس نظرة
فيمِض في جنباته بريقٌ من النور كأنه يُظهر للناس مرفأ الحياة
آخر اليوم

وعلى وجه البحيرة وتحت صخور الجبل تنساب زوارق
الصيادين من غير شُرْع ، فتتشابه ألوانها بألوان الصخور لتطاول
عهدا وقَدَم حواشيها . وفي السماء ترى أسراب النور الشهب

(١) الصفوان : الصلد الاملس (٢) الطفل : قبيل غروب الشمس

لا تفتر عن التحليق فوق الزوارق والجنادل ، كأنما تريد أن تنازع
الشباك على قنائصها ، أو تنقض فوق الطيور الصائدة التي تقتنى
أثر القوارب على طول الشاطئ

٣

على مقربة من هذه البحيرة تجدد مدينة إكس ينعقد فوقها
الدخان ، ويرتفع منها الضجيج ، وتسطع في الأنوف روائح مياهها
الحارة الكبريتية . وهي طبقات صاعدة على حدود ربوة واسعة
من الكروم والمروج والبساتين ، يصل ما بينها وبين البحيرة
درب طويل مظلل الجانبين بأشجار الحور العتيقة ، تحسبه مخرفة
من مخاريف السرو التي تدفع الى المقابر في تركيا . وعن يمين هذا
الدرب وعن شماله تبصر المروج والحقول تخترقها أخاديد السيل
حصية ناضبة ، وتظللها أدواح الجوز الباسقة تتدلى على أفنانها
عسايج الكرم وعناقيده العارشة . فاذا لقي البصر فرجة بين
أوراق الجوز وأعنان الكرم أخذ منظر البحيرة الزرقاء ، وقد
اختلفت على وجهها ألوان السماء باختلاف ساعات النهار : فمن
صفو وطلاقة ، الى عبوس وشحوب

ولما حلت هذه المدينة كان سواد المصطافين قد رحل .

وأُمسّت الفنادق والأندية بعد ازدحامها بالسافرة وأهل البطالة
 خلَاءً مقفرة ، فلم يبق الا بعض البائسين من ذوى العاهات
 جالسين فى ضوء الشمس على أعتاب الفنادق الحقيمة ، وبعض
 اليائسين من المرضى ينقلون خطاهم الواهنة الوانية فى حر الظهيرة
 على ما تساقط من الأوراق الجافة أثناء الليل

٤

بَكَرَ الخريفُ رُخىَّ النسيم رضىَّ الشماثل ، فلوّن أوراق
 الكرم والكركز والشاهبلوط هنيئة بلون الورد ، ثم أرسل عليها
 صقيع الصباح يَضْرِبُهَا فَتَسَاقُطُ على الارض تساقط الغيث الهتون .
 وكان الضباب يسحب رداءه الكثيف على الأفق الى وقت الظهيرة ،
 فتظنه سيلا طغى فغمر الأودية والسهول حتى لم يترك فوقه الا
 رءوس الحور الباسقة ، وقُنن التلال الشاهقة ، وشِعَاف الجبال
 كأنها الرءوس الداخلة فى البحر ، أو الصخور النائمة على سيفِ
 المحيط . فاذا مَتَعَ النهار هبت رياح فاترة فتكسح هذا الزبد ،
 وتقشع ذلك الضباب ، ثم تتقحم مخارم الجبال وأفواه الشعاب
 فترتطم فى الصخور والأمواه والشجر ، فتسمع لها زفرةً رخيمة
 شجية ، تملو ثم تنخفض فتخالها فى بضع دقائق قد مرّت على جميع

أوتار الطبيعة فخرتها بأنعام الفرح والقوة والكتابة ، فيبلغ أثر ذلك الى أعماق نفسك ، ويملك عليك مذاهب حسك . ثم تسكن هذه الريح وتقنى كما تقنى أحاديث الأملاك في اللانهاية ، ويعقبها سكون لا عهد للأذان بمثله ، يهيمن عليك حتى تسمع دقات قلبك ، ونامة نفسك ، ويعاود السماء منظرها الضاحك الطلق فتكون أشبه بسماء إيطاليا ، وتظهر جبال الألب غرقى فى رقيق من السماء لا عد له ولا حد . وتتساقط حبات الضباب رنانة على سفير^(١) الشجر ، أو تتلألاً وهاجة على أزهار المروج كالشرر

على أن ساعات الصحو كانت قصيرة . فما أسرع ما تسرق ظلال المساء النديّة خطاها فتنتشر على الآفاق انتشار الكفن وما قضت هذه الآفاق من شمسها الغاربة لبانة ! ثم تموت الطبيعة موت الشباب والجمال على أتم ما تكون طلاقة وأناقة !

مثل هذا البلد ، وهذا الفصل ، وتلك الطبيعة ، وذلك الخود الذى استولى على كل ما يحيط بى من الاشياء ، لمّا ينسجم مع نفسى الخامدة وشبابى العاقل انسجام النغمات فى اللحن الجميل . ولقد زدت بهذه البيئة هموداً على همود ، وغرقت فى بحر لى من الحزن ، غير أنه حزن حى ملئه التصور ، والتأثر ، والاتصال الوثيق

(١) سفير الشجر : الاوراق الجافة الساقطة

بالانهاية ، والضوء الشاحب في العين ، والأمل الخائب في النفس ،
فما كنت أرغب في السلو عنه ، ولا الافلات منه . هو داء من
أدواء الانسان ، ولكن الشعور به كان لذة مغرية لا شكاة مضنية ؛
والموت الذي يفضى اليه كان أشبه بالغيوبة اللذيذة في الوجود
المطلق . فقررت أن استسلم اليه وأستسلم فيه ، وأن أصرف نفسي
عن صوارف الحياة ، وأضرب حولي نطاقاً من الصمت والعزلة
والفتور يحجبني عن كل شيء ما عدا الله والطبيعة

وكنيت قد لقيت وأنا أجتاز شميرى صديقي لويس د .
فوجدته على الحال التي أنا فيها : جبين متعصن من سخف الحياة ،
وصدر منقبض من مضى الحوادث ، وعبقريّة مدفونة في ضلال
المجتمع ، وجثمان مرهق بخواطر النفس . فدلني على بيت منزّل
في المدينة يقوم بتديره طبيب بالغ السن طيب القلب هو وزوجه ،
وقد جعلاه للمستشفين مصحّاً ومثابة . يصعد الذهاب اليه من المدينة
في طريق ضيقة بين المنابع الحارة . فاذا أخذ منظره من خلفه وجد
حديقة مسوّجة بالعرّاش والأروقة ، ومن ورائها مروج حادرة ،
وخمائل ناضرة ، وأدواح من شجر الشاهبلوط والخور ، يصلها
بالجبال غيطان وغدران لا تبصر فيها غير قطعان المعز وسوائم الماشية
ووعدني لويس أن يقدم الى اكس فيقيم معي اذا ما فرغ من

عمله في شميرى . وسأجد ولا شك بوجوده رَوْحاً وغبطة ، فنحن
 اخوان جمعتنا أواصر الهم ، وألَّفَ بين قلوبنا وحدة الشجن .
 والمساهمة فيما يضر ، أَجمل منها فيما يسر ، وصلة البؤس أو ثِق
 في الصدور وأعْمَق في النفوس من صلة النعيم . وليس في الناس غير
 لويس من يخفِ خِلاطه على قلبى في هذه الآونة . لذلك بت أترقبه
 بصبر فارغ وطرب نازع وشوق لجوج

٥

نزلت بدار الطبيب فلقيني أهلها لقاء جميلا ، وأفردوا لى حجرة
 تطل نوافذها على الحديقة وما وراءها من مروج . وكانت
 الحجرات الأخرى قد خلت من نازليها فلما يجتمع على المائدة الا
 أهل الدار ومريض أو ثلاثة من فقراء شميرى وتورينو ، قدموا
 الحمامات بعد انصراف الجماهير ليجدوا العيش أخف مؤونة وأقل
 كلفة . فلم أجد في الجماعة من يستطيع أن يطارحنى الحديث ، أو يعقد
 بينه وبينى مودة . وأحس الطبيب وزوجه ذلك فأقبلا يعتذران
 الى عن ابطاء الموسم في المدة ، أو اسراع الزائرین في العودة . ثم
 أخذنا يكلمانى بلسان الإعجاب والتجلة ، ولهجة الحنان والرحمة ، عن
 فتاة أجنبية قعد بها عن الرحيل هزال مُلِحٌ يخشيان أن يحُول الى

فناء بطيء . يقولان إنها وفدت عليهما منذ شهور واتخذت مسكنها
 من الدار في طابقٍ منمزل ، وظلت فيه هي وجاريتهما لا تنزل الى
 قاعة الاجتماع ، ولا تأكل على المائدة العامة ، وانما يحمل اليها
 الطعام في غرفتها ، ولا يراها الناس الا في شباكها مطلة من خلال
 الأغصان على الحديقة ، أو على السلم عائدة من زهرتها بين
 جواسق الجبل

فأدر كنتي لهذه الفتاة رقة ورحمة. ذلك لأنني وجدت في حظها
 مشابه من حظي : فكلانا طريد ثم ووحيد غربة ، وكلانا نضوء
 سقام وأليف وحشة ، وهي مثلي تتجنب الضواء وتتقي عيون الناس .
 على أنني بالرغم من هتاف الناس بها ، وأعجابهم بظرفها وأدبها ، لم أجد
 من نفسى باعثاً على رؤيتها . لاني لا أريد أن أرى أحداً ولا أن يرانى
 أحد . فقد خَبتْ وقدة القلب وعادت جذوته رمادا ، وسئمت
 نفسى تلك الميول الحقيرة المبتسرة ، وأججت الموارد الآسنة
 الكدرة ، وغَضَّ من طرفي الخجل والندم على خطايا ارتكبتها ،
 وأسباب رثة وصلتها ، ومواقف مخزية وقفها . وفقدت الثقة التي
 تدفع بعض الناس الى لقاء الناس وعقد الصلات بهم

ما كنت أفكر كثيراً في الحب . بل كنت على النقيض
 من ذلك اغتبط وأزهي بقتلي تلك الأهواء الطفلية في قلبي ،

وقد رتقي على تحمل بُؤْسَى الحياة بنفسى . أما السعادة فى هذه
الدنيا فما كنت أحسب لها وجوداً

٦

كنت أقضى بُكْرَ أيامى فى غرفتى أطالع الكتب التى بعث
بها الى صديقى من شميرى ؛ وفى الأصائل أخرج فأرود وحدى
ما توعر وأوحش من مواقع الجبال التى تكثف وادى اكس من
جهة ايطاليا . فاذا أمسى المساء عدت مهدود القوى مرتبك
المفاصل ، فأجلس الى المائدة ثم آوى الى مخدعى فأرتقن قاعدة
الشباك ساعات طويلة ، أتقصى بالنظر وجوه السماء فأشعر بانجذاب
افكارى اليها كما يشمر الواقف على شفا الهاوية بانجذاب جسمه
الى قاعها . فكأنما فى السماء قوة تجذب النفوس كما أن فى الأرض
قوة تجذب الجسوم . ثم أرقد فى بحر لحي من هذه الأفكار لا
أبحث فيه عن ساحل ولا مرفأ . وأستيقظ على شعاع الشمس
وخرير الينابيع فأستحم وأستأنف بعد الفطور تجول الأمن
وتأمل الباحة

فى ذات ليلة لمحت وأنا أطل من نافذتى على الحديقة نافذة
مضاءة بجانب غرفتى ، يشرق منها محيا امرأة قد اتكأت كما

اتكأت ، وأخذت تباعد يديها عن جبينها خُصَل شعرها الفاحم
 المتهدل ترى هي أيضا الحديقة ، ولتنظر الى جلال الجبال وجمال
 السماء وقد ازدهر فيهن القمر . فما استطعت أن أميز منها في هذا
 الضوء الشاحب غير صورة نقية كاسفة في اطار من الشعر
 المغدودِ المرسل . ثم ورد صوتها على سمعى وهى تتحدث وتأمر
 داخل الغرفة ، ففعلت لهجتها الأجنبية الصافية في قلبى فعل
 السلاف ، وأثرت نبرات صوتها السقيم الرخيم في نفسى تأثير
 السحر ، وبقي ذلك الصوت العذب يطن في اذنى طنين الصدى
 البعيد حيناً من الزمن بعد ما أغلقت النافذة

لم يقع في مسمى ما يشبه هذا الصوت حتى في ايطاليا . فلقد كان
 يرز بين ثناياها المفترقة رنين الأوتار المعدنية على شفاه الأطفال في
 جزر الأرخبيل اذا ما حركوها وقت المساء على شاطئ البحر . كنت
 أفكر في رجوع هذا الصوت وفي أثره ، وما كنت أحسب أن
 سيكون له في حياتى رنين بعيد المدى عميق الأثر . ثم كان الغد
 فشغلت عنه شعابُ قلبى فنسيته . حتى كان أحد الأيام فينما أنا
 داخل بعد العصر من باب الحديقة الصغير بصرت بهذه الفتاة الغريبة
 جالسة على أحد المقاعد تحت نظر الشمس تستدفئ بأشعتها الفاترة .
 لم تشمر بصوت الباب حين أغلقته فلم تُرغ ، وظلت تحسب نفسها

وحيدة ، ولبت أنا طويلاً أرمقها خفية بجماع عيني لا يفصلنا الا
 بضع خطوات وكرمة أعزتها من الورق بواكر الصقيع ؛ وكانت
 ظلال الأوراق الباقية على هذه الكرمة تصارع وحدها أشعة
 الشمس على وجهها المشرق . هي ممشوقة القد ، بائلة الطول ، قد
 أرسلت على جسمها الناحل غلالة من الجوخ مبسوطة الغضون محولة
 العرى ، فكانت فيها أشبه بدمية من المرمر في ثوب فضفاض
 تعجب بقوامها وروائها ، دون أن تميز جزءاً من أجزائها . ثم تدرت
 بشال أبيض أنيق الوشى غيبت فيه جسمها فلم يبد منه الا كفان
 عاريتا الأشاجع ، دقيقتا الأنامل ، قد تلاقتا على ركبتيها وهما تعبثان
 بزهرة من زهر القرنفل الأحمر الوحشى الذى يزهر على الجبال فى
 احضان الثلج ، ويسميه الناس لسبب لا أدريه : القرنفل الشاعر .
 ثم اتخذت من فضل شالها قناعاً وقت به شعرها أندية المساء

فكنت تراها — وقد تطرحت من السقم على نفسها ، ومال
 عنقها على كتفها ، وعقدت اهدابها الوطف أجفانها الدعج من
 بهر الشمس ، وتضرر وجهها وانكفاً لونها من طول الفكر — أشبه
 بتمثال الموت ؛ ولكنه الموت الذى ينقل النفس من أودية الهموم
 وشعاب الأحزان الى انحاء النور والحب فى حياة سعيدة خالدة .
 نهها وقع قدمي على جفيف الورق ، ففتحت جفنين فاترين ، عن عيني

ساجيتين ، فى صفاء البحر أو زرقة اللازورد ، يحف بهما أهداب
طوال سود يحتال على تقليدها حسان الشرق بالصناعة ليزدن فى
نَجَل العيون ، وكحل الجفون ، وحدة النظر ، وقوة الجاذبية . ولم
أر فيما رأيت من عيون الناس ألحاظا تصيب مرماها على بعد مداها
كألحاظ هذه الفتاة . فقد كانت أشبه بنيران الشهب الثابتة فى
حلك الليل ، تحاول ان تمسك وهى صادرة من السماء عن بُعد
شاسع ونوى سحيق . ولها أنف اغريقى أشمَّ حلَّو القنا ، يعلوه
جبين مرتفع ضيق كأنما ضغطته فكرة قوية ، وشفتان رقيقتان على
زاويتيها أثر الذبول من حرقة الهم ، وثغر شتيت الثنايا صدفي
اللون كثغور الغيد من سكان السواحل الرطبة على البحار أو
الجزر ، ووجه كالبيضة المكنونة بدأ يناله النحول من ناحية
الصدغ ومن أسفل الفم ، وسحنة هى أولى أن تكون هيئة فكرة
لا هيئة انسان . وفضلا عن هذه الملامح الساحرة ، والمخايل الشاعرة
يستهيوك من هذا الوجه سقام يرجع سببه اما الى هوى محرق ،
واما الى جوى مبرِّح ، فيفترق بصرك حتى تنقطع فيه الصورة
الخالدة . ذلك عرض لمرض من أمراض النفس تم عليه قسامة
بارعة ، وجهارة رائمة ، وجمال لا تعلق به قريحة مصور ، ولا
تسمو اليه مخيلة شاعر

مررت بها عجلان فحييتها باحتشام وتجلة ، فأثار اقترابي منها
طبيعة الخفر فيها ، فتوردت وجنتها المصفرة ، وانطلقت أنا في
المشى أمامها لا أربح على شيء حتى بلغت غرفتي وأنا مضطرب
الحواس واجف القلب لا أدري أية رعدة أفلتني من برد المساء .
وبعد هنيهة بصرت بالفتاة تعود الى المنزل فألقت على نافذتي
نظرة فارغة ثم دخلت مخدعها . ومر اليوم يعقبه اليوم وأنا أراها
على تلك الحال في تلك الساعة ، اما في الحديقة ، وأما في الفناء ،
دون أن أفكر أو أجسر على الدنو منها ، حتى كنت أقابلها أحيانا
في زورقها على البحيرة ، أو على حمارها فوق الرابي والحائل ،
يصحبها لفيف من البنات الصغيرات يقُدْنَها ويقظن لها ثم
الفرز ، فما أظهر لها مما يوجب الجوار من دلائل العطف والاهتمام
أكثر من تحية ألقيا في اجلال وحشمة ، فتردها هي في ذهول
وهم ، ثم يأخذ كل مناسمته فوق الجبل أو على متن الماء

٧

على أنني كنت أشعر بانقباض الصدر واضطراب البال في كل
مساء لا أراها في نهاره . فأنزل الى الحديقة دون سبب معروف
ولا داع موجب ؛ وأمكث فيها على الرغم من برودة الليل أراعي

نافذتها بنظري ، وأتحمّل على نفسي فلا أنصرف حتى أرى ظلها
خلال الستائر ، أو أسمع نغمة من بيانها أو نبرة من صوتها
كانت الردهة التي تشغلها في المساء ملاصقة لغرفتي لا يفصلها
عنها إلا باب ضخم من شجر السنديان موحد برتاجين ، فاستطعت
أن أسمع وقع أقدامها ، وحفيف أثوابها ، وخشخشة كتابها حين
تصفّح ورقه ، وربما خيل إلى أحياناً أنني أسمع نائمة نفسها . فوضعت
مكتبي ومصباحي في ظهر هذا الباب مسوقاً إلى ذلك عن غير
قصد ، لأنني أجدني مع هذه الأصوات والحركات أكثر أنسا
وأقل وحشة ؛ وتصورت أنني أعيش هذا الطيف المجهول الذي ملأ
حياتي وشغل يومي . وقصاري القول أنني أحسست في قلبي نوازع
الهوى وأعراض الصبابة قبل أن يقع في ظني أنني أحب
لم يلاقني هواها في خطرة أو نظرة أو فكرة حتى كنت أتوقاه
فلا ألقاه ؛ وإنما كان أشبه بالغاز المنتشر في الجو يهاجمني من كل مكان :
في السماء والماء ، في الهواء والضياء ، في وحدتي القابضة ، ومشابهتي
لهذه الفتاة الغامضة ، في هذه الجولات البعيدة التي لا تبعدني عنها
إلا ليكون شعوري بجاذبيتها أشد وأقوى ، في ثوبها الأبيض أراه
على بعد من خلال تنوّب الجبل ، في شعرها الأسود تهملّه نسائم
البحيرة على حافة الزورق ، في وقع خطواتها على السلم ، وصوت

قدميها على أرض الغرفة ، وصري رجليهما على القرطاس ، حتى في
سكون تلك العشايا الطويلة التي كانت تقضيها في القراءة أو
الكتابة أو التفكير ، وفي سحر هذا الجمال الفاتن الذي أراه ولا
أنظر اليه ، وأتمتله واضحا من وراء الجدر لا يحجبه ستار ولا ظلمة
على أن هذه العاطفة القوية لم تصحبها في نفسى رغبة في
استطلاع سر هذه العزلة ، واختراق هذا الحجاب الواهى الذى
ضربناه بيننا باختيارنا . وماذا يعنينى من امرأة ضاوية الجسم أو
عليلة الفؤاد قابلتها عرضا في هذه البلاد الاجنبية ؟ لقد نفضت
يدى كما كنت أظن من شواغل الحب ، ولم أرد ان تصلنى بالحياة ثانية
علاقة من علاقات النفس والحس ، أو يستولى على وهن من ضعف
القلب أو مرض الشعور . لقد كنت اختقر الحب وانتفى منه ،
لانى لم أرفيه الا الدلال العابت ، والتجنى الأشمر ، والنزق الحاد ،
والدنس المريب . اللهم الانحب أنطونين فلم يكن الا نزوة فتاة
من نزوات القلب ، وزهرة ريانة من زهرات النفس ، أعجلها القدر
عن شهود الربيع

ليت شعري من تكون هذه المرأة ؟ أهى مخلوقة من نوع

الانسان ، بألم طيف من طيوف الغيب ، أم ظاهرة من ظواهر الجو
تبدو في سماء مخيلتنا ثم تذهب وما ترك غير لآلاء يزيغ القلب
ويخطف البصر ؟ . أهى من وطنى أم من وطن بعيد نازح فلا
أستطيع اللحاق بها ، بعد الخضوع لحبها ، فأقضى بقية أيامى بين
عبرات تقرح الجفن وحسرات تقض الجوانح ؟ . ولعمرى أهى
فارغة القلب فتستطيع أن تجيب عن حى بمثله ؟ وهل من المعقول
أن امرأة فتانة المحاسن فارهة الجمال يكاد شبابها يستجير^(١) ، وثمرها
يئنع ، دون أن تغرق الأبصار بجمالها ، أو تقتنص القلوب بجمالها ؟
ألها أب وأم وأخوات وأخوة ؟ أم لها زوج ضرب الدهر بينها
وبينه ، فهو مائل فى قلبها وهى مائلة فى قلبه ، وهو يعيش على
حبها كما تعيش هى على حبه ؟

كنت أشغل نفسى بهذه الأسئلة لأفرج عنها ذلك الضيق
المُليح الموائس . ووجدت من التبذل والضعفة أن أدخل فى شأنها ،
أو أحاول الكشف عن دخيلة أمرها ، فربما كان أجمل بى وأندى
على أن أُسِفَّ^(٢) ولا أقع ، وأن أحوم ولا أريد

٩

على أن أسرة الطبيب الشيخ لم تكن لتتكرم مثلى عن مهاجمة

(١) استنار الشباب : تم واكتمل (٢) أسف الطائر : دنا من الارض فطيرانه

هذا السر ، فأجابت داعي الفضول واستجبت لنفسها ولأضيافها أن يخوضوا في شأن هذه الفتاة الأجنبية ، وراحوا يستقطرون أخبارها ، ويتسقطون أسرارها ، ويتكهنون بما حجب الغيب من أمرها ، ويجمعون ذلك حديث المائدة وموضوع السر ، فكان ذلك يقع في أذن دون أن أسأل عنه أو أثير البحث فيه ، بل كنت أحاول منعه أو قطعه فلا أستطيع . ولبثت أسمعه في كل يوم ، وفي كل وجبةٍ ، من كل سن ، ومن كل طبقة : من الشيب والشبان ، والجواري والغلمان ، ومن خدم المنزل وأدلاء الجبل وملاحى البحيرة . لقد أثرت في كل قلب ، وامتزجت بكل نفس ، دون أن تتصل بانسان أو تتحدث الى أحد ؛ فكانت الفكرة في كل خاطر ، والفتنة في كل ناظر ، والكلمة في كل فم ، والجلال في كل قلب . ان في هذا النوع من الناس من يشعون الأنوار . ويخطفون الأبصار ، ويجذبون الى مدارهم من حولهم ، دون ان يفكروا في ذلك أو يقصدوا اليه أو يشمروا به . لهم ما للشمس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصار والافكار والنفوس فتعلق بهم ، وتجرى في الفضاء على ضوءهم . جعل الله لهم من الجمال سلطاناً وجنوداً ، ومن السحر اغلالاً وقيوداً ، ومن الحب شرائع وحدوداً . فالناس يتبعونهم في الأرض ، ويشيعونهم

الى السماء ، حتى اذا غابوا عن عيونهم اعتراها البهر والجهر فلا ينظرون ، واذا نظروا لا يبصرون ، حتى العامة وأوزاع الناس يشعرون بهذه الكائنات العليا ، ولا أدري بأى علامة يميزونهم ، فيعجبون بهم دون أن يفهموهم ، كالأكمه يدرك أشعة الشمس دون أن يراها

١٠

علمت من أمر هذه الفتاة أنها تقطن باريس وأنها زوج لشيخ كريم سار ذكره في القرن الماضى بطائفة من الأبحاث العلمية أضافت الى حصائل العقل البشرى ثروة وافرة . راعه ماراى من جمالها ، وفتنه ماعرف من ذكائها ، فتبناها قبل أن يبنى بها ليترك لها بعد موتها اسمه وماله . وأحبته هى محبة الولد البار للوالد الخنون ، وكأنت تنضح ودّه فى كل نهار برسالة تُضمّنُها أحاديث نفسها ونوازع هو ها ، حتى اعتراها منذ عامين نحول شف جسمها ، وأقلق زوجها . فاستوصفت الأطباء فأمروها بالرحلة الى الجنوب تغييراً للهواء وترويحاً للنفس . وحال بين الشيخ وبين مرافقتها علله الملازمة ، فعهد بها الى أسرة فى لوزان بينه وبينها صلة موثقة . فجابت معها أقطار سويسرا وإيطاليا . ولكن تبدل الأجواء ،

وتغير الهواء ، لم يمسحاً عن جسم العليلة شحوب السقم ، ولم يعيدا اليها كمال القوة . فجاء بها الى مياه اكس طيب من جنيف مخافة أن يكون ما بها مرضاً من أمراض القلب . وهو لا بد آت مع الشتاء ليعود بها الى باريس

ذلك مبلغ ما نمتى الى من خبر هذه الفتاة التي أصبحت عزيزة على . ومن قبل كنت أردد وأؤكد أن تفصيل أمرها ودخيلة سرها شيء لا أشغل به فكري ولا أجعل اليه بالى . فازددت لهذه الفتاة شفقة ورأفة ، وعز على أن أرى هذا الجمال الساحر يصاب وهو فى ريعه وزهرته بهذا الداء المخامر الذى يوقد الشعور ، ويلهب الاحساس ، ويرهف الذهن ، كلما أذاب الجسم ، وأفنى الحياة ، ونقص العافية . ولشد ما كان يلوع قلبى الحزن كلما وقعت عيناي منها على هذه الخطوط الخفية التى رسمها الألم على طرف شفها الممياء التى أذواها الشحوب ، وحول عينها الزرقاء التى غزاها الأرق !

كان يشغل بالى من هذه الفتاة رشاقة ساحرة ، وقسامة رائعة . فأصبح أكثر ما يشغلى منها تلك الظلال التى نشرها الموت من حولها فتبدو من خلالها شبحاً من أشباح الخيال ، لا شخصا من أشخاص الحقيقة . وفيما عدا ذلك لبثنا فى موقفنا الأول نسير فى الحياة متدانيين بالمجاورة ، متباعدين بالمنكرة ، لا يصل بيننا

أخذت بواكير الثلج ترفع رءوس التَّغُوب على قمم سَثُوا ،
وبدأت الرياح البليلة تهب فوق التلال العالية ، وتجمعت حرارة
اكتوبر الممتعة اللذيذة في جوف الوادى ، وما برحت النسائم
الفاترة ترف على شطآن البحيرة ومياهاها ، ولأأت شمس الظهيرة
مخاريف الحور الطويلة المؤدية إليها ، وحركت الريح أغصان الشجر
وذوائب الدوح فكان لها اهتزاز وخفيف يسحران اللب ويسترقان
المشاعر

لذلك عزفت عن التجوال في الجبال ، ورحت أرتع في ربي
الوادى بين خمائله وجنانه ، ومسايله وخلجانه ، ودأبت أقضى شطراً
من النهار على متون الماء حتى عرفنى الملاحون ؛ وقد قيل لى إنهم
لا يزالون يذكرون تلك السياحات الطويلة التى كنت أحملهم عليها
فى الخلجان النائية والأغوار الموحشة من شواطئ فرنسا وسقوا .
كذلك كانت الفتاة تستقل زورقها الحين بعد الحين الى جولات
لا تطول مدتها ولا يبعد مداها . ونوتيتها الذين يتولاهم شىء من
الزهو والفخر بقيادتهم لها لا يغفلون عن النظر فى وجه السماء

يرقبون ظواهرها ويستطلعون سرائرها ، فاذا رأوا مخايل المطر ،
أو أحسوا دلائل الخطر ، نبهوها الى ذلك فتعود ، لأنهم يؤثرونها
على أنفسهم ، فيفضلون صحتها وسلامتها على زورقهم المردود ،
وأجرهم المفقود ، ويومهم الضائع

على أن الجو خدعهم ذات مرة فهونوا عليها عبور البحيرة ،
وزينوا لها أن ترور أطلال دير المتهكمب على العدوّة الأخرى .
فأقلعوا بها ، ولكنهم ما كادوا يبلغون الثلاثين من عرض البحيرة
حتى عصفتهم ريح هوجاء أرسات عليهم من مضائق وادي الرون
فأثارت الأمواج ، وأفارت الزبد ، وطاحت بشراع السفينة
وخلفتها في يد الموج الصاخب أشبه بقشرة الجوزة ، يجذبها ويدفعها ،
ويخفضها تارة ويرفعها ، ولا عدة للملاح غير مجدافين يكافح بهما
الموج المهاجم والخطر الدائم عن الفلك الهلوع

لم يعد الرجوع في طوقه ولا امكانه ، وبينه وبين صخور
المتهكمب نصف ساعة من الجهد الجهميد والرهق الشديد والفرق
المتوقع . وكان قد رُ الله أو حظ نفسى يقود في هذا اليوم وفي هذه
الساعة زورقي المتين على وجه الماء ، ومعى أربعة من شداد المجدفين
أقلعت بهم الى جزيرة من جزر البحيرة أزور فيها قريبا لصديقي
لويس يدعى دُ شاتيون ، قد شيد قصره الفخم على صخرة في رأس

هذه الجزيرة . وكانت عيناى تتبعان زورق الفتاة على مدى
الطرف ؛ فما كدنا نقرب من مرفأ شاتيون حتى بصرت بزورقها
يعبث به النوء ويصارعه الموج ويرتق عليه الخطر . فقلبنا زورقنا
عن وجهه ، ورددناه على عقبه ، واقتحمنا اللجة ، وابتدرنا العاصفة
بقلب واحد ورأى جميع ، عسى أن تنقذ الزورق الهالك المكروب
وقد احتجب فى أفق رجراج من الزبد المركوم . ولا تسلى عن
صبرى المغلوب ، ولبى المسلوب ، وطرفى الحائر أثناء الساعة التى
قطعنا فيها عرض البحيرة . على أن الله كتب للهاالكين السلامة ،
فقيض للزورق ساعة لحقناه موجة كالجليل قذفت به الى الساحل
أمام أطلال الدير . فشقهنا من السرور وصحنا من الفرح وألقينا
بأنفسنا فى الماء متسابقين الى الزورق لنحمل المريضة الغريقة الى
الشاطئ . وكان الملاح المسكين يطلب منا المعونة والغوث بحركة
المحزون وحالة المجنون وصوت المذلّة ، ويشير بيده الى جوف
الزورق ، فدنونا ثم نظرنا فاذا الفتاة هامدة الجسم فاقدة الرشد ، واذا
الماء قد غشى ساقها وذراعيها بطبقة من الزبد والصقيع ، الاصدرها
وما علاه فقد كان بنجوة من الماء . وكان رأسها كراش الميت
مسنداً الى صندوق صنفير من الخشب يضع فيه الملاحون متاعهم
وآلتهم . وشعرها متهذلاً على سالتنيها وكشنيها كجناح طائر أسود

قد غرق الى نصفه في غدير ، ووجهها الباقي على اشراقه وروائه
تنتشر عليه سكينه النوم الهادى انتشار الجمال الرائع تتركه الروح
على وجوه الفتيات يوم الفناء . أو شفق الخلود على الملامح التى
يريد تخليدها فى ذاكرات الأحياء . أبدا ما رأيتهما ولن أراها فى
مثل هذه السحنة الالهية القدسية . فهل كان الموت ميلادا لهذه
الصورة السماوية ؟ أم أراد الله أن ينقش على لوحة خاطرى لأول
انفعال اكمل هيئة لأجل صورة ، لتكون على الدوام لعينى مثالا
مشهوداً ، ولقلبي تمثالا معبوداً ؟

بادرنا الى الزورق لننشل المحتضرة من فراشها المزبد ونحملها
الى خلف الصخور . فوضعت يدي على صدرها فكأنما وضعتها
على دمية ، وأدنت أذنى من شفتيها فكأنما أدنيتها من شفتى طفل
نائم ، وكان قلبها يخفق شديداً غير منتظم ، ونفسها يتردد فائراً غير
متصل . فأدركت أن ليس بها الا اغماء طويلة من أثر الذعر
والبرد . وتقدم بحار فأخذ بقدميها وجعلت أنا كاهلها ورأسها على
صدرى ثم جلسناها دون أن نحس ولا تعى الى كوخ صياد تحت
صخرة الهتكب كان الملاحون يتخذونه عندقا يؤوون اليه من
يعبرون به البحيرة الى زيارة آثار الدير

كان هذا الكوخ مشتملا على حجرة ضيقة مظلمة مغلقة من

الدخان ، كل ما فيها من الأثاث مائدة موقرة بالخبز والجن وقناني
التمر . وبجانب المدفأة سلم خشبي يصعد بك الى حجرة عليا واطئة
تنيرها كوة ناظرة الى البحيرة ، قد شغل فراغها ثلاثة أسرة ذوات
أبواب من الخشب اغلقت عليها . دخلنا الكوخ فاذا أهله رقود
فوق الأسرة . فلما شعروا بنا استيقظوا ، وأقبلت ربة البيت ومعها
فتاتان فأخذن السيدة والقينها على حشيرة قريبة من المدفأة ،
وأوقدن لها ناراً هادئة من القش وأعواد الرتم ، وخرجنا نحن
وأخذ النسوة ينضون عنها ثيابها ليجففنها ويمسحن عن جبينها
وشعرها ما تقطر من ماء البحيرة ، ثم رفعنها وهي لا تزال غائبة الى
أحد الأسرة بعد أن مددن عليه ظهارة بيضاء أدفأنها بحجارة
ساخنة من حجارة الموقد على عادة القرويين في هذه الجبال .
وجرعنها نطفاً من الخل والنبيد عسى أن يعود حسها ، وترتد اليها
نفسها ، فما رجعن بطائل . فلما ذهبت عنايتهن هواء ، وعناؤهن
هباء ، انفجرن بالبكاء والمويل ، وطفقن يرددن قولهن « ماتت
الآنسة ! توفيت السيدة ! لم يبق الا البكاء ودعاء القس » فانضم
اليهن البجارة وهم حيارى من الخطب ، سكارى من الكرب ،
وأخذوا يولولون ويمولون ، وصعدت أنا عجلاً على السلم ودخلت
الغرفة وأقبلت على السرير فلمست جبينها بكفي فأحسست به

وهج الحمى ، ووجدتها تَنَسِّمُ بانتظام نسَمَ الريح البضعيفة ، فأسكت النساء وأعطيت أصغر الملاحين ديناراً وكلفته الذهاب الى طيب قيل انه يسكن قرية فوق تلعة من تلاع جبل القط على فرسخين من دير الهتكب . فانطلق الملاح يعدو مسرعا ، وقر الآخرون في أماكنهم مطمئنين على حياة السيدة ، وأخذ النسوة يذهبن من الردهة الى الحجرة ، ومن القبو الى مجثم الدجاج ساعات لإعداد الطعام ، وبقيت أنا جالسا على عدل من دقيق الذرة بجانب سرير الفتاة ، يدأى معقودتان على ركبتى ، وعينائى شاخصتان الى وجهها الساكن وجفنها المنمض . وأقبل الليل فقامت احدى الفتاتين فأغلقت النافذة وعلقت بالحائط مصباحا صغيرا ، فسقط ضوءه على محبس^(١) السرير الأبيض ووجه الفتاة الناعس كما تسقط أضواء الشموع على الميت المُسجى . آه ! لقد سهرت ليلي بعد ذلك على وجوه أخر ، ولكن وا أسفاه ! لم يكن ليلها صباح ، ولا لنومها يقظة !

ما أظن أحداً فى الناس وقع له ما وقع لى أثناء هذه الساعات

(١) المحبس : ثوب يطرح على ظهر الفراش لينام عليه

الطوال من شخوص البصر وهيام الفكر في جو من التأمل العجيب
والتفكير الشديد. فقد كنت موزع القلب مقسم الخاطر بين الحب
والموت ، لا أدري ماذا يبديته لي الغيب في ضمير الليل : أكون لي
من هذا الوجه الملكي المائل أمام عيني حزن وألم يبقيان بقاء الأبد ،
أوجب وعبادة يتخللان مني مسالك الروح في الجسد ؟

كان نوم الفتاة نايباً قلقاً ، ولكن اضطرابه لم يقو على إيقاظها ، وإنما
عبث بالغطاء فانحسر عن أحد كتفها ، وتهدل عليه حلق غلاظ من
شعرها الأثيث الناعم ، وناء جيدها الضعيف بشقل رأسها المائل فالتوى
قليلاً على الوسادة ، وتخلصت إحدى الذراعين من اللحاف ونامت
تحت العنق ، فأمكنك الرأي أن يميز لون مرفقها العاجي من لون
القميص الرمادي الغليظ الذي دثرها به النسوة ، ونالاً في اصبع
من أصابع يدها الضالة في نيل شعرها خاتم صغير من الذهب المرصع
بفصوص من الياقوت قد انعكست عليها أضواء المصباح

وكانت الفتاتان قد نامتا في ثياب النهار على أرجل الحجر ،
والأم قد أخذها الوسن على كرسى من الخشب فألقت برأسها
ودثر عيناها على متكأه . فلما صاح الديك في الفناء ، وغرد العصفور في
الروص ، استيقظت النسوة وخرجن الى عملهن يحملن قباقيبهن في
أيديهن حتى لا يحدثن صوتاً ولا حركة . ثم أخذت أضواء الفجر

تسيل من خصائص النافذة المغلقة ، ففتحتها رجاء أن يكون للنسيم الصباح العليل ، وهواء البحيرة البليل ، وشعاع الشمس الجميل ، أثر في إيقاظ الحياة في هذه الفتاة . فقد أصبح متمناى وغاية هواي أن تتنبه ولو بخمود أنفاسي وفقد حياتي

دخل النسيم ندياً بارداً فلأُ الغرفة وأطفأ المصباح الخامد ، ولكن النائمة لم تهب ولم تتحرك . وسمعتُ النسوة المساكين يصلين جماعة صلاة الصبح في خفوت وقنوت ورهبة . فوقع في نفسي أن أصلي أنا أيضاً . وذلك دأب النفوس ، اذا أرهقها الأمر فخل عراها وهدقواها فزعت الى القوة الالهية تلتمس منها القدرة في العجز ، والجلادة على الخطب ، والصبر عند المصيبة . فجنحت على الأرض وشبكت يديَّ على حافة السرير ، وحدثت ببصرى في وجه الفتاة ، ثم صليت وأطلت الصلاة بقلب خاشع وجفن دامع وشعور متقد ؛ وسالت مذارف عيني فحجبت عنى صورة من أدعو لها الله وأرجوها ليقيظة .

كنت أستطيع أن ألث على هذه الحال ساعات طوالا دون أن أشعر بمرور الزمن ، أو أحس ما نال ركبتي من أذى البرد وصلابة الحجر ، مادامت نفسي فانية في شعور واحد وارادة واحدة . ولكنني شعرت فجأة بيد لمست يدي وسقطت برفق على رأسي كما

لو تريد أن تنجى شعري عن وجهي وان تبارك على . فصحت من
الدهش ونظرت فإذا عين المريضة شاخصة ، وإذا فيها ناسم باسم ،
وإذا يدها مبسوطة تبحث عن يدي وهي تقول : لك الحمد يارب !
لقد رزقتني أخاً !

١٣

نبيها برد الصباح بينما كنت أصلي ، فرأيتني على الحال التي
وصفت : وجهي على حفاف سريرها غريق في شعري وعبراني ،
وحرارة شفقتي ممزوجة بحماسة دعواني . وكان لها من الضوء ما
ساعدتها على معرفتي ، ومن الزمن ما مكنها من التفكير فيما كانت
عليه وفيما صارت إليه . رأت نفسها قد أصابها الغشيان وهي في
عزلة عن الناس ووحشة من الحياة ، فأفاقت منه وهي بين حنان وعطف
يفيضان من عيني مؤمن لا تعرفه . كانت محرومة نسب القلب
وصلة الروح وهي في ربيع شبابها المتروك ، فوجدت بجانبها بفتة
وجهها وهيئة وعناية وصلاة ومدامع لا تكون إلا لأخ ولا تصدر
إلا من أخ . فلم تمالك — وقد ظفرت بهذه السعادة في الساعة التي
شعرت فيها بعودة الحياة — أن حركت لسانها بهذه الجملة المؤثرة :
(لك الحمد يارب لقد رزقتني أخاً !) فأمسكت يدها المبسوطة الى

ونحيثُها عن جيبني أكباراً لها أن تمسني ، ثم قلت : أخ ؟ أوه ! كلا
يا سيدتي لست أخاً ، وإنما أنا عبد لهواك وظل لشخصك ، لا أبتغي
الوسيلة الى نعيم الدنيا وسعادة الآخرة الا بأن يكون لي الحق في
تذكر هذه الليلة ، والاحتفاظ بصورة هذه الحورية التي تستطيع
وحدها ان تحب الى الموت لأجلها ، أو تهوّن على الحياة في ظلها .
وبينما كنت أنطق هذه الكلمات بلسان ثقيل متردد ، وصوت
خافت مهدهج ، كان ورد الحياة يتفتح في وجنتها ، وابتسامة حزينة
تنتشر على شفثيها ، وشك مريب في هذه السعادة يبدو في عينيها .
وما أسرع ما اختلفت على وجهها الوان القدر : فمن غمرة الموت الى
زهرة الحياة ، ومن حلم الخيال الى يقظة الحقيقة ! لقد ارتسمت على
ملامح وجهها الوسيم النضرتي العواطف ومختلف الصفات في وقت
واحد : فذهول ونشوة ، وسقم وراحة ، وكآبة وفرح ، وظرف
وحشمة وكنت تقرأ في مخايل وجهها ، وتدرّك من دلائل صمتها ،
ما تعيا عنه الصحف المنشرة ، والكتب المحبرة ، والجلل المزورة ، من
الصراحة والطمأنينة والثقة والأمل . ان وجه الانسان لسان عينه ،
وان مُحيمًا الشباب لينقل أسرار المودة الصامتة من نفس الى نفس نقلا
تعجز عنه لغات العالم . ولا جرم ان ثيابي المبلاة ، وخصل شعري
الطويلة المرسلة ، ورباط رقبتى المرخى المنجل ، وعيني المرهء من

الأرق ، ولونى الكاسف من الفرق ، وضراعتى وذهولى امام هذا
الجمال الطاهر المعذب ، وما اعترانى من القلق والاتفعال والجذل
والابتهاال ، وظلام هذه الغرفة الجرداء ، وقيامى وسطها دون
صوت ولا حركة ، وأشعة الشمس تبهر عيني وتضىء بقايا الدموع
على خدى ؛ كل ذلك أكسب وجهى وملايحى قوة خارقة ، وإشارة
ناطقة ، وعبارة صادقة ، نمت لها عن فؤاد غير كذوب ، ووداد غير
مشوب ، وحنان لن تجد مثله على كثرة الناس وطول الحياة

ولما أعيانى احتمال هذه الصدمة ، واستقلتنى من رهبة الصمت
وجلال الموقف رعدة ، دعوت النسوة فأقبلن . وما كادت تقع
انظارهن على الفتاة حتى هفت قلوبهن من دهشة المفاجأة ،
واعتقدن أن انبعاثها من غشيتها معجزة . واتفق أن جاء فى هذه
الساعة الطبيب الذى بعثنا فى طلبه البارحة ، فأمرها بالراحة ووصف
لها نقيعا من أعشاب هذا الجبل فهدأ به قلبها وسكن . وأقبل
الطبيب علينا يسكن روعنا ، ويذهب خوفنا ، ويعلم أن هذا المرض
لا خطر فيه ولا محذور منه ، وإنما هو داء من أدواء النساء يصيبهن
فى مرح الشباب ، فإذا تنفس بهن العمر انكسرت جدته ، وبعدت
نوبته . أما سيبه فافراط فى الحس يترك ما فاض من الشعور وطغى
من الحياة أشبه بالموت وليس به ، إلا اذا مدته وقوته علل النفس

الباطنة ، فانه يصبح اذ ذاك انقباضاً دائماً ، واكتئاباً لازماً ،
يجعل الحياة مرة المذاق عسيرة الحمل . قال ذلك ثم انصرف ،
وخرج النسوة على أثره يبحثن في المروج عن الأعشاب التي وصفها ،
وأخذ الغاسلات يكوين ثياب الفتاة في الحجرة . أما أنا فغادرت
المنزل لأجول وحدى في خرائب الدير العتيق . على أن قلبي كان
مفعماً بتأثره الخاص فما أظنه يتسع لهذه الطول والدمن .

١٤

كانت الرهبانية في العصور الخوالى صناعة وحرفة ، ثم
أصبحت حياتها اليوم في المعابد كحياة الأوابد ، لاتربط الرهبان
باخوانهم آصرة ، ولا تدنيهم من الناس منفعة ، ثم يتبخرون على
جنادل الديور ويلحقون من غير ، دون أن يكون لهم في القلوب
ذكر ولا في الوجود أثر . فليست الرهبانية اذن محل اجلال ولا
مثار اعجاب في هذا الدير ، وانما أعجبت الاعجاب كله بالطبيعة وقدرتها
على احتلال ما أخلى الانسان من أماكن ، وغادر من مساكن ! ان
هندستها الحية البادية في اليقطين الناشبة جذوره في ملاط البناء ،
والعوسج والبلابل الذاهبة على اليجهما في الهواء ، والقرنفل المتعلق ،
والنبات المتسلق على صدوع الحائط فيكسوها حلة من الخضرة ،

لهى أجمل فى العين وأسمى فى القلب من هندسة الانسان فى الحجارة
الجامدة والستور الخامدة بالمول والبرجل والمقص . وان ما نراه
ونسلمه اليوم من لألاء الشمس ، وعبير النبت ، وخير الماء ،
وألحان الهواء ، وهدير الموج ، وتغريد الطير ، ودوى البحيرة ،
واصداء الغابة ، فى سباط هذه الكنيسة المقبوض ، وفى صحنها
المهدم ، وتحت قبابها الممزقة المعاقة ، لأروع وأجل مما كان يملأها
بالأمس من أضواء الشموع ، ودخان البخور ، وترتل الرهبان
المتشابه فى مواكب الصلاة وحفلات القداس

ان الطبيعة أكبر قساوسة الله ، وأمهر مصوريه ، وأقدر
شعرائه ، وأبرع مغنيه . وانك لتجد فى عش العصفور تتناغى فيه
إفراخه تحت رفرق الهيكل الدارس ، وفى أنفاس الرياح تهب من
البحر حاملة الى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج
وغناء الصيادين ، وفى الزهور ينتشر أريجها فى الفضاء وينثر ورقها
على القبور ، وفى صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من
هذا الدير ، تجد فى هذا كله من التقى والروعة والتأثير ما كان فى
هذا الدير منه وهو فى ابان عهده ، وعنفوان مجده !

نعم لا يزال بجوار هذا المكان بقية من بنى الانسان بنفوسهم
الصغيرة ، وميولهم الحقيرة ، ولكن جلال الله فى الطبيعة أكبر

وأظهر ، فترى علاه وسناه يغشيان هذه القبور مع ضوء الشمس
ونور السماء لا يحجبهما سحب ، ولا تصدهما قباب

لم أكن فى هذه الآونة مالكا لمشاعرى ، ولا ضابطاً
لخواطرى ، حتى أوضح فى نفسى هذه الافكار المبهمة . فقد كنت
أشبهه برجل آده عبء فادح فألقاه عن ظهره ثم انطلق عافياً من
تعبه ، يسطر عضلاته المقبوضة ، ويمرُس أعضائه المرخضة ،
ويتنفس ملء رئتيه ، ويسير حيث شاء فسيح الخطوك كأنما يريد أن
ينهب الفضاء ، ويستنشق كل ما فى الجو من هواء . لم يكن ذلك
العبء الذى ألقته وتحلصت منه غير قلبي . فأنى منذ أعطيتها اياه
شعرت لأول مرة بتمام الحرية وكمال الحياة . انما خلُق الانسان
للحب . فهو لا يشمر برجولته وانسانيته الا يوم يشمر حقيقة أنه
يحب . أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل فى
شباب فكره ، حتى اذا وجد الحب وعرفه وقف واستراح وخلي
زمانه بيد القدر .

صعدت الى سطح هناك فسيح مهديم تكسوه الأعشاب ،
ويتمدد على جوانبه اللبلاب ، ثم جلست على حائطه المطل على

البحيرة ، ودليت ساقىً نحو اللجة ، وأرسلت عينيَّ تجولان
 فى عباب الماء وعنان السماء وقد التقيا عند الأفق ، فما كنت
 أدرى أين تبتدىء السماء ولا أين تنهى البحيرة . فخيّل الى أنى
 أصبح فى طبقات الأثير ، وأغوص فى لجج الفضاء المطلق . ولكن
 السرور الذى تسبح به نفسى وتمرح كان أوسع وأروع وأضوأ
 وأعظم من الجو الذى يسبح فيه جسمى ألف مرة . وليس فى
 الامكان أن أعرف هذا السرور أو بالحرى هذا الصفاء الباطن ،
 فقد كان أشبه الأشياء بسر بعيد الغور شاع فى جوانب نفسى
 بالاحساس لا بالكلام ، أو بالشعور الذى تدركه العين اذا انتقلت
 الى النور بعد الظلام ، أو أشبه شئ بنفس الصوفى اذا اعتقدت
 حلول الله فيها بوحيه وهديه . فهو نور من غير نار ، وسكر من
 غير خمّار ، وراحة من دون عناء ولا سكون !

لو أتى علىّ فى هذه الحال ما أتى من القرون على هذه البحيرة
 لما شعرت أنى لبثت أكثر من ثوان معدودة : ذلك هـر فقد
 الشعور بالزمن الذى يعترى الخالدين فى الجنة !

فقد كان كمالاً لا يقدر ولا يفصل ، ووحدة لا تجزأ ولا تحلل ،
لا من طريق الفكر ولا من طريق العقل . لم يكن مبعثه جمال
هذه المرأة الفاتن الذى أعبدته ، لأن ظلال الموت لم تزل ممدودة
بين جمالها وعيني ؛ ولا الصلف والزهو بأنها تحبني ، لأنني أجهل
مكاني منها ، فربما كنت في عينها حلماً بدا ثم تبدد ؛ ولا الأمل في
نيل هذه المتعة الجميلة ، لأن اجلالى لها كان فوق هذه الشهوات
السافلة والمذات الباطلة فلا أخطرها ببالى ؛ ولا المباهاة بالظفر في
سبيل هذه المرأة ، لأن هذه الصفة الذميمة ليست من عادتي ولا
خلقى ، وليس في هذا المكان القفر من أباهي أمامه بحبي ،
وأستطيل عليه باختيالى وعجبي ؛ ولا الرجاء في أن يجمع بيننا الزواج ،
لأنني أعلم أنها زوجة ؛ ولا اليقين بأنني سأنعم برؤيتها ، وأسعد
نفسى بصحبتها ، لأنني لست مطلق الارادة ولا حر التصرف ، وعما
قليل تنبو الديار ويتصدع الشمل ؛ ولا التأكد من أن لى مكاناً
في قلبها ، ونصيباً من حبها ، لأنني أجهل دخيلة نفسها ومطمح هواها ،
اللهم الا حركة وكلمة عبرت بهما عن شكرها ليدي وجميلي . كان
مبعث شعورى وسرورى شيئاً آخر غير هذا كله : كان عاطفة
نزيمية نقية هادئة لا يشوبها غرض من أغراض الحياة ، ولا عرض
من أعراض المادة . كان شعور الراحة يجده من ظفر بحاجة طالما .

نشدها فما وجدها ، ويدركه القاب العابد القانت أعوزه معبوده ،
وعز عليه شهوده ، فيمضه الالم ويرمضه العذاب ، حتى اذا اهتدى
اليه عاق به علوق الحديد بالمغناطيس ، وفنى فيه فناء النفس فى
الهواء الطليق . ومن أعجب الاشياء أنى لم أكن عجلا ن الى النظر
ليها ، والوقوف بين يديها ، والاستماع الى صوتها العذب المشتفى
وهى التى أصبحت مناط آمالى وقبلة خاطرى ومنتجع هواى !
ذلك لانى رأيتها فاحتويتها . وليس فى مقدور أحد أن يستردها
منى ، أو يبعد صورتها عنى ، فأنا على القرب والبعد والمشهد والمغيب
أراها فى نفسى ، وما عدا ذلك لا يشغلى ولا يعينى . ان الحب
الكامل المطمئن صبور ، لأنه مطلق ولأنه خالد . فانزعاعها منى
انزعاع لقلبى ، لأنى أحسست منذ رأيتها أنى ملكتها ، كما تملك العين
النور حين ترمقه ، والرنة الهواء حين تستنشقه ، والنفس الفكر
حينما تعلقه . لقد رأيتها وحسبى ذلك غذاء لتأملى ونجواى . أما
ادمان النظر فمتاع ولذة ، وسواء على أمنتنى حبها ، وشغلت بى
قلبها ، أم مرت على فلا تظن الى . لقد غشيتنى ضوؤها وغمرنى
سناها فلم تعد تستطيع هى استرداد ما نالنى من أشعتها وبهائها ، كما
لا تستطيع الشمس أن تسترجع ما منحت الطبيعة من حرارتها
ولألائها . وأحسب انى — وان عمرت القرون — لا أحس فى

قلبي برداً ولا ظلاماً ، لأنها ستشع فيه الحرارة والنور ، على كر
الأيام ومر العصور

١٧

أفاض هذا الاعتقاد على حي سكينه الدوام ، وهدوء اليقين ،
وسعة الانهاية ، ونشوة الفرح ، الذي لا تقرر فورته ، ولا تسكن
سورته على طول الأبد . فتركت الساعات تمر دون حساب ولا
عد ، ثقة بأن ما أمامي منها لا حصر له ولا حد . وكان في استطاعتي
أن أفارق هذه الفتاة قرناً من الدهر دون أن يعيث هذا الزمن
البعيد بحبي ، فلا يقلل يوماً من خلوده ودوامه ، ولا ينقص شيئاً
من كماله وتمامه . لقد كنت أذهب وأزوب ، وأقعد وأقوم ،
وأسرع وأبطئ ، وأمشي على الأرض لا تمسها قدمي كأني شبح
من أشباح الغيب ، ترفعه قوته السباحة عن أديم الثرى فينزلق عليه
دون أن يمسه . كنت أفتح ذراعي للهواء وللماء وللفضاء كأني
أريد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها
وحياتها وجمالها في هذه المرأة الفاتنة . وكنت أجتو على الصخور
والشوك دون أن أحس ، وأركع على شفير الهاوية دون أن أرى ،
وأرفع صوتي بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الأمواج الهادرة

فيذهب ، وأغوص في ربيع السماء اللازوردية بنظراتي الدائبة
 الثاقبة لأكشف فيها عن وجود الله نفسه
 أنا لم أعد قط انساناً ، وإنما كنت تسيحة هائمة ، وتحية دائمة ،
 أصبح وأغنى ، وأبتهل وأصلى ، وأذكر وأشكر ، بالفيض والالهام ،
 لا بالنطق والكلام ، فشاعري ثمة فرحة ، ونفسي هائجة مرحة ،
 وجسمي ينتقل من هاوية الى لجة غير ذاكر هيولاه ، ولا معتقد
 بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت . وهكذا فجر الحب في قلبي ،
 ينابيع الغبطة ، وأيقظ في نفسي راقد العواطف ، وجلا لعيني
 مسارح الخلود !

١٨

ما فطنت الى فرار الساعات الا حين لأأت شمس الظهيرة
 على أسوار الدير . فهبطت من السطح وأخذت أثب خلال
 الاشجار من صخرة الى صخرة ، ومن جذع الى جذع ، وقلبي واجف
 تكاد تنشق حنايا الصدر من وجيبه . فلما دنوت من المنزل الذي
 أوينا اليه المريضة ، نظرت فاذا هي جالسة في مرج وراء البيت
 تحت حائط مدعم بالصخور ، وثوبها الابيض يلعب في ضوء
 الشمس فشعشع خضرة الروض ، وكومة من المرعى ترسل عليها

الظل فوقتها شمس الظهيرة . كانت تقرأ فى كتاب منشور على ركبتيها ، فقطعت القراءة هنيئة وأقلبت ترتع وتلعب مع الاطفال الذين جاءوها يقدمون اليها الزهور والفاكهة . فلما أبصرتنى همت بالنهوض الى ، فشجعتنى هذه الحركة على التقدم فتقدمت ، وقامت هى تلقانى وعلى خديها حمرة الخمر ، وعلى شفتيها اختلاجة الحياء ، فزاد ذلك فى خجلى وقليل من نشاطى . وربكبتنا معاً غرابة الموقف ، وأخذت علينا مذاهب القول ، فلبثنا ردها من الزمن لا نجد حديثاً نفتحه ، ولا حادثاً نشرحه ، حتى أومأت الى ايماءة خفية بالجلوس فى ظل الكومة على مقربة منها . فظننت أنها كانت تنتظرنى وأنها أعدت لى المجلس قبل مجيئى . فأخذت مكانى فى أدب وحشمة ، واستمر منى ومنها السكوت . وما ذا كنت تريد أن نقول ؟ لقد كان كلانا يبحث دون طائل فى حنايا ذاكرته ونواحى خياله عن تلك الكلمات المبتذلة التى يتداولها الناس تداولهم للنقد المزيف ، فيكتمون بها أفكارهم بدل أن يعلنوها ، ويهمون بها آراءهم دون أن يبينوها . أما الحديث الخاص فقد كان شأنه أعجب ، لأننا خشينا أن يقصر فيخل ، أو يطول فيمل ، فأثرنا أن نكظم على ما فى نفوسنا فلا يتعدى الشفاه ، وازداد على طول الصمت احمرار الوجه وانكسار الطرف . ولعل هذه

الحال كانت تطول لولا أن ارتفعت أجفاننا وتلاقت أبصارنا ،
ورأى كل منا فى عين الآخر مكنون سره ومستور أمره . رأيت
فى عينها فيضاً من الشعور والحساسة ، ورأت فى عيني ولا ريب
وفراً من الحماسة والطهر ، فلم يستطع كل منا أن يرد بصره عن وجه
أخيه ، وأجهشت مآقينا بالدمع فى وقت واحد ، فرفعنا أيدينا
بحكم الغريزة الى عيوننا لعلها تخفى ما فضحه الدمع ونم عليه الجزع
لا أدرى كم لبثنا على هذه الحال الى أن قالت بصوت متهدج
ولهجة بطيئة رزينة : « أبعد أن زرفت علىّ عبرتك ، ومنحتنى
أخوتك ، تهاب الكلام ولا تجرؤ على الحديث ؟ ان دمة تسكبها
عين نزيهة من قلب مجهول لى أثمن من حياتى وأجل نعم الله على .
ثم أشربت صوتها نعمة العتاب الرقيق وقالت : لعلنى عدت غريبة
فى عينك ، منذ أصبحت غنية عن عونك ! أما أنا فما كنت أعرف
منك الا اسمك ووجهك ، والآن عرفت نفسك معرفة ما كانت
تهيأ لى فى قرن . فقلت لها : أما أنا ياسيدتى فلا أريد أن أعرف
منك ذلك الجثمان الحى الذى يشبه ما للناس ، وتصله بهذه الحياة
علائق كملائق الناس ، وانما أريد أن أعرف ذلك السر الذى نقلك
الى طور الخلود ، وسما بك الى أفق الوجود ، ودعانى الى أن
أراعيك بنظري على بعد ، وأستحضرك فى قلبى كل لحظة . فقالت

« لا تخدع نفسك هذا الخداع ولا تُصِفْ على من قلبك هذا
 الثوب السماوى والنور الالهى ، فانك لا تدري مقدار ألمى اذا
 انكشفت الأيام عن ضلال هذا الوهم ، وفساد هذا الزعم ، وتبدد
 هذا الحلم . لا ترى أكثر من امرأة بائسة تقضى نحبها فى ظلمة
 اليأس ووحشة العزلة ، وكل ما تزودته من الناس ، وادخرته من الحياة
 شىء من الرحمة قليل . ستعلم ذلك حق العلم يوم أكتشف لك عن
 حقيقة حالى وباطن أمرى . ولكن أخبرنى قبل ذلك عن شىء
 فيك طالما ساورنى منه اشفاق وقلق منذ رأيتك فى الحديقة .
 ما بالك وأنت فى ميعة الشباب ومرح الصبا وجمال الخلقة تسير
 مع الهم وتستأنس بالوحشة ؟ لماذا تتجامى الناس وتعزل أهل
 المنزل وتؤثر الانفراد بنفسك فى مجاهل الجبل أو البحيرة ، أو
 تحتبس فى غرفتك لا تبرحها سحابة يومك ؟ والناس يقولون ان
 مصباحك يبيت هزيعاً من الليل مضيئاً . هل ينطوى ضميرك
 على سر لا يسترىح بمكنونه الا الى الخلوة ؟ قالت ذلك ثم انتظرت
 على قلق بادٍ واشفاق ظاهر وهى ناكسة الطرف مخافة أن ينم وجهها
 على ما يحدث جوارى فى قلبها . فأجبتها : ان هذا السر هو أن ليس
 لى سر . هو الشهور بعبء ذلك القلب الذى لم تهجه الى الآن فى

صدرى حماسة ، ولم ترفعه بين جوانحي حمية . هو الالم مما أصاب
هذا القلب الكسير الذى جدت به على الحب الناقص والعواطف
المكذوبة ، ثم اضطرت الى استرجاعه دأى الشغاف ، مضطرب
الوجيب ، عزوفاً عن اللهو ، يؤوساً من الحب ، وهو فى غرب
شبابه وحدة شعوره

ثم قصصت عليها ما يعنىها من تاريخ حياتى وجملة أمرى بلسان
صادق ولهجة صريحة . أخبرتها أنى درجت من مهد صغير فقير
متواضع ، وأن أبى كان عسكرياً وثيق التركيب قوى العصب ،
وأى كانت لطيفة الشعور صافية الحس ، غدت أحداثها بلبان العلم ،
وجملت شبيبته بحلية الأدب ، وحدثها عن اخواتى وما هن عليه
من خلوص النية وسماحة الخلق ، وعن نشأتى فى حجر الطبيعة بين
أطفال الجبال من مواطنى وجيرتى ، وولوعى بالدراسة السهلة الخالبة
وعطلى القاهرة من الاعمال الكاسية ، وقصصت عليها نبأ غرامى
الأول الصادق بآبنة الصياد فى نابلس ، وعلاقائى الفاسدة بباريس
وما جرتة الى هذه المخازى من رعونة فى خلقى ، واضطراب فى
عيشى ، وخجل من نفسى ؛ ووقفها على شغفى بالجندية ووقوع
الصلح يوم دخلتها وانتظمت بها ، وخروجى الى الجولان فى كل
بلد وتحت كل كوكب ، ورجوعى الى أسرتى وما بين جنبى الا

خيبة المسعى واخفاق الأمل ؛ وما أصابني بعد ذلك من انقباض الصدر ولزوم الهم ورجاء الموت ، وما نجم عن ذبول الجسم ورقة البدن من همود النفس وفتور العزم ، وما يحتفى وراء شعري الأسود ووجهي النضر ومعاطفي اللينة وأربعة وعشرين ربيعاً من شيخوخة باكرة في النفس ، وطبيعة نافرة من العيش ، وذهادة رجل أخلقته السنون وحطمته السن العالية

كان لساني يفيض بذكر ما كابدت في حياتي من جفاء وخشونة ، واشمزاز ورعونة ، وخور وقنوط ، ولكن قلبي أصبح منذ هذه اللحظة لا يعرف معنى هذه الأسماء ، ولا يجد أثراً فيه لهذه الأشياء . فان نظرة واحدة منها جددت كياني ، وغيرت وجداني ، وبعثتني من رقود . فأنا أتكلم الآن عن نفسي كما أتكلم عن انسان مات أو حادث فات لا صلة بينه وبين انسان وليد وحادث جديد

فلما فرغت من حديثي نظرت اليها نظر المتهم الى قاضيه ، فاذا هي مرتعدة الجسم ساهمة الوجه من الجزع تقول : رباه ! لقد أفرغتني بحديثك ورعتني . فسألها ولماذا ؟ فقالت لأننا نتشابه في أكثر الأشياء ، وان لم تشبهني في الوحدة والشقاء . ان تاريخ حياتك اذا تغيرت فيه الاسماء والظروف كان تاريخ حياتي لا يزيد

ولا ينقص ، والفرق أن حياتك تبندى أما حياتى . . . فمنعتها
أن تتم الجملة بأن وضعت على قدميها شفتى ، وطوقتهما بذراعى
كأنى أريد أن أعوقها فلا تطير ، وصحت قائلاً كلا ! كلا ! إنها لن
تنهى ، وإذا قضى الله لها النهاية فلتكن لحياتى أنا أيضاً . وكان
من أثر هذه الصرخة العصيبة ، وتلك الحركة الاضطرابية ، أن سرت
فى جسمى رعدة قوية ، فلم أجروء على رفع وجهى من الأرض بعد
أن جمعت قدميها إليها . أما هى فقالت بصوت الوقور الحليم :
انهض من مكانك ولا تطع قلبك فى حب شىء يسير كهذا الغبار
الذى يعلق بشعرك الخليل ولا يلبث أن تهب عليه أعاصير الخريف
فتدروده . لا تدلس على عقلك الرأى فى هذه الفتاة المسكينة التى
تراها ، ولا تخدع نفسك عن حقيقتها ، فليست الا ظل شباب وأثر
جمال وخيال حب ، واحتفظ بقلبك للآتى كتب الله لهن الحياة .
أما طرائد الموت فأعطهن ما للأموات : يدا رفيقة تسندهن فى
الخطوة الأخيرة ، وعيناً مخلصه تذرف عليهن دموع صغيرة . قالت
ذلك بلهجة رزينة حازمة صابرة ، فارتعد جسمى واضطرب فؤادى .
ولكنى حين رفعت بصرى إليها ، وأشعة الأصيل تنعكس عليها ،
فتزيد بها ضياء ورواء ، رأيت نضارة وجهها وطلاقة ملامحها يزداد
ازدهارها ساعة فساعة ، كأنما أشرق فى قلبها شمس جديدة . فلم

أستطيع أن أصدق بكمون الموت في هذه الحياة ، ولا بخفاء الخطر في
 علائم هذا الأمن . وبعد فما أدري ما ذا يشغلني الآن ويهمني ؟ ان
 كان الله قد قضى في هذه الحورية بالموت ، فالموت هو الذي أقصده
 وأنشده . ومن يدري ؟ لعل الحب الشامل الكامل الذي تظماً
 نفسى اليه يكون فيه ، ولعل الله لم يرني هذا النور الذي يوشك أن
 يخبو على الارض الا لأهتدى بسناه فأتبعه الى القبر ثم الى السماء .
 ثم قالت بلهجة لا تشبه لهجة الخليفة التي تتكلف وقار الصوت ،
 وتعمد جد الكلام ، وانما تشبه لهجة الأم الصغيرة ، أو الأخت
 الكبيرة ، التي تتحدث في عقل وحكمة الى ولدها أو أخيها :
 لا تستغرق هكذا في أحاديث النفس وكواذب المنى بل الق بالك
 الى : أنا لا أريد أن تتعلق بوهم باطل وحلم زائل وظاهر مموه ،
 أريد أن تفهم حقيقة من تملكها نفسك وتحبس عليها هواك ، وتعلم
 أنى لا أستطيع استحقاق هذه النفس ولا استبقاء هذا الحب الا
 بالخدمة والكذب . والكذب كان وما زال أبعد إخلال عن نفسى
 وأثقل الرذائل على طبعى ، حتى لو علمت أن نعيم الجنة معلق على
 شيء من النفاق والكذب لاجتويته آية ، وصدفت عنه راضية .
 فما السعادة المختلسة الاجيم القلب وشقاء النفس ووخز الضمير .
 قالت ذلك وعلى وجهها نقاء الطوية ، وفي صوتها ولاء القلب ، وفي

عينها صفاء الضمير . نخيل الى أن الحقيفة الخالدة تمثلت في هذا
الجمان الطاهر ، واستقبلت ضوء الشمس الباهر ، ثم بعثت بصوتها
الى الآذان ، وبنظرها الى العيون ، وبروحها الى القلوب . فاستلقت
على حفاقي الكومة عند قدميها واعتمدت رأسى بكفى اليمين
وشخصت ببصرى الى شفتيها حتى لا يفوتنى منها نعمة ولا حركة
ولا نسمة

ثم أخذت الفتاة تسوق الى تاريخ حياتها تقول : ولدت على
مقربة من بلد فرجينى وهو كما شئت مخيلة الشاعر جزيرة افريقية
من جزر المحيط الهندى . ولا شك أنك لا حظت هذا فى سواد
شعرى وشحوب وجهى ، وسمعته فى هيئة منطقى واختلاف لهجتى .
وقد حاولت أن أمحو هذه النعمة من شفتى فما استطعت . على أننى
أوثر من صميم قلبى أن أحتفظ بهذا الجرس ، لأنه الأثر الوحيد
الذى أبقيته صروف الأيام من طفولتى . فهو يذكرنى بشيء يشبه
النواح فى رفيف النسمات على موج البحر ، وبساعات القبط تحت
ظلال جوز الهند . وأظهر ما يتجلى لك من خصائص مرادى تلك
الرخاوة التى استعصت على الإصلاح فى رقتى وشفتى ، فهى

تخالف ما للفرنسيات من نشاط وخفة ، وثم على ما فى نفوس
المولودين فى المستعمرات من استرسال مع الطبع وجفاء فى الخلق
وطبيعة صريحة لا تعرف التصنع ولا الرياء

اسم أسرتى الذى تعرف به هو د . . . وأما اسمى الخاص فهو
جوليا . ولما حدثت مذبحة البيض فى سان دومينيك فرت أُمى
وأنا معها رضىة من وجه الموت فى سفينة من السفن ، ولكن
قضى الله أن تفرق السفينة وتهلك أُمى ويلقىنى اليم فى الساحل
فتلتقطنى زنجية أرضعنى ثم ردتنى الى أبى بعد بضع سنين .
وطاردت أبى فى مأمنه عاديّات الليالى فساءت حاله ، واغتصب ماله ،
واعتلّ صحته وحكم عليه بالنفى والتشريد . فهاجر بنى وبأختى الى
فرنسا ، وكنت يومئذ فى السادسة من عمرى وأختى تكبرنى قليلا .
ثم نزل بنا فى بريتانيا عند قوم فقراء من أهله ، وما لبث غير قليل
حتى أدركته منيته ، فكفلتنى إحدى قريباته وتبنتنى . حتى اذا
بلغت اثنى عشر ربيعاً جُعنى فيها الموت . فتقدمت الى الحكومة
بالرعاية والعون جزاء لأبى على ما قدم من خير فى سبيل الوطن ،
فأوتئى فى ملجأ من الملاجئ الفاخرة التى أعدتها لبنات الشهداء
الذين بذلوا دماءهم ، أو لفظوا ذماءهم ، فى حب فرنسا . فنشأت فى
أحضان النعم والترف ، ودرجت فى رُبع العفاف والشرف ،

تمحوظي الحكومة بالرعاية ، ويخصني أهل الدار بالحنانة ، فما
جسمي وذكا عقلي ، وتفتحت أحكام صباي عن شيء كانوا يسمونه
الجمال . ولكنه جمال رزين حزين منقبض ، جمال زهرة من نبات
الاقليم الحارة انشق عنها كمها تحت جو لا تعرفه ولا تألفه فأدركها
الذبول عما قليل . على أن هذا الجمال وهذا الذكاء لم يُصيبا قلباً ، ولم
يُسببا عيناً ، في غير الملجأ الذي أعيش فيه . فان رفيقائي اللاتي جمعتهن
بي أو اصر المحبة ، وعطفتهن على عواطف المودة ، ونزلن من قلبي
منازل الأهل ، كن يغادرن الملجأ واحدة بعد واحدة اما الى
أمهاتهن واما الى أزواجهن ، وأنا مبتورة الرحم مقطوعة الصلة
لا تدعوني أم ، ولا يزورني زائر ، ولا يذكرني ذاكر ، ولا يتقدم
الى خطبتي شاب ، لأنني كنت في البيوت والمنتديات ، نكرة من
النكرات ، لا يتحدث عني متحدث ولا يسمع بي سامع . فكان
الأسى يرمض جوانحي ويقض نومي كلما رأيت صواحي يغادرني
تباعاً ، وأيام الأُنس بهن تنقضي سراعاً ، ورأيتني متروكة في
وحشة العالم ، مبهولة في ظلمة الوجود ، يكابد قلبي عذاب الرمل
الدائم قبل أن يدرك الحب ويعرف الحبيب !

ولطالما سحبت مدامعي خفية ، وانتنيت باللام على الزنجية التي
التقطتني فلم تدعي فريسة للأمواج في وطني الأول ، فما كانت

أقصى على من الناس في وطني الثاني

وكان رجل نبیه الصوت مرتفع السن يزور المعهد الحين بعد الحين من قبل الامبراطور ليقف على تقدم التلميذات في العلوم والفنون التي يتلقينها عن كبار المعلمين في العاصمة . فكان أولياء المعهد يقدمونني اليه في كل مرة مثالا حسناً ونموذجاً صحيحاً لما يبذلون من الجهد في تربية هؤلاء اليتامى . فقررت صورتي في ذهن الرجل ورأيت منه صورة الى وحدباً على منذ طفولتي ، حتى قال على مسمع مني غير مرة : انه شديد الأسف على أن ليس له ابن . ففي ذات يوم دعيت الى غرفة الرئيسة فوجدت فيها ذلك الشيخ الجليل ينتظرني ، فلما رآني اعتراه ما اعتراني من الهيبة والرهبة . ثم أخذ يقول ! أي بنية : ان السنين تمر على كل الناس فما بقي منها طويل عليك قصير على . وقد سلخت اليوم من عمرك سبعة عشر ربيعاً ، وفي بضعة شهور تبلغين السن التي تخرجين فيها من هذه الدار الى العالم . ولكن ليس في العالم من يبسط ذراعيه للقائك ، ويفتح مصراعيه لإيوائك ، فأنت عديمة الوطن والأسرة والمال والأهل ، والبلاد التي عرفت الحياة فيها ، ودرجت بين ربوعها ومغانها ، استولى عليها الزنوج . فخرمانك من الحياة المستقلة الراقية ، أو الحماية المخصصة البواقية ، أزعجني منذ سنين عليك . فان ابتغاء الفتاة الرزق من طريق

العمل أمر مخوف بالمسكاره والمكائد ، والتجاؤها الى كرم الأصدقاء
نزول بالنفس الكبيرة الى مواطن الضراعة ، والجمال البارع الذى
حباك به الله ضياء يكشف عن ظلام الحظ ، ويدل عليك الرذيلة ، كما
يدل الذهب السارق على نفسه بريقه . فبمن تعتصمين اليوم من
هذه الأحزان التى تتوعدك ، أو تلك الأخطار التى ترصدك ؟
فأجبتة لأدرى . وانى لأعلم منذ طويل أن لا عاصم لى من
حظى المشئوم وقضائى المحتوم الا الله أو الموت

فعاود الشيخ الكلام وعلى ثغره ابتسامة الحزين الهائب : قال
انى فكرت فى مأمن ثالث ، ولكنى لا أكاد أجروء على عرضه .
فقلت له : اعرضه ياسيدى ، فإنك منذ طويل تحمل لى فى قلبك
وعينك ولسانك حنان الأم ونظر الأب ووضجة الأمين الناصح . وأرى
أنى أسمع أبى حين أسمعك ، وأنى أطيعه حين أطيعك وأتبعك .
فقال أتعاملينى معاملة الوالد ؟ ما أسعد من كانت له ابنة مثلك ! وما
إخالك تبخلين علىّ بالغفر اذا علمت أنه وقع فى بالى هذا الخاطر ،
ولم فى خيالى هذا الخلم . ولكن اصغى لى ثم ردى على بكل ما فى
طبعك من حرية ، وما فى عفاك من روية ، لقد بلغت ساحل الحياة
وأصبحت هامة اليوم أو غد ، وليس فى لدنيا من عفى من أخلف
له ما حصلت من سمعة جميلة ، وثروة قيلة ، ولقد قطعت مراحل

عمرى وحيداً لا تشغلى شاعلة عن هذه الأبحاث التى أفنت جسمى وأحيت اسمى ، وأنا اليوم أكاد أرسو الى شاطئ الحياة ، ويسامنى الوجود الى العدم ، وكأنى واحسرتاه لم أعش ، لأننى ما فكرت فى أن أحب . لقد يكون من الفوات أن أرجع أدراجى فى سبيل المجد التى اخترتها الى سبيل السعادة التى تنكبتها ، ولكنى لا أريد أن أترك حياتى دون أن أبقيا بعد مماتى فى ذاكرة بعض الناس بالعاطفة ، والعاطفة وحدها هى الخلود الذى أؤمن به وأعتقد . وما هذه العاطفة الا قليل من شكر النعمة وعرفان الجميل ، لا أريده الا منك ولا أغرسه الا فىك . ولا سبيل الى ذلك الا اذا اصطنعت الشجاعة واستطعت أن تقبلى أمام الناس من هذا الشيخ الراحل اسمه ويده وقلبه . انه يريد أن يكون الزواج جُمة ما بينك وبينه حتى يتسنى له أن يقبلك فى داره ، وأن يخصك باعزازه واشاره . أما الأمر فى الواقع فلن يتعدى أن يكون لك أبا وأن تكونى له ابنة . ثم أمسك عن الكلام ونهض للقيام دون أن يقبل فى هذا اليوم على ما قال جواباً . على أن هذا الجواب كان حاضراً على بديهة ، جارياً على شفتى ، ولا يمكن أن يكون غير القبول . فان هذا الرجل وحده هو الذى أظهر لى عاطفة تختلف عما كان يظهره سائر الزائرين من النظرات الباردة على القوطة ، والكلمات المظيرة على الالهانة ، فى ثوب من

الاعجاب الجرى ، والاطراء البذى ، والمدح المبثذل الذى تندى له
العذراء الخفرة . أنا ما عرفت الحب ولا أحسسته ، وانما وجدت فى
قلبي فراغاً ووحشة لفقد العشير واعواز النصير وسوء المصير وعدم
الأسرة . وخيل الى أنى أجد كل ما أفقد فى والد تبناى قلبه ،
ووسغنى حبه ، وبوأنى من شرفه وجاهه الملبأ الأمين والحماية
القوية من المستقبل الغامض والوجود المريب . ان رأسه قد علاه
المشيب ، ولكن سمعته الطيبة تفيض على مخالطيه ومقربيه الشباب
والقوة . وان سنه لتنيف على خمسة أضعاف سنى ، ولكن ملامحه الجميلة
الجليلة تبعث فى النفوس جلال السن خالياً من شوائب الشيخوخة .
وان وجهه ليلوح عليه جمال النبوغ وجمال السماحة ، وهما أثران من
آثار الكبر يسترعيان الأعين ويستهويان القلوب حتى عيون
الأطفال وقلوب الصبية

.....
فى اليوم الذى خرجت فيه من ملجأ التامى دخلت منزل
الشيخ . ومضى الناس يدعونه زوجاً ويأبى هو الا أن أدعوه أباً .
وبذل لى من ذات نفسه واحترامه وهتمامه كل ما يستطيع بذله ،
وجعلنى شمساً وضاءة لهالة من الشيوخ الأجلاء المصطفين الذين
ذهب سيمعهم فى الناس بالنبوغ فى الآداب ، والتعمق فى الفلسفة ،

والدهاء فى السياسة، ونشروا على القرن الماضى سناء ومجداً، وملأوا
 مسامعه ثناء وحمداً، ونجوا من مقصلة الثورة ورق الامبراطورية؛
 وعقد أسباب المودة بينى وبين نخبة من كرائم العقيلات اللاتى
 اشتهرن بين أهل العصر بذكاء الطبع وصفاء القريحة. وكان يحرضنى
 هو نفسه على تلك الميول القلبية والفكرية التى تُسلى النفس،
 وتُسرى الهم، وتنوع حياتى المتشابهة. وكان ينظر الى علائقى
 بالناس وهو أبعد ما يكون عن سخافة الغيرة وجفاوة الطبع، ولا
 يتحرج أن يعرفنى الى من تروقنى صحبته، ويمتنعنى حديثه، من ذوى
 الجاه والفضل، وكانت نفسه تشرق بالغبطة، ووجهه يفتقر بالبشر، كلما
 رآنى أفضل أحداً من الجماعة وأختصه بالاقبال عليه، والتحدث
 اليه، ولا يتردد هو أيضاً فى ايثاره واكباره. لقد كنت روح هذا
 البيت ومعبوده؛ وكان اجماع أهله على عبادتى، وتنافسهم فى راحتى
 وسعادتى، من الأسباب التى أنامت فى قلبى عواطف الحب،
 وسكنت فى نفسى عواصف الهوى، لأن مشاعرى وحواسى كانت
 معمورة بالسرور، مغمورة بالملق، فلم يبق فيها فضلة ولا بقية
 لأحد. ناهيك بما كان يبيده الى زوجى من الأبوّة الحنون والنفس
 المطوف، وإن كان حنانه لا يعدو فى جميع أمره أن يضمنى الى
 صدره، ويمس جبينى بشغره، بعد أن يرفع عنه خصائل شعرى

بيده . لقد كنت ضئيلة بسعادتى على الغير فما حاولت لها كمالا ولا زيادة ، واكتفيت أن أحسها دون أن أمسها مخافة أن تفرع فتطير .
على أن زوجى طالما نعى علىّ وهو يمازحنى زهادتى وعزوفى . وأعلن
غير مرة أنه ينعم بنعيمى ويهنأ لهنائى

وحدث لى مرة أنى ظننتنى محبة محبوبه . وذلك أن رجلا نابه
الصيت لنبوغه فى العلم ، قوى النفوذ لصلته برئيس الحكومة ،
خلاباً بما أحرزه من المجد والنصر ، جذاباً بما بقى بعد شبابه من
صباحة الوجه وجمال التسمات ، أظهر لى العطف والمحبة . فهز من
عطفى وحرك من هواى مجاملة وشكراً ، لازهوواً وكبراً ، وأحبيته
حيناً من الدهر ، أو بالحرى أحببت الوهم الذى خدعنى فيه وغرنى
منه ، وكدت أسلم نفسى لعاطفة ظننتها روية فاضلة ، فاذا هى بهيمية
سافلة . فانقلبت محبته بغضاً ، وعادت سماؤه أرضاً ، وجرى على
وجهى عرق الخرى من هذا الخطأ الفاضح والضلال المميب . ثم
استرجعت قلبى ، واستنقذت جبي ، وضيق على نفسى الخناق ،
وشددت على عواطفى الوثاق ، حتى لا تنصرف عن سعادتى المتشابهة
الباردة . ففى الصباح دروس عالية ومطالعات ممتعة فى مكتبة زوجى ،
وفى الضحى نزه خلوية معه فى غابات سان كلو أو مودون ، وفى
المساء سمر مع الأصدقاء ، وجلهم علاء الوقار ، وتوجه المشيب

يتناقشون في كل شيء بحرية وصراحة وثقة ، وقلوبهم الباردة
السمحة تتجدد الى شبابي من علاها تحدر الماء الخصر من قم
الجلال الشاحبة

تلك هي حياتي : شباب مطمور في ثلوج المشيب ، وجو
فاتر بأنفاس الشيوخ ، أنقذروحي من يد الموت ولكنكم أنحل
جسمي بالسقم ، ومك في طبعي بالسأم . آه ! لشدما تفصل السنون
الطويلة بين قلوبهم وقلبي ! وما كان أطيب للنفس وأثلج للصدر لو
كان لي بجانب هؤلاء صديق أو صديقة يدفئ خلاتها برودة
خواطري وهي تتجدد في نفسي كما تتجدد أضاء الصباح على الزهور
القريبة من ثلاث هذه الجبال !

وكان زوجي ينظر الى نظر الحزوني ، والأسى يكاد يرهقه كلما
رأى صوتي يناله الخفوت ووجهي يمسح الشحوب ، ويتمنى ولو
بجدع الأنف أن يبعث في نفسي روحاً وقوة ، وفي قلبي حياة وحركة ؛
وكان لا يفتر عن دعوتي الى كل ما يريح علتي ، ويذهب وحشتي ،
ويسقط انقباضي ، من متع الحياة وملاهي العيش ؛ أو يعهد بي الى
من يعرف من صديقات وصواحب . ويضطرني في حنان ورأفة
الى الظهور في الحفلات والمراقص والمسارح . وكانت نضارة شبابي
ووضاءة وجهي تبعثان في قلبي السرور والزهو بما تفيضان على من

حولى من النشوة والبهجة

وفى صباح كل ليلة من هذه الليالي الساهرة الزاهرة كان زوجى يدخل على الغرفة ويستنبئنى عما أحدثت من آثار واسترعت من أبصار وهزرت من قلوب . ثم يقول لى بلسان رقيق عذب : أنت اذن لم تشعري بأثر جمالك فى الأعين ، ولا بسحر جلالك فى القلوب ! ان قلبك الشاب وهو فى العشرين من سنه خلق شيخاً فانياً كقلبي . أوه ! ما أسعدنى أن أراك تصطفين من هؤلاء المغرمين بك ، الحافين من حولك ، شاباً سرى الخلق نبيل النفس يتعم يوماً ما سعادتك بحبه ، ويجعل حياتك هنيئة بقربه ، ويفيض عليك بعد موتى الحنان من عينه وقلبه !! فأجبتة ان صداقتك حسبي ، وانى لسعيدة لا يكدر صفو حياتى ألم ، ولا يشغل بالى هم . فقال نعم ولكنك تهرمين وأنت صبية . وأنا أريد أن تعيشى لتغمضى عيني ، وتذرفى دموع غالية على . فجددى شبابك وأحيى قلبك ودومى مهما كلفك الدوام حتى لا أكابد برحاء فقدك ، ولا أتجرع غصص الحياة من بعدك . ثم دعا الأطباء طبيباً بعد طبيب ، فأعنتونى بتكرار الفحص وكثرة الأسئلة ، ثم اجتمعت كلمتهم على أنى معرضه لتشنج القلب ، وقد بدت أعراض الداء الأولى ، فلا بد لى من هزة عنيفة فى حياتى الهامدة ، وغيبة طويلة من

هذه المعيشة الراكدة وتغيير تام للهواء والسماء حتى يعود الى طبيعته الحارة مافقدته من النشاط والقوة في ضباب باريس. فما تردد زوجي في اشارة سلامتي وبقائي مع البعد عنه، على سروره برؤيتي كل يوم بالقرب منه. فاتفقنا على الرحلة، وكان يود لو يرافقني فيها، ولكن حال بينه وبين ودادته عوائق السن وتكاليف الوظيفة. فعهد بي الى أسرة أجنبية كانت راحلة بفتاتين من سنى الى ايطاليا وسويسرا فسحت معها عامين، ورأيت هذه الجبال وتلك البحار التي ذكرتني بمنظر بلادى وأيام صباى، واستنشيت نسائم هذه الأمواج الفاترة، وهواء هذه الثلجات المنعش فلم يستطع شيء من ذلك أن يرد على شبابي الذاهب ولا عمرى المفقود. فأرسلني أطباء خفيف الى هذا المكان لي تجربوا آخر حيلهم، ويأتوا على كل ما بقى من أملهم. وأمروني أن أقيم به ما دام لشمس الخريف شعاع. فاذا دنا الشتاء انصرفت عنه الى زوجي، وقد كنت أرجو أن يرى ابنته بعد عودتها صحيحة الجسم رفاة الإهاب ريانة الشباب قوية الأمل في المستقبل، ولكنني واأسفاه لا أعود الا لأسود يومه، وأطيرنومه، وأسمم بالحشرات ما بقى من حياته. وربما حم القضاء فينطفئ سراجي أمام عينيه، وألفظ نفسى بين ذراعيه. ثم قالت بلهجة المطمئن المحتسب: وسواء على بعد ذلك الحياة والموت، فاني أرِد حياض المنية

متى وردتها وعيني قريرة ونفسي راضية . ذلك لأنني حققت الأمل
الذي طالما ارتقبته ، ورأيت الأخ الذي رجوته وانتظرته ، ذلك
الأخ الذي ملأ أوهامي وأحلامي ، وشغل بالبحث عنه ليالي وأيامي ،
وقبَّح مثاله في عيني وخياله في ذهني كل مخلوق سواه . ثم حجبت
عينها بكف سبَّطة البنان طفلة الأنامل ، فسالت من خلالها عبرة
أوعبرتني على خدوها الأسجج الجميل ، وقالت : أجل ! ان أحلام لياليَّ
الطويلة قد تمثلت في صورتك هذا الصباح لدى يقظتي . أواه من
فوات الوقت وسوء البخت ودنو الأجل ! لقد أصبح متمناي الآن
أن أعيش القرون لأطيل شعوري بأثر تلك المحاجر التي جادت عليَّ
بالكآء ، وتينك اليدين اللتين عطفنا على بالدعاء ، وتلك النفس التي
ثمرتني بالرحمة والثناء . ثم رفعت طرفها الباكي الى السماء وقالت :
وهذا الصوت الذي دعاني أخته ! وما أحسبه يعود فيسلبني
سعادة هذا القلب الجميل لا أثناء حياتي ولا بعد مماتي

فهوى رأسي على قدميها من فرط السعادة والتصق بهما في
لا يحير جوابا ، ولا يستطيع خطابا . وأقبل الملاحون يمامونا أن
البحيرة قد هدأت ، وأن ما بقى من النهار لا يكاد يبلغ معنا شاطئ

سئوا . فهضنا من مكاننا واتبعناهم بخطى متخالفة مختلفة كما يترنح
النشوان مادت بعطفه الخمر .. وأى قلم يستطيع أن يصف الشعور
الذى ملكنى حين أحسست جسمها الرخص على ما به من شفوف
الأم لم يثقل على فى لطف وردة ، كأنما يلذ لها أن تشعر وتشعرنى بأنى
أصبحت منذ اليوم قوة ضعفها ، وثقة نفسها ، وسند حياتها . ولا
أزال أسمع وقد مر على هذه الساعة عشرون حولا صراخ الأوراق
الجافة تتكسر تحت أقدامنا ، وأرى ظلينا وقد بلغا مثلينا يصيران
ظلا واحداً رمت به الشمس الغاربة على خضرة البستان ، فكان
كالكفن المتنقل مع الشباب والحب ليدرجهما فى ثنايا العدم قبل
حلول الأجل ؛ ولا أزال أشعر أيضاً بدفء منكبها على صدرى ،
ونوسان جديدة من جدائل شعرها على وجهى . وما أنس لا أنس
محاولتى امساكها بشفتى ليتسنى لى تقبيلها ! أيها الزمن ! ما أقدرك
على أن تدفن فى مثل هذه اللحظة مسرات لها دوام الخلود ، وملذات
لها سعة اللانهاية ! ولكن ما أعجزك عن أن تمحو من القلوب
آثارها ، وتنسى النفوس تذكّارها !

كان وجه البحيرة اليليلة فى هدوئه ودقته ، على قدر ما كان

البارحة في اضطرابه وبرده ؛ وكانت الجبال غرقى في صبغ خفيف
من البنفسج تعظم فيه وتبعد كلما طغى عليها فحماها ، فما كنت تدري
أهى جبال أم ظلال ضخمة متنقلة لطيفة تترأى من خلالها سماء
إيطاليا الحارة ! وكان رقيق السماء اللازوردية مزدانا بقزعات أرجوانية
من النسيم كأنها الريش الدامى نسل من جناح بجمعة مزقتها النور .
ولم تعد الأمواج الصدفية المتطاولة تقذف على الصخور غير قطع
صغيرة من الزبد ؛ وكان الدخان الساطع من الجواسق العالية يتمزق
على جوانب جبل القط ثم يصعد الى السماء ساحبا ذلاذله هنا
وهناك على رينده وشعافه ، بينما تجرد الشلالات تتحدر فى مدارج
السيول كأنها دخان الماء . وكانت صفحة البحيرة شفافة كالزجاجة
تترأى فيها اذا نظرت الوجوه والمجاديف ، دافئة لا تشعر اذا
أمررت أناملك على وتر الماء الابهزة خفيفة لطيفة . وكان يحجبنا
عن عيون الملاحين ستار قصير على نحو ماترى فى قوارب البندقية .
وكانت جوليا مضطجعة على مقعد من مقاعد الزورق مرفقها على
الوسادة ، وجسمها مدثر بالشيلان اتقاء البرد ، وقدمها فى معطفى
بعد أن طويته مراراً على نفسه ، ووجهها تارة فى الظل وتارة
تنعكس عليه أشعة الشمس العاربة فيتملل ويشرق . وكنت أنا
مضطجعا على كومة من الشباك فى أقصى الزورق مغمى القلب

أُخرس اللسان عيناى شاخصتان الى عينيها لا تكادان تطرفان . وما حاجتنا الى الكلام مادامت الشمس والجبال والمساء والسماء والهواء والماء والمجاديف وهزات الزورق اللذيذة وأنظارنا وأنفاسنا وأرواحنا تترجم عنا بأصدق لهجة ، وتشرح عواطفنا بأجلى بيان ؟ لقد كنا نخشى أن تكدر الأصوات صفاء هذا السكون ، وتشوه الكلمات جمال هذا الصمت . وكان يخيل إلينا أننا ننتقل من زرقة الماء الى زرقة السماء دون أن نرى الساحل الذى تركناه ، ولا الساحل الذى قصدناه . ثم تنفست الصعداء كمن ناء به حمل فادح فرقه عن نفسه بإلقائه ، فأدركنى شئ من القلق عليها وسألتهما أتألمين ؟ فقالت : كلا ليس ما بى من ألم . وإنما كنت أفكر . فقلت لها : وفيهم تفكرين ؟ قالت كنت أرجو أن الله يصيب الطبيعة كلها بالوقوف فلا تسير ، وبالجود فلا تتحرك ، ويظل قرص الشمس غريقاً الى نصفه وراء الصنوبر الزاهب فى الفضاء ، كأنه الأهداب لأجفان السماء ، ويستمر هذا المزيج من النور والظلام ضارباً فى عرض الأفق ، ويدوم ماء البحيرة على صفائه وزرقتها ، وهذا الهواء على دفئه ورقته ، ويقف هذا الزورق بين الشاطئين ، وقوف انسان العين بين الجفنين ، ويبقى هذا الشعاع الأثيرى مشرقاً فوق جبهتك ، وذلك النظر الحنون المشفق منبعثاً من مقلتك ، وهذا السرور الذى يعمر قلبى بمطعمك

ورحمتك ، اذن لكنت أفهم أكثر مما فهمت منذ سواني الله
الانسانا ، ورزقنى فكراً ووجدانا . فقلت لها بلهجة الخائف القلق :
اذن ماذا كنت تفهمين ؟ فصاحت قائلة : كنت أفهم الخلود تستوعبه
دقيقة ، واللا نهاية تستقصيها احساسة رقيقة . ثم استلقت على حافة
الزورق وتشاغلنا بالنظر الى الماء تريد أن تكفينى ربكة الجواب .
ولكنى أجبت بما جرى على شفتى من المجاملة الفارغة والتظرف
المبتذل ، لا بما غمر قلبي من العفاف المحض والحب الخالص . وكان
حسى الحيوانى لا يرى مثل هذه السعادة كافية ولا وافية ، الا اذا
كانت عِدّة لا إنجاز ، أو مقدمة للذة . فلم تخف عليها دخيلة نفسى
وشرق وجهها من الخجل لى أكثر مما شرق من الخجل لنفسها .
ثم ارتدت الى وعلى وجهها طابع الطهارة المهانة ، وقالت بلهجة ملوؤها
الحنان والتأثر والجلالة لم أعهد لها فيما سمعت منها من قبل : لقد
أسأت الى وبالغت ! فادن منى واصغ الى . أنا لا أدري ان كان
ما أحسه لك فى قابى وما تحسه لى فى قلبك هو ما يطاق عليه الناس
اسم الحب فى لغتهم الفقيرة المشوشة ، أم هم يطلقون اللفظ الواحد
على الأشياء التى لا تتشابه الا فى جرسها على شفة الانسان ؟ لا أريد
أن أعرف هذا ولا أحب أن تعرفه أنت أيضاً . ولكن الشئ
الذى يجب أن تعرفه هو أن ما نشعر به من السعادة أسمى وأجل

ما يستطيع الإنسان أن يتذوقه من نفس الإنسان آخر يشبهه وينقصه
ويكمّله . فهل يوجد الى جانب هذه السعادة التي لا تقدر ولا تعبر ،
وذلك الطموح المشترك والهوى المتبادل الذي جعل من أفكارنا
وعواطفنا ونفوسنا وحدة لا تتعدد ، وكلا لا يتجزأ ، وجمعاً لا يتفرق ،
كأشعة هذه الشمس التي تغرب وذلك القمر الذي يلوح حينما
يتقابلان في السماء ، أقول هل يوجد الى جانب هذه السعادة سعادة
أخرى هي بجة شوهاء تبعد عن روحيتها وخلودها بعد الذرة من
الفلك والدقيقة من الأبد ؟ أنا لا أعرف هذا ولا أود أن أعرفه
ولا أستطيع والأسفاه أن أعرفه . قالت ذلك بلهجة الحزين المشمّر
ثم أرسلت نفسها على سجيّتها واطمأنت الى ، وأقبلت بأسرها على
وقالت : ومالى وللألفاظ ودلائها ؟ انى أحبك . واذا كتمت ذلك
نم عليه الوجود وفضحته الطبيعة . واذا شئت فدعنى أجهر بالقول
وأبوح بالسر عن لسانى ولسانك ان كلينا يجب الآخر . فقامت
مستطار الابكن مسه طائف من الجنون ، وأخذت أذهب وأجىء
على الزورق الهادىء المرجح ، ثم صحت قائلاً : قولى ذلك
وأعيديه ثم قولى وأعيديه ألف مرة ، ولنقل ذلك معاً ، لنقله
لله وللناس ، لنقله للسماء والأرض ، لنقله للصامت والناطق ،
لنقله على طول الأبد ولتردده الطبيعة كلها معنا ! ثم جثوت

أمامها مشبولك اليدين متهدل الشعر مضطرب الحواس شديد التأثر .
فوضعت اصبعها على فمي وقالت : خفض عليك جأشك ودعني أتم
كلامي دون مقاطعة . فعدت الى مكاني ولزمت الصمت ، وعادت هي
تقول : نعم لقد قلته لك وما قلت وإنما صرحت من أعماق نفسي
حين عرفتك اني أحبك . وأحبك بمقدار ما عانيت من انتظار
واضطبار ورجاء مدة ثمان وعشرين سنة من السنين العقم قضيتها
في الفراغ أنظر ولا أرى ، وأبحث ولا أجد ، وأجري ولا أصل
الى من أدركه الوجدان ونم عليه الحلم . ولكن والهف نفسي على !
لقد عرفتك وأحببتك بعد فوات الوقت وذهاب الفرصة اذا كان
مذهبك في الحب كذهب سائر الناس وفهمك للعشق كفهمهم له ،
وأظنيه كذلك ، فان جملتك الدنسة الرعناء التي ألقيتها على منذ
قليل دلت على دخيلة نفسك . فالتق بالاك الى وتفهم ما أقول
لك — اني لك بحسبي وحسبي ، وقلبي ونفسي ، لا أذودك عن أمر ، ولا
أدافعك عن سر ، ولا أقصيك عن منال . أقول ذلك دون أن
أسئ الى ذلك الشيخ الكريم الذي تبناني وأغفاني ، فانه لم يرد
قط الا أن يكون لي أباً ، وأن أكون له ابنة . فليس اذن ما يعنى
أن أعطيك من نفسي ما تحب ، وأمنحك من صلتى ما ترغب ،
والأأمنع منك الا ما تأمرني بمنعه . ولا يدهشك أن تسمع مني

ما لم تتعود سماعه من نساء أوروبا ، فإن شعورهن بالحب سواء
أكان منهن أم لهن قليل . فهن يخشين إذا أعلن عن حقيقته ،
وكشفن عن دخيلته ، أن يفقد أثره في النفوس ، ويحمد شرره
في القلوب . لست من هؤلاء ولا هؤلاء منى ، فلا تصلنى بهن
رابطة من وطن ، ولا عاطفة من قلب ، ولا قاعدة من
تربية . لقد ربيت فى أحضان زوج فيلسوف ، ونشأت بين جماعة
من رجالات الفكر والعقل والعلم والحرية لا يعوقهم عن النظر
الصحيح والفكر الطليق قيود الدين ولا حدود المجتمع ولا سدود
التقليد ، فليس عندى ما عندهن من ضلال العقيدة وأفن الرأى
وزيف القلب الذى يطأطى هامة المرأة العادية أمام محكمة غير محكمة
الضمير . ان الهى وإله طفولتهن غير واحد . فأنا أعتقد بإله
لا تبصره العيون ، ولا تدركه الظنون ، قد نقش على الطبيعة شاربه
ووسمه ، وأجرى فى الغرائز شرعه وحكمه ، وبث فى العقول
أدبه وعلمه ؛ فالعقل والعاطفة والضمير هى وحدها فيض
الهامى ، ومصدر شرائئى وأحكامى . وليس فى هذه الثلاثة
واحدة تمنعنى من أن أكون لك . ولا أستطيع أن أصد نفسى
عن تهاقها عليك ، وترايبها بين يديك اذا كنت لا تسعد الا
بهذا الثمن ، ولا تنعم الا بهذه اللذة . ولكن هل تريد أن

تكون الصلة بين سعادتي وسعادتك هي هذه الشهوة العاجلة ،
والنشوة الزائلة ، وهي تُمتع الوجدان وتسرع النفس لو تركناها ،
أكثر مما تلذ الجثمان وترضى الحس لو قضيناها ؟ ألا تعتقد أن
حبنا يكون أمتع وأرفع وأبقى وأبقى مادام مصوناً في خدر
العفاف نازلاً في مناحي الخلود حيث لا يتقلب الحدثان ولا يعدو
الموت ؟ فإذا تدلى الى اللذة الحسية الوضيعة ، وتدنى الى الشهوة
الدنسة الحقيرة ، فقد كبرياءه ونماءه وبقائه ؟ ثم سكنت قليلاً
وعادت الى كلامها تقول وقد شرق وجهها كأنما دنا من النار
فتورد . ومع ذلك اذا بدا لك أن تطلب منى في ساعة من ساعات
البشك ، أو في سكرة من سكرات الحب ، هذا الدليل على انكارى
لنفسى وإثارى لك وفنائى فيك فسأبذل لك من نفسى هذا
الدليل . ولكن ثق بآئى لا أضحى بكرامتى وحدها ، وإنما أضحى
بكرامتى ووجودى ، وأنت حين تخطف طهارة قلبى وزاهة
حى تخطف معهما نفسى وحيأتى وروحى ، وإنك حين تظن أن
سعادتك أصبحت فى يديك ، وأن حبيبتك صارت بين ذراعيك ،
لا تجد فى يديك الا خيالاً ، ولا تضم بين ذراعيك الا تمثالاً . ثم
سكنت هى وانعقد لسانى طويلاً . ثم زفرت زفرة كاد صدرى
ينشق لها وقلت : لقد فهمتك ، وإن يمين التقديس لك والتنزيه

لحبك والاخلاص والوفاء لشرفك قد أقسمه قلبي قبل أن تنمى
حديثك وتكشفي عن غرضك

كان من أثر اذعاني لاشارتها واستسلامي لارادتها ، أن
فاض في قلبها السرور وازداد في نفسها جمال الحنان . وكان الليل
قد نشر ذوائبه على البحيرة ، ونجوم السماء قد تراءت في صفحة
الماء ، وسكون الطبيعة الخاشع قد ألقى على الارض فتور الكرى .
وخشع صوت الهواء والشجر والموج فاستطعنا أن نسمع العواطف في
قلبيننا تناجي العواطف ، والافكار تخاطب الافكار بصوت رخم
خافت ، وكان الملاحون ينشدون تلك الاغاني المرجعة على نعم
واحد كأنها توقيع الموج على رمال الساحل . فذكرني ذلك بصوتها ،
وكان صدها لا يزال يرن في أذني فقلت لها : آه ! ليتك تسمين هذه
الليلة الجميلة بنعمة من أنعامك الحلوة تلقينها في هذا الموج وفي هذا
الظلام فيبقيان على الأبد مشتملين عليك مملوئين منك ! وأشرت
الى الملاحين أن يسكتوا وأن يخففتوا صوت المجاديف . فسكتوا
ورفعوا المجاديف وتركوها تساقط الماء على نعم الغناء كأنها موافقة
موسيقية ذات ألحان فضية . غنت تلك القصيدة الايقوسية التي

تصف عواطف البحارة والرعاة معاً . وهى عن لسان فتاة أحبها
 شاب فقير من البحارة . ثم عزم الرحلة الى الهند انتجاعاً للرزق
 وطلباً للأثروة . فلما شط مزاره ، وطال انتظاره ، زوجها أهلها
 من شيخ كبير . وكادت تعيش بجانبه رافهة سعيدة لولا أن
 ذكرى حبيبها الأول كانت تتنبأها الحين بعد الحين . وهاك مطلع
 هذه القصيدة :

حينما تهجم الخراف فى الحظيرة ،
 ويعقد الكرى الهنىء أهداب العيون ،
 أيت أرعى النجوم وأسامر الهموم ،
 وزوجى الشيخ ينام بجانبى ملء الجفون !

وبين مقطوعة وأخرى سبحة طويلة فى الخيال تغنيها بلحن
 مبهم من غير كلام ، فتهدد النفس على أمواج الحزن ، وتبعث فى
 مآقى العيون مدامع الصوت . ثم ترجع الى سياق الحكاية فى
 المقطوعة الثانية بنغمة مبهمة صماء نائية تعبر عن الذكرى الأسيفة
 الأليمة المستسلمة . فاذا كان فى أبيات سافو اليونانية نار الحب ،
 فان فى هذه الأبيات الايقوسية دموع الحياة ودم القلب الجريح
 أضماه سهم القدر . انا لا أعرف مؤلف هذه القطعة الموسيقية ،
 ولكنى أدعو الله أن يجود بالرحمة ثراه ، وأن يغمر بالبركة روحه ،

لأنه وفق الى أن يضمن هذه الايات القصيرة ما شاء له الفن من
الحزن الانساني العميق ، في أنات هذا الصوت الرخيم الرقيق .
وترانى منذ هذا اليوم لا أكاد أسمع مطلع هذا اللحن حتى أفر
فرار الرجل يطارده شبح . واذا دعنتى الحاجة الى عبرة من عيني
أفتح بها قلبي غنيت مطلع هذا اللحن الباكي في نفسى فتترقرق في
مآقي الدموع ، وانا أمرؤ جامد العين لا أعرف البكاء !

٢٣

بلغنا ميناء برتويس وهو مرفأ صغير داخل في البحيرة ترسو
به السفن القادمة الى مدينة إكس على مسيرة ميلين منها . وكنا
في موهن من الليل ، فلم نجد هناك مركبة ولا مطية تبلغ الفتاة
عليها المدينة ، والشقة بعيدة لا تقوى المريضة على قطعها راجلة .
فطرقنا كوخين أو ثلاثة من أكواخ الساحل نشد فيها ما نريد
فلم نجد . فلما استيأسنا من وجود ما نركب اقترح الملاحون أن
يحملوا السيدة الى اكس ، وعمدوا الى مجاديفهم فسلوها من حلقاتها
وشدوا بعضها الى بعض بالحبال . ثم وضعوا عليها وسادة من
وسائد الزورق فتم لهم بذلك محفة وثيرة لينة ضجموا فيها الفتاة .
وتقدم منهم أربعة فحملوا المجاديف كل واحد من طرف ، وساروا

بها في وناء ورفق لا يميلونها ولا يهزونها الا ما اقتضته طبيعة المشى من اختلاج وحركة. وكنت أريد أن أقاسمهم مسرة حملها فأخذ بنصيب من هذا الحمل الخفيف على الجسم والزوح، ولكنهم ضنوا به علىّ وأبوّه في شيء من الغيرة والأثرة. فمشيت بجانب المحفة وجعلت يميني في يديها لتعتمد عليها حين يميل بها الهودج، ولتتقى بها الانزلاق من فوق الموضة الصغيرة التي استلقت عليها. وسيرنا على هذه الحال في طريق لاجب تكتنفه أدواح الحور ويضيئه لألاء البدر لا تكلمني ولا أكلمها، ولكنني كنت أشعر بثقل جسمها على ذراعي، ويديها الباردتين تقبضان على يدي، وبشفها الحارة تمر حيناً فحيناً على أصابعي، وبتيار من العطف والحنان يتدفق بين أضالعي، فكان الصمت في هذا المقام أبغ من فصيح الكلام وأدل على ما خامر قلوبنا من اطمئنان وثقة. ولما بلغنا منزل الطبيب الشيخ وأنزلنا المريضة أمام غرفتها أحسست كأن عالماً بأسره انقض بيننا، وشعرت أن يدي قد ابتلت من دموعها، فمسحتها بشفري، وجففتها في شعري، وذهبت فارتميت على سريري دون أن أخلع ثيابي، أو أغلق علىّ بابي

بت أتقلب على الوساد ، وأتململ على الفراش ، أخادع الكرى
وأجاهد الأرق ، فما خدعت في عيني سِنَّةٌ ، ولا نعمت مقلتي بغمض .
ذلك لأن المشاهد والحوادث التي مرت على عيني في هذين اليومين
تمثلت في خاطري ، وترددت في فكري ، واضحة الصور قوية الاثر ،
حتى شق عليَّ الاعتقاد بأنها مضت وانقضت . فسرت عدوى الحمى
التي تلهب نسي ، الى اعصابي وحسي ، فقامت ونمت عشرين مرة
اعلى أجد هدوءاً من القلق ، ودواءً من الأرق ، فما رجعت بطائل .
فكرت السرير وحاولت أن أذهب اضطراب خطراتي باضطراب
خطواتي ، ثم فتحت الشباك وأخذت أتصفح بعض الكتب فما
فهمت شيئاً . فقامت أنقل المنضدة والكُرسي من مكان الى مكان
عسى أن أجد محلاً صالحاً أقضي فيه بقية الليل قائماً أو قاعداً .
وكانت كل هذه الحركات مسموعة في الغرفة المجاورة فأزعجت
المريضة المسكينة ، وما أشك في أنها مثلي لم تذق للنوم طعماً .
ولم تمض ثوان معدودة حتى سمعت وقع أقدامها على أرض الردهة ،
وشعرت أنها تقترب من الباب المغلق الذي يفصل بين ردهتها
وغرفتي . فألصقت اذني بالوِاح الباب وأنصت فاذا بي أسمع

أنفاسها المحتبسة وخشخشة ثوبها الحريري على الحائط ، وأرى ضوء مصباحها يتجلب من خصاص الباب ومن تحته الى أرض غرفتي . وقد كانت هي أيضاً تتسمع الى ، وتريد أن تخفف من قلقها على ، فسمعت مني ما سمعت منها . فسألتني بصوت خافت : « هل أنت مريض ؟ » فأجبتها ليس ما بي من مرض ولا ألم ، وإنما هو السرور زاد على وفاض مني : وشدة الفرح كشدة الترح تحم الجسم وتهز العصب . على أنها حمى الحياة فلا أخشاها ، وما جفوت الرقاد الا لأتمتع بها وأنعم . فقالت لي : اذهب أيها الطفل فتم ، وعلى الآن أن أسهر عليك وأكلأك ، نوبة بنوبة . فقلت لها : وأنت لماذا لا تنامين ؟ فقالت : لا أريد أن أنام حتى لا أفقد لحظة من الشعور بهذه السعادة التي تغمر مشاعري وتغمر قلبي . ان سعادتي بك أوسع من أجلي ، وان القليل الباقي منه لا يكفي للتمتع بنعيمها كما أشتهى . فهل تعجب اذاً بخلت بهذا القليل على النسيان والنوم ؟ لقد جلست في هذا المكان رجاء أن اسمعك ، أو أشمر على الاقل أنى معك ، فقلت لها مغفماً : اذن فلم يكون ذلك من بعد ؟ ولم يفصل بيننا هذا الحائط الغليظ ؟ فقالت : أتظن أن لا فاصل بيننا غير هذا الباب فلا ارادة ولا عهد ؟ اذا كنت تعتقد ألا يحجزك عنى الا هذا الحاجز المادى فان من السهل عليك أن تجوزه . ثم سمعتها تنزع رتاج

الباب وهي تقول : أجل تستطيع الآن اجتيازها اذا لم يكن في نفسك ما هو أقوى من الحب فيكسر من حدته ، ويكفكف من شرته . لا أريد أن أكون مدينة الا لك ، ولا محمية منك الابك ، وستجد حبا يعدل حبك ، وقابلاً يجابو قلبك ، ولكنى قلت لك من قبل إنك ستجد أيضاً في هذا الحب موتى . فلم أحتمل شدة انفعالى من هذا القول ، ولا قوة اندفاعى الى هذا الصوت ، ولا مقاومة هذا الاندفاع بالوازع الخلقى العنيف ، فسقطت أمام الباب المغلق منسرق القوى سقوط الرمى أقصد قلبه سهم مُراش . ثم سمعتها هى أيضاً في الجهة الأخرى قد طرحت وسادة على الأرض ثم جلست عليها . وقضينا على تلك الحال هزيعاً من الليل تتساقط الحديث بصوت خافت من خلال الفرجة المتروكة بين أرض الغرفة وأسفل الباب . حديث من أحاديث القلوب ونجوى الأنفس لا تعرفه الألسن ولا ترجمه اللغات طائف طواف الأحلام بين السماء والأرض ، يتخلله كثير من السككات الطويلة تتبادل فيها القلوب معانى لا تعبر عنها الألفاظ ولا الألفاظ ولا يجرى مثلها على الشفاه . ثم صارت السككات أطول ، والأصوات أخفت ، وتحلل بى التعب فغلبنى النعاس وخدى الى الحائط ، ويدائ مشبوكتان على ركبتي

صحوت من نومي وقد ارتفع الضحى وتلاأت الغزالة في صدر الأفق ، وانتشرها ضوءها الوهاج في أرض الغرفة . وأخذت عصافير الخريف الدورية تبجث في عساليج الكرم وفروع الكشمش بأرجلها ومناقيرها وهي تزقزق تحت نافذتي . وكأن الطبيعة سبقتني الى التنبه والانتعاش فأخذت زخرفها وازينت احتفالا بيوم مولدنا في هذه الحياة الجديدة . وكأن مافي البيت من ناطق وصامت كان مثلي تلوح عليه البهجة وتحركه نشوة الطرب . وما كنت أسمع الا خطى القمرماتة في الدهليز ذاهبة آية تحمل الفطور الى سيدتها ، والا أصوات البنات عائدات بالزهور من رُبي الوادي وخمائل الجبل ، ودبدبة البغال ورنين أجراسها في الفناء تنتظر الفتاة لتجملها الى البحيرة أو الى أيكة الحور . فبدلت ثيابي وقد اتسخت من الغبار والزبد ، وغسلت عيني وقد مرهتا من السهاد والأرق ، وسرحت شعري الأسود ، ولبست دزلكا من الجلد يلبسه صيادو الوعول في الألب . ثم تقلدت بندقيتي ونزلت الى المائدة العامة أفطر مع أسرة الطبيب وضيوفه . وكان حديث المائدة يجري عن العاصفة التي هبت بالأمس على البحيرة ، وعن الخطر

الذى حاق بالفتاة المريضة، وعن غشيتها في الدبر وغيتها مدة يومين ،
وعن السعادة التي كتبها الله لى فى اسعافها والعودة بها . فرجوت من
الطبيب أن يذهب اليها يستفهمها عن صحتها ، ويسألها لى الاذن فى
صحتها . فصعد اليها ثم نزل بها وهى من غبطتها وجزلها أبهى جمالا
وأقوى حياة وأشد روعة . فرنت اليها العيون وصغت اليها القلوب
ولكن نظراتها لم تتجه الا الى . وما كان فى القوم أحد غيرى
يستطيع أن يفهم مرمى هذه النظرات ، ولا أن يدرك مغزى هذه
الكلمات . وتقدم أدلاؤها وهم يطفرون من الفرح فأركبوها بغلا
على سرج وثير موطأ ، وصعدوا بها وأنا اسيرها ماشياً على قدمى الى
الجواسق القائمة على سन्द الجبل . فقضينا سحابة النهار كله وما كدنا
نتكلم ، لأن كلاً منا كان يفهم الآخر دون اشارة ولا عبارة . كنا
تارة نرسل الطرف والفكر فى مشاهد هذا الوادى الزاهى الجميل
فتراه يغور ويتسع كلما صعدنا فيه ، وترددنا فى نواحيه ، وتارة
نقف على شطآن الشلالات فيكتنفنا من دخلها الملون بضوء
الشمس قوس سحاب متموج يكون لحبنا اطاراً وهالة ، وطوراً
نقطف أواخر مابقى من الورود فى المروج الزاهرة على الآكام
الحادرة ، ثم نتبادلها رسائل مؤلفة من حروف عطرتها الطبيعية
وصاغها يد الله ، وطوراً نلتقط الكستناء المتروك تحت أشجاره

لنشويه على نار مدفأتها فى الليل ، وطوراً نجاس معاً تحت الجواسق
التي ترَّحل عنها ساكنوها ثم نقول فى أنفسنا : ما أسعد عاشقين
تنفيهما صروف القدر الى هذه المساكن المقررة المتخذة من
جدوع الشجر وألواح الخشب فى مواقع الغيوم ومطالع النجوم على
مسمع من رفيف الرياح فى التنوب ، وصرير البرد فى الثلاثيات !
ولكنهما يعيشان فى عزلة عن الناس لا تمتلىء حياتهما الا بهما ، ولا
يشعران الا بنفسيهما وجبهما

أمسى المساء فهبطنا الوادى بخطى متثاقلة ، وأعضاء متزايلة ،
نتبادل النظر الحزين الآسف كأننا خلفنا وراءنا ضحكات قلوبنا ومتع
حياتنا لغير رجعة . فصعدت هى الى مسكنها وبقيت أنا للعشاء مع
الأضياف والأسرة . فلما فرغنا من الطعام صعدت اليها واستأذنت
عليها كما اتفقنا من قبل . فاستقبلتنى استقبال الرجل لصديق طفولته
لقيه بعد طول النوى وبعد المزار . ثم جعلنا ذلك برناجاً لحياتنا فى
كل نهار وفى كل ليلة : نقطع اليوم فى الأدغال والجبال ، أو تحت
الشجر أو فوق الماء ، ثم نقضى الليل فى غرفتها بالحديث والسمر .
وكنْتُ أكثر ما أراها حين أدخل عليها مضطجعة فوق كنبه مغطاة

بظاهرة بيضاء من التل موضوعة في زكن بين الشباك والمدفأة . وعلى
متناول يدها منضدة من الخشب الأسمر فوقها مصباح من النحاس
الأصفر ، وطائفة من الكتب وبعض من الرسائل تلقته أو كتبه
أثناء النهار ، وعابدة شاي صغيرة من شجر الأكغو أهدتها الى
وهي مسافرة فظلت على مدفأتى لاتفارقها منذ ذلك اليوم ، وقد حان
صينيان أحدهما أزرق والآخر وردي كنا نشرب فيهما الشاي
منتصف الليل . وكان الطبيب الكريم قد تعود أن يصعد الى غرفتها
فيسمر معها . ولكن مجلسه ما كان يطول أكثر من نصف ساعة
ثم يتركنا الى مطالعتنا ومحادثتنا ، لأنه أدرك أن لوجودى معها من
الأثر الحسن فى صحتها العزيزة على كل نفس مالىس للماته وطبه .
فاذا انتصف الليل ناولتنى يدها من فوق المنضدة فأقبلها ثم آوى
الى مخدعى وأبيت ساهراً لا يغمض لى جفن ، ولا ترقد فى عاطفة
حتى ينقطع من غرفتها الصوت وتخمد الحركة

نعمنا بهذه الحياة الخالصة الممتعة خمسة أسابيع كانت طويلة
وقصيرة . فهي طويلة اذا تذكرت ماعد قلباننا من خفقات السعادة
ونبضات النعيم ، وقصيرة اذا فكرت فى رقة أوقاتها وسرعة ساعاتها

التي مرت مرور الحلم . وكأن عناية الله شاءت أن تبارك هذا الزمن وأن تطيل فيه فجمعات من صفاء الفصل واعتدال الجو مدداً لصفائنا وزيادة في غبطتنا ، وذلك ما لا يقع المرة في كل عشرينين . ف شهر أكتوبر كله ونصف نوفمبر كان أشبه بالربيع انبعث في الشتاء فقام من القبر ناسياً حلله من ورق وزهر . فالنساء علية دافئة ، والأمواء زرقاء صافية ، والأشجار خضراء مورقة ، والغيوم رقيقة وردية ، والسماء وهاجة ساطعة . اللهم الا الأيام فقد كانت قصيرة . ولكن الأمساء الطويلة التي قضيناها بجانب مدفاتها كانت أعود علينا في توثيق الصلة وتمكين المحبة ، وقد جعلت ليالى نوفمبر الطويلة المظامة وجود كل منا بارزا في نفس أخيه ، ومنعت عيوننا وقلوبنا من أن تشيع في الطبيعة وتتبدد في سناها ، فحصرتنا في أنفسنا ، وقوت مافي أبصارنا وبصائرنا من ضياء وبهجة ، وألقت في روعنا أن طلائع الزواجر التي بدأت تسفع زجاج النوافذ ، ورياح الخريف التي تنن وتبكي على خدود الروض ، تدفع في صدورنا وتهيب بنا قائلة : « قولاً لأنفسكما على عجل ما لم تقولاه وما يجب أن تقولاه قبل أن يموت الرجل والمرأة ، فاني نذير الأيام السود التي تدنو منكما ، ولا بد أن تفرق بينكما ! »

زرت أنا وهي على التعاقب جميع الخليجان والوديان والكروم
 وأسيايف البحيرة وقن الجبال وكثبان الرمال والمخارم الضيقة
 والغيران الموحشة والشلالات الهادرة في صدوع الصخور من
 سفوا، فوجدنا أكثر ما يبتغي العاشقون من أمكنة أنيقة،
 وقفار رهيبة، ومنازل عجيبة، تراها معلقة على ريد الجبل بين المهاوى
 وبين السحاب، وبساتين فيحاء ناضرة، وجداول من نيمر الماء على
 المروج الحادرة، وأيائك من شجر التنوب والشاهبلوط تمتد في
 خطين متوازيين ينعقد منهما رواق ظليل يضل فيه البصر،
 وتتجاوب تحت قبابه الأصداء .

تركنا في كل بقعة من هذه البقاع نفساً من أنفاسنا، وزفرة
 من حماسنا، وصلاة من صلواتنا، ورجونا منها في السر والعلن أن
 تحتفظ بذكرى هذه الساعة التي قضيناها معاً، وتلك الأفكار التي
 ألهمتنا إياها، والسمات التي أُلشفتنا أرجها ورياحها، والنطف
 العذاب التي رشفناها من راحنا، والأوراق والأزهار التي قطفناها
 بأناملنا، والآثار التي طبعناها على العشب الندي بأقدامنا . نعم
 رجونا من هذه البقاع أن تحتفظ بكل ذلك لترده إلينا في يوم من

الأيام كاملاً غير منقوص ولا مثلول حتى لا نفقد شيئاً من الهناء
الذى فاض من قلوبنا وطفح من عيوننا ، وحتى نجد ما أودعناه من
اللحظات والسكرات والانفعالات في حرز الخلود المكين ،
ومستودعه الأمين ، حيث يبقى كل شيء ، ويسلم كل أثر ، حتى
النسمة التى لفظتها ، والدقيقة التى تظن أنك أضعتها

أبداً لم يرتفع من هذه البحيرة وهذه السيول وتلك الصخور
منذ خلقها الله ما ارتفع منها الآن الى الخالق المبدع من صلاة وتحميد
وتسبيح وتمجيد . فقد كان فى أنفسنا فضلٌ من الحياة والحب
أفضناه على ما حولنا من ماء وسماء وأرض وصخر وشجر فانتعش
بعد خموده ، وتحرك بعد جموده ، فترددت الأنفاس ، وتجاوبت
الأصدا ، وسطعت الأضواء ، وانتشرت العطور ، وكأن الله قد
أوجد من أجلنا هذا الكون ، ودحا لنا هذه الأرض ، فنحن
نستطيع أن نمرها ونمنحها الصوت والكلام والحب والسلام على
مدى الآباد . والعجب أن الناس يزعمون بعد ذلك أن النفس
البشرية محدودة متناهية ! فمن من الناس شعر بمحدود حياته ، ونهاية
وجوده ، وانحصار حبه ، أمام المرأة المعشوقة ، والطبيعة الموموقة ،
والآله الحق ؟ أيها الحب ! لشد ما يرهبك الجبناء ومجحدك
الأشرار ! انك لكاهن هذا الوجود ، ومذيع سر الخلود !

كانت هذه الاسابيع الستة طهوراً لنفسي مما نالها من وضر
الحياة وزجس الشبيبة . وكان الحب في قلبي شعلة من نار ألهبت
حسى ولذعت حشائى ، ولكنها أضاءت نفسى وأنارت لى الطبيعة
والعالم والسماء، فقهمت ضئولة هذا الكون حين رأيته يصغر ويحقر
ويفنى أمام شرارة واحدة من الحياة الحقيقية. وخجلت من نفسى حينما
وازت بين ما كنت عليه من دعاره وخفة ، وما كانت عليه حبيبتي
من طهارة وغفة . وسبجت فى عالم الأرواح حين غصت بعينى
وقلبى فى هذا البحر المسجور من الجمال والحساسة والنقاء والحب
تتكشف عنه الحجب أمام بصرى ساعة فساعة فأراه فى عيني
هذه المخلوقة وصوتها وحديثها . كم مرة جثوت أمامها وسجدت
سجود العابد الخاشع المبتهل ! وكم مرة رجوت منها أن تغسلنى بعبرة
من عبراتها ، وتحرقنى بزفرة من زفراتها ، وتنعشنى بنفحة من
نفحاتها ، حتى لا يبقى من نفسى فى نفسى غير الماء الطاهر الذى
غسلنى ، واللاهب المقدس الذى صهرنى ، والنفس الجديد الذى
أنعشنى ، فأتحول اليها وتتجول الى ، حتى لا يستطيع الله نفسه اذا
ماوقفنا بين يديه أن يفصل مامزج الحب وأحالاته معجزة الهوى .

آه ! ليت من كان له ابن أو أخ أو صديق لم يعرف الخير ولم يفهم الفضيلة ، يدعو له الله أن يلتقى عليه مثل هذا الحب ، فانه اذا شعر به أصبح خليقاً بكل اخلاص ، حقيقاً بكل بطولة ، جديراً بأن يرتفع الى مستوى هذا المثل الأعلى لحبه . واذا ما انطفأت جذوة هذا الحب في قلبه بقي في نفسه ما بقيت حياته أثارة من لذة هذا الحب القدسي تجعله يعاف مياه الرذيلة ، ويطمح يتصره الى المنبع الذي استقى منه مرة .

أجل ! لا أستطيع أن أعبر لك عما ينالني من الخجل في حضرة هذه الخبيبة . على أن عتابها كان رقيقاً ، ونظرها كان رقيقاً ، وعفوها كان سامياً ، يبعث في النفس الخشوع والرهبة ، بيد أنه كان يملأها علاء وعظمة

لقد كنت لا أفر عن موازنتها بمن أعرف من النساء فلم أجد منهن من يدانيها في فضل ، أو يقاربها في ميزة ، اللهم الا أنطونين فقد كانت تشابهها في سذاجتها وطفولتها ، وأمي فقد كانت تشاكلها في طهارتها وكهولتها . ان نظراتها وكلماتها لتلهمني العمق والاتساع ورقة الحاشية ونبيل العاطفة وشرف الموى ، وتنقلني الى بقاع مجهولة أنتم فيها لأول مرة روائح حياتي الأولى ، ومنبت افكارى الخاصة . ولقد شعرت بأن ما وصمتني به الحداثة من نزق

وصلف ، وجفاء وسخف ، قد زال منى أثره ، حتى لم أعد أعرف
نفسى ولما تركتها كنت على خير ما يكون عليه امرؤ من البر والنقاء .
نهجت لى سبيل الوقار والحمية ، وأحيت فى نفسى موات الصلاة
والورع ، وعرفتنى الدموع الحارة التى لا تذرفها العيون ولا تعرفها
الجفون ، وإنما تنبجس من ينبوع مخبوء تحت اليبوسة الظاهرة ،
فتغسل القلب دون أن تحله وتذيبه ، وعاهدت الله ألا أهبط من
سماء الشرف التى صعدت إليها بفضل ملامها وكلامها والاقتراب منها
لقد كان تأثيرها فى نفسى صادراً عن عاملين لأدري أيهما
أقوى من الآخر : عامل الشفقة وعامل الجاذبية ، فكان الهوى والعبادة
يتمزجان فيها بمقدار واحد ، ويتحولان فى الدقيقة الواحدة الف مرة
من الحب الى الدين ، ومن الدين الى الحب . أليس ذلك منتهى
ما يسمو اليه العشق ؟ : استغراق مطلق فى جمال رائع ، ولذة قوية فى
عبادة سامية . كل ما كانت تقوله كان فى رأيي خالداً ، وكل ما كانت
تراه كان فى نظري مقدساً ، وكنت أغبط الأرض لأنها تحملها ،
والنور لأنه يغمرها ، ولا أنظر ولا أشعر ولا أعبد الا من خلال
حجبها المقدس . فاذا مضت الحياة على مثل هذه الحال النفسية
سكنت الطبيعة عن الحركة ، ووقف الدم عن الدوران ، وذهل القلب
عن الخفقان ، فلا تعرف حواسنا حركة ولا عجلة ولا نصباً ولا

حياة ولا موتاً، ولا يكون بين شخصينا الا اتحاد دام وامتزاج
مطلق وفناء حي كفناء النفوس في الله وهي حية موجودة !

٣٠

ما أسعد قلبي وأثلج صدرى ! ان الشهوة الحيوانية الدنيئة
انطفأت جذوتها « كما شاءت هي » في حسى ، باستيلائى على نفسها
واستيلائها على نفسى ، فعدت أتقى وأتقى مما كنت . ودأب
السعادة أن تبلى القلوب بالخير فيخلص جوهرها، ويصفو عنصرها .
اتحد الله وهي في نفسى اتحاداً تاماً فانقلبت عبادتى لها عبادة دائمة
لله الذى خلقها فى أحسن تقويم، وأدقها فى أجمل صورة وأنبل فطرة .
ولم أعد غير دعاء متصل لا يذكر فيه اسمان، لأن الله كان اياها ولأنها
كانت اياه . وكنا اذا وقف بنا المسير أثناء النهار على سفح الجبل أو
شاطئ البحيرة أو فوق جذوع الشاهبلوط أو عند أوشعة المروج
لنرفه عن النفس أو لنجتلى بعض المشاهد ، يترامى بنا الحديث الى
مهبط الأسرار ومسرح الأفكار أغنى اللانهاية والكلمة التى تملأها
وهى (الله) ، فأعجب العجب كله اذا مارأيتها حين أذكر الله بلسان
ضارع وصوت خاشع وقلب خفوق تنكس البصر، أو تحول الحديث،
أو تخفى بين أسرار جبينها ، أو على مضاحك فها، مضاً من الألم أو

أثرا من الأنكار لا يلتئم مع مانحن فيه من فوران النفس وثوران
العواطف . فسألها ذات يوم ولساني يكاد يعقله الحياء عن سبب
ذلك . فقالت : ان اسم الله يؤلمنى . فقلت لها . وكيف تؤلمك هذه
الكلمة التى تضمنت سر الحياة ومعنى الحب ومغزى الخير وأنت
أكمل مخلوقة صاغتها يده ؟! فقالت بلهجة اليأس الآسف : ذلك لأن
هذه الكلمة كانت تدل فى اعتقادى على الكائن الذى وجب وجوده ،
وان استحال شهوده ، وثبتت حقيقته ، وان خفيت ماهيته .
فأصبحت الآن فى رأيى ورأى الحكماء الذين ثقفونى بدروسهم ،
وهذبونى بنفوسهم ، من أعاجيب الأحلام ، وترهات الأوهام ،
وضلالات العقول . فقلت لها : وكيف ؟ أمعموك لا يؤمنون بالله ؟
واذا لم يؤمنوا به فكيف لا تؤمنين وأنت تحمين ؟ ألا تجدين فى
كل نبضة من نبضات قلوبنا اعترافا بالله واعلانا عن وجوده ؟
فبادرت الى الجواب قائلة : لا تفسر بهذا الضلال حكمة أولئك
الأعلام الذين أماطوا الى عن وجه الحكمة ، وأثاروا الى طريق العقل
والعلم ، بنير ذلك المصباح الوهمى الخافت الذى يضئ به المشعوزون
والمخرفون ذلك الظلام الذى ضربوه عمداً حول عقائدهم ومعاييدهم .
انى اكفر برب امك ورب حاضتى ، أما رب الطبيعة وإله الحكماء
فانى به مؤمنة وله قانتة . انى أومن أنا وهم بوجود هو الأصل

والغاية، وهو المبدأ والنهاية لكل موجود عداه، أو هو الأبد والطبيعة، والصورة والشرعية، لهذه الكائنات الظاهرة والخفية، الذكية والغيبية، الجامدة والحية، التي يتركب منها الاسم الحقيقي لكائن الكائنات وهو اللانهاية. أما فكرة العظمة التي لاتحد، والقضاء الذي لايرد، والضرورة المطلقة النافذة، لهذا الكائن الذي تدعونه الله وتدعوه نحن القانون، فهي تصدنا عن الفهم العميق، والوصف الدقيق، والادراك الصادق، والرأى المستقل، والخيال الملهم، والاتصال الممكن بهذا الموجود، حتى عن الحمد والصلاة، فإن الغاية لا تعبد الأصل ولا تصلى له

واحر تلباء ! لشد ماسكبت بين يديه من التحيات والدعوات والعبرات منذ أحبتك !. انى أدهشك وأولمك، ولكن عفوك ! أليست فضيلة الصدق رأس الفضائل اذا كان هناك فضائل ؟ انا لانستطيع أن تتفق على هذا الموضوع فلنمسك عن الجدل فيه . لقد نشأت فى حجر أم تقية، ودرجت من أسرة مسيحية، فرضعت التقي مع اللبن، ونشقت الايمان مع الهواء، ثم جروك من يدك الى المعابد، وأروك الصور والأسرار والهياكل، وعاموك الصلوات وقالوا لك إن الله يراك ويسمعك ويستجيب لك . فصدقت وآمنت لأنك لم تبلغ بعدئذ سن التمييز والبحث والحكم، فلما بلغتها نقيت

اعتقادك من عبث الطفولة، وتصورت إليها آخر غير ماصورة
النساء ومثلته الكنيسة . ولكن البهر الأول لا يزال عاشياً على عينك ،
والنور الذى ظننت انك تراه كان مشوباً على غير علامك بنور الحدائث
الكاذب الذى بهر بصرك وسحر بصيرتك . فبقى فى نفسك ورأيتك
أثران من هذا العهد الغرير والعقل الصغير هما أسرار الدين والصلاة .
ليس فى الدين أسرار ولا متشابهات ، وإنما فيه العقل الذى يبدد
كل سر ويكشف كل غامض ويجلو كل شبهة . ان هذه الأسرار من
اختراع الرجل الماكر الشديد التلقيق ، أو الساذج السريع التصديق .
أما العقل فهو من نور الله وصنعه . كذلك ليس فى الدين صلاة ،
لأن الصلاة التماس تغيير ، ورجاء تحوير ، وليس فى القوانين الصلبة
ما يلين ، ولا فى الضرورية منها ما يتغير . وقد عرف القدماء على جهالتهم
هذه الحقيقة فصاروا لجميع ما خلقوا من الآلهة الارمز القدر فلم يرفعوا
اليه صلاة ، ولم يطلبوا منه دعاء ، لأنه القانون الذى لا ينحرق ، والقضاء
الذى لا يرد ، والقول الذى لا يبدل . ثم أمسكت عن الكلام
وأمسكت أنا عن الرؤى فترة طويلة . ثم قلت لها : « يظهر أن الاساتذة
الذين علموك هذه العقيدة وألهموك هذا الرأى غلبوا جانب
العقل على جانب الشعور فى نظرية العلاقة بين الانسان والله .
ففسدوا القلب فى الانسان وهو منبع الحب كما أن الذكاء منبع الفكر .

ان ما يتصوره الانسان في الله قد يكون سخفًا وخطأ ، ولكن غرائزه وهى قاتونه الموروث لايجوز أن يعثورها الخطأ والكذب ، والا كانت الطبيعة التى كونتها كاذبة وأنت لاتجوزين الكذب على الطبيعة ، فقد قلت منذ قليل ان الصديق ربما كان هو الفضيلة الوحيدة . فسواء اذن أكانت حكمة الله فى وضع هاتين الغريزتين غريزة السر والخفاء ، وغريزة الصلاة والدعاء ، فى قلب المرء أن يعلن اليه بذلك أنه غير معلوم ولا مفهوم ، وأن الخفاء هو أصح أسمائه وأدل نعوته ، أم يريد أن جميع خلقه يسبحون بحمده ويلمجون بذكره ، وأن الصلاة هى ثناء الطبيعة العام ونشيدها الجامع ، فإن الانسان اذا ما ذكر الله دفعته غريزته الى دعائه واعتقاد سره وخفائه . أما الخفاء فعمل العقل أن يبسطه ويجلوه ، دون أن يبدده ويمحوه . وأما الدعاء فهو أريج القلب كما أن العطر أريج الزهر ، فمن طبعه ألا يفتر عن اعلانه بين يدى الله سواء أنفع أم لم ينفع ، سمع أم لم يسمع ، وسواء أوقع هذا العطر على أقدام الله أم وقع على الأرض . ولكن من يدري ؟ ربما كانت الصلاة وهى الصلاة الخفية بيننا وبين الله القادر الذى لا تدركه العيون ولا تناله الظنون أعظم قوى الانسان الطبيعية والروحية ؛ أو ربما قضت مشيئة الله عز اسمه أن يوحى بها الى القلوب ليشرك المصلين بصلاتهم فى تصريف أمورهم وتكدير

حياتهم . أم من يدري ؟ لعل الله جعل هذه الصلاة مائة بينه وبين خلقه الذين برأهم على مثاله ، وخصهم بحبه وفضاله ؛ أولعله وهو في عزله المقدسة التي لا يعمرها غيره أراد أن تكون الصلاة حديثاً متصلاً بينه وبين الطبيعة فيصعد اليه تسييحاً وحمداً ، ويهبط منه رحمة وبركة . وعلى أية حال فالصلاة أجل ميزة للرجل ، لأنها الوسيلة الى مناجاة الله وتكليمه ، فنحن نناديه وان لم يسمع ، لأن عظمتنا في أن ندعو ، وعظمته في ألا يجيب »

رأيت أن براهيني عطفت قلبها ولم تقنعه ، وأن نفسها وقد أيبستها جفافه العالم لا تزال ينايعها مسدودة من جانب الله ، ولكن الحب لا يلبث أن يربط اعتقادها كمارطب فؤادها ، والهوى بنعيمه وبؤسه لا بد أن يفتق قلبها عن العبادة والصلاة ، وهما عطران يفوحان من كل نفس تذوى وتحترق ، فأحدهما ملئه السكرات ، والآخر ملئه العبرات ، وكلاهما جليل مقدس .

٣١

على أن سعادة القلب ، وخلوة الحب ، وملاءمة هذا الفردوس للنفوس الرقيقة ، ووقوفها كل يوم منى على مجهول من الفكر أو مستور من الأمر يتفق مع أسرارها الخاصة ، وهواء الخريف فوق

الجبـال محتفظاً بدفع الشمس حتى منعقد الشـج ، والجـولات
البعيدة خلال الجـواسق أو فوق الماء ، وما تجده في ميدان الزورق
أو في خطر ان المطية من راحة المشاعر ولذة الجسم ، ولبن البقر
الذي يأتيها به الرعاء صباح مساء في أقـداح من خشب الزان ، وذلك
الثوران اللذيذ والهذيان الهادي والدوران المستمر مما تشعر به
النفس الشابة مستها مواسـ الحب الأول فطار بها على أجنحته في
أجواء جديدة ، ينقلها من فكر الى فكر ، ومن حلم الى حلم ، كل
أو تلك مسح ما بها من نهكة الداء وأوفى بها عجلان الى العافية . فمن
ضحى اليوم الى عشيته كان ذاهبا يؤوب ، وجسمها يشوب ، ووجهها
يشبو ، فذهب ما كان يدور بالجفون من بقع كلفاء أو زرقاء كأنها طابع
الموت ووسمه ، وأصبح الوجه مشبوب الخد منضور اللون فوار الدم
مكسوا بالزغب كوجه الفتاة صعدت في الجبل طويلا فتورد ،
وقرسه نسيم الشـلاجة فتخرج ، ثم ذهب ما بالجفون من ثقل ، وما
بالعيون من ظلمة ، وما بالشفاذ من ذبول . وكانت نظراتها تسبح
في ضباب شفاف تراكم من هموم النفس ، فهو بخار للقلب الماتب
انعقد فوق مقلة العين دموعا لا تقتر عن الفيضان . ولكن
تلك النار التي تلوع القلب وتلهب الحشا تجفف هذه الدموع فلا
تقطر . ثم عاودت هيئتها القوة ، وحركتها المرونة ، ومشيتها الخفة ،

حتى لتحسبها عادت طفلة . وكان الطيب وأسرته كلما رأوها في فناء البيت عائدة معى من نزهتها أخذ منهم الدهش مأخذه ، وصاحوا متعجبين من وفور حظها من العافية، وسرعة تقدمها في الصحة، وما

تشعه مقلتها من نور الصبا وضوء الحياة في بحر يوم وليلة كأنما للسعادة أشعة ، وكأنما تجمع حولها من هذه الأشعة جو يغمرها ويغمر كل من ينظرها . وما كانت هذه الأشعة الا أشعة الجمال ، وما كان هذا الجوالا جوالح ! ولا تظن ذلك اختلاق مصور أو اختراع شاعر ، وإنما فضل الفنان على غيره أنه دقيق النظر قوى الملاحظة ، فهو يبصر مالا يبصره السادرون أو العاشون من سائر الناس . لقد طالما قالوا في الغادة الحسناء إنها تبدد غياهب الليل ، ويصح القول في جوليا أنها تدفى ما أحاط بها من الهواء ، فكنت أحياء وأسير مغموراً بهذا الدفء الصادر عن جمالها المبعوث من مرقده ، وكل من مر بها وجد هذا الدفء وأحسه !

كنت كلما أويت الى غرفتي أثناء اللحظات القصيرة التي أضطر فيها الى تركها أشعر وأنا في رائعة النهار كأننى في نفق تحت الأرض لا يمر به الهواء ولا ينفذ اليه الضياء ! وكانت الشمس نفسها على

شدة تألقها وقوة توهجها لا تضيء لى الأشياء مالم تنعكس فى عيني منها ، وكنت كلما زدتها نظراً زادتنى إعجاباً بها وارتياها فى أنها خلقت من النوع الذى خلقت منه . ولقد أصبحت ألوهية حبها فى ذهنى حقيقة ثابتة ، وعقيدة راسخة ، فنفسى لا تقتر عن الخضوع والركوع أمام هذه المخلوقة التى جلت بحنانها عن أن تكون إلهاً ، وسمت بقداستها عن أن تكون امرأة . وما أعرف فيما أعرف من اللغات اسماً ينطبق عليها ويدل على حقيقتها ، فسميتها فى نفسى بالسر . ورحت أودى إليها تحت هذا الاسم المبهم شعائر يصلها بالأرض الحنان ، وبالسما العباد ، وبالخيال النشوة ، وبالْحَقِيقَةُ الوجود

ثم أُلْجَأْنِي ، أأشاهد منها وما أعتقد فيها الى أن أبوح لها بأنى صنعت فى بعض الحالات شعراً ، ولكنى لم أعرضه عليها ، ولم أنشده على مسمعيها ، لأننى لاحظت أنها قليلة العناية بهذا النوع الصناعى من الكلام الذى يسمى التعبير عن العواطف الساذجة والميول الصادقة ، فيفسدها وهى صالحة ، وييهيها وهى واضحة . وهى من طبعها المبادهة والمصارحة والرزاة ، فلا ترضيها هذه المواضع ، ولا تلك المداورات ، ولا تروقها روية الشعر المكتوب ، ولا زخرفة الخيال المكذوب ، وإنما هى شعر بغير وزن ، وغناء من غير مزهر . وهى عارية كالقلب ، بسيطة كالكمة الأولى ، حاملة كالليل ، مضيئة

كالنهار ، سريرة كالبرق ، واسعة كالفضاء ! وكانت نفسها ساماً
موسيقياً لاحد لدرجاته ، ولا قيد لنغماته ، وكان صوتها غناء رخيماً
لا تعادله رنة الوزن ولا ايقاع النغم . فلو عشت بجانبها ما عشت
لما أحسست حاجة الى انشاد الشعر أو الى قرضه ؛ لأنها كانت لي
القصيدة الحية التى تصور لى مشاهد الطبيعة ، وتبهر عن خطرات
نفسى . فعواطفى رنانة فى قلبها ، وصورى مرسومة فى نظرها ،
وأنغامى شادية فى صوتها . ناهيك بأن الشعر المادى الرنان الذى
ظهر فى آخر القرن الثامن عشر وتمثل فى شعر دُليل وفُنتانِسْ
لا يروقنا ولا يلائمنا . ان نفسها التى هدهدتها أمواج المحيط الحنّانة
الرخيمة كانت مقرأً للآلام والأحلام والحب ، فلا يكفى لاثارتها
تصفيق الماء ، ولا أغانى الهواء . ولقد حاولت مراراً أن تقرأ اى
شيئاً من دواوين هؤلاء الشعراء وأن تظهر اعجابها بما نالوا من سمعة ،
ولكنها ما كانت تطيق الاستمرار فى القراءة فتمسك ، وتبقى
الكتب تحت يدها خرساء كأنها الأوتار المقطوعة يعالجون اخراج
الصوت منها بالغزف عليها فى غير طائل . كان فى قلبى أثرها ونفجها
وشعرها ، ولكنى عجّزت عن توقيعها وتقطيعها وترجييعها . ولم انشد
الأشعار التى ألهمتني اياها ، وأوحت الى معناها الا على قبرها ، فلم
تعرف من تحب قبل موتها . لقد كنت فى نظرها أخواً ، فسا كان

يعنيها كثيراً أن أكون في نظر العالم شاعراً . ففي ذات مرة بحث لها عن غير عمد بملكتي الضعيفة في قرض الشعر ، وما كانت تأنس ذلك في ولا تريده لى . واتفق أنه وفد علينا صديق لويس فقضى معنا أياماً ككنا نقطع انصاف لياليها في القراءة والحديث والمنى ومطارحة الشكوى أو مبادلة الفرح . ولقد كنا نعجب العجب كله لتصرف القدر في هذه الحظوظ الثلاثة كيف جمعها من شتات ، وعرفها من نكر ، وعقد بينها أسباباً كانت بالأمر مفصولة ، وأبان لها أشياء كانت منذ قليل مجهولة ، ثم ضمها فوق فرش واحد تحت عرش واحد في بلد واحد . وطفقنا تنساف النظر ونستفتى القدر عن مصيرنا ، فلا ندري أتعصف بنا عواصف الدهر فنتفرق الى غير رجعة ، أم ينسدل بيننا حجاب النوى ثم نعود فنجتمع . لم نر في سماء الغد مخايل لليمن ولا دلائل على السعادة ، فشمنا الأبنى واستولى علينا الحزن ، ولبثنا صامتين أمام منضدة الشاي الصغيرة التي جلسنا إليها ، واعتمدنا على مرافقنا عليها ، حتى أحس لويس ديب الشعر في نفسه ، وكان شاعراً ، فأراد أن يصور بالكتابة أشجان قلبه وبواعث بؤسه . فقدمت إليه جولياً قلماً وقرطاساً ، فخط على رخام المدفأة هذه الرباعيات الشاكية الباكية على مثال الرباعيات المحزنة التي نظمها جلبرت . وأكبر ظنى أنها ستخلد ما خلدت أنات أيوب في سفره

قال منها : —

الى وليمة الحياة أُجبت أنا الضيف المنكود ،
فلم أقم على خوانها غير يوم ثم دعتنى المنون .
فأنا أرُد حياضها على رود وأناة ،
دون أن أرى باكياً يسكب على عبرة !

الخ الخ

فحركات شجوني أبيات لويس فأخذت القلم من يده وانتبذت
ناحية من الغرفة ، ثم نظمت هذه الأبيات التى ستقبر معى دون أن
تجمع وتنتشر . نظمها فيها مستمداً من قلبى لامن خيالى . ثم قرأتها عليها
دون أن أجزو على النظر إليها ، وهالك هى ، ولكن لا ، ان عبقرى
كانت كلها فى حجبى وقد فئت بفنائها ، وانقضت بانقضائه . فلما فرغت
من انشاد تلك الأبيات رأيت على وجه جوليا وقد انعكس عليه
ضوء المصباح سماء العجب الحنون والجمال الفائق ، فوقفت حيران
متردداً بين الملاك والمرأة ، وبين الحب والعبادة ، فتغلبت العاطفة
الثانية على نفسى ونفس صديقى . فجتونا أمام كتبنا وقبلنا طرف
شالها المرسل على قدميها ، وعرفت هى أن هذه الأبيات شعاع
ضوئها فى نفسى ، ولهيب غرامها فى قلبى ، فأثنت عليها ثم لم تعد الى
الحديث عنها مرة أخرى . لقد كانت تؤثر الحديث المسلسل المرسل

بينى وبينها ، أو الصمت المفكر المؤثر فى قلبها ، على هذه الصناعات اللفظية ، والنكت الفكرية التى تبخس قدر النفس بدل أن تشرحها . ثم رحل لويس عنا بعد أن أقام معنا بضعة أيام

٣٣

على أثر هذه الأشعار التى نظمتها تصويراً لقلبي فكانت صدى خافتاً لأنغامه ، وترجاناً عيباً لأحلامه ، وأنيباً خفياً لآلامه ، طلبت الى أن أنظم لها قطعة فى أحد خاطائها وموضع اجلالها وثنائها ، من رجالات باريس وهو السيد بونال ، وما كنت أعرف منه إلا اسمه النابه وذكره الطائر فى التشريع والفلسفة والدين ، فتخيلت انى أخطب موسى جديداً يقبس من نور سيناء هدى من الله يفيضه على الوجود ويثبه فى قوانين البشر ، ثم انفتحت فى هذه القصيدة سواد ليلة وأصبحت فغدوت اليها وقرأتها عليها فى ظل شجرة من أشجار الكستناء ، فاستعادتنى قراءتها ثلاث مرات ثم أخذتها وفى المساء نسختها وفى الصباح أرسلتها الى باريس ، فجاءها الجواب من الأستاذ بونال يقرظ القصيدة ويتنبأ لناظمها بالمستقبل الزاهر والفوز الباهر والصوت البعيد . وتلك كانت سبب المعرفة بينى . وبين هذا الرجل الكريم . وقد أعجبت به وأعزته منذ عرفته

وخبرته ، اللهم الاعقائده التيقراطية^(١) فلم أرضها منه ولم أشاطره
 ايها . وهو مثل السيد دُمستِر نبي من أنبياء الماضي ، وشيخ من
 شيوخ الفكر ، يجلهم الناس ويوقرونهم ، ولكنهم جالسون على
 أبواب المستقبل يقرعون ولا يلجون ، وانما يتسمعون وهم على
 أعراف الزمن بين القديم والحديث أنين الاشياء والآراء وهي تعالج
 الروح وتكابد الموت في أذهان البشر

٣٤

بينما كان الخريف يقوض خيامه ، ويستدبر أيامه ، اذا بطلائع
 الشتاء قد دهمته وهو على وشك الرحيل فترك في يديها شيئاً من
 آثاره ، وقبساً من أنواره ، ثم ولى . فكان الجو لا يزال مشرق
 الجنبات رقيق النسمات تطالعه الشمس من خلال النائم فترة بعد
 فترة فتقبسه الجفاف والحرارة . فكنا نخادع أنفسنا ونزعم أننا
 لا نزال في الخريف ، لأن الاعتراف بقدوم الشتاء وهو نذير
 النوى وموعد الرحيل كان يملأ قلوبنا رعباً وفزعاً . وكان الثلج
 يتساقط في الصباح تنفأً يبيض على ورد البهجة وفوق زهور الروض
 كأنه زغب البجع الأبيض نسله أثناء الليل فذهب أبدياً^(٢)
 مع الهواء في جو السماء . فاذا متع النهار ورتقت ذكاء^(٣) في الأفق

(١) الاعتقاد بأن سلطان الحكومة مستمد من الله وحده (٢) متفرقاً (٣) الشمس

أذابت ذلك الثلج فتدفق في البحيرة ، فيكون لتدفقه منظر يثلج
الصدور ، ويجلو صدأً ألهم ، ويأطف حرارة الجو . وكانت أشجار
التين الدانية على الصخور المعرضة للأمواج لا تزال كالسieve بأوراقها
العريضة ، وكان انعكاس الشمس على هذه الجنادل لا يزال خالغاً
عليها من جمال الصيف أضواء أيامه وحرارة لياليه . غير أن هذه
الساعات كانت تفر منا عجالاً فرار مجاديفنا من الصخور الناتئة
على جانب البحيرة . وكانت أنوار الشمس الصالبة فوق أشجار
التنوب وعلى الأشنة الخضراء ، وطيور الشتاء المرتاشة الوثابة
الألوفة ، وفيضان الشلالات وزبدها المتلوى تلوى الأفاعي فوق
المروج الحادرة ، وتجمعها في مدارج السيول ثم تدفقها من رءوس
الصخور السوداء الملساء في البحيرة ، وما نشعر به في هذا الجو
الداقي المنير من سمادة النفس ونعيم العيش لصفاء القرب وهدوء
الخلوة فوق هذه اللجة بعيدين عن الأرض ، كل ذلك كان إلى تلك
اللحظة يغمرنا بفيض من لذة الحياة ونشوة القلب وسكينة الحب
لا يستطيع الدهر نفسه أن يزيد عليه ولا أن يضيف شيئاً إليه .
على أن هذه السعادة كان يشوبها في نفوسنا الخوف من انقضائها ،
فكأنما كل تجديد بائز ورق خطوة في سبيل الفراق . ومن
يدري ؟ لعل هذه الأوراق المهتزة اليوم تسقط في الماء غداً ، وهذا

النجيل الذى نستطيع الآن أن نفرشه لا يلبث أن تطمره طبقة
كثيفة من الثلج ، وهذه الصخور البراقة والسماء الناصعة
والامواج اللامعة يجعل اليها ضباب الليل فتفرق منه في بحر مسجور !
تنفسنا الصعداء في وقت معا ، لأننا كنا نجمل هذه الخواطر
في أذهاننا دون أن نجرؤ على تبادلها مخافة أن نوقظ المصيبة اذا
ذكرناها

آه ! كل منكم ذاق ولا ريب هذه السعادة العاجلة الزائلة التى
لأمان لها ولا غد . تتجمع الحياة واللذات والمنى كلها في ساعة فيتمنى
المرء لو تطول وتخلد ! ويشعر بافلاتها منه في كل دقيقة وفي كل
ثانية كلما سمع البندول يدق الثوانى ، أو رأى العقرب يلتهم الساعة ،
أو أحس العربّة تنهب المسافة في كل دورة ، أو نظر حيزوم
السفينة يشق عباب الماء فيدنيه من الشاطئ حيث يهبط من سماء
آماله وأجواء خياله الى أرض الحقيقة الباردة الوعرة !!

واتفق مرة أن كنا بعد الغداء يترجح بنا الزورق على ضوء
الشمس في خليج هادئ دافئ بين ذراعين من جبل القط ، فنزل
الملاحون الى الأرض يرفعون شبا كانوا نصبوها بالأمس ، وبقينا

وحدنا فى الزورق وهو مشدود بحبل دقيق الى فرع من شجر
 التين ، فانقتل الحبل من نودان الزورق فكسر الغصن وسار
 بنا الزورق دون أن نشعر حتى بلغ منتصف الخليج على مسافة من
 الصخور العمودية التى تكتنفه . وكان الماء البحيرة فى هذا المكان
 لون البرنز وبريق المعدن المذاب وسُجُوَّ الليل الساكن . فأخذت
 المجداف وعدت بالزورق الى الشاطئ ؛ ولكن هذه العزلة عن
 الأحياء بعثت فى أجسامنا نشوة لذيذة ، فتاقت أنفسنا الى أن
 نضل على تلك الحال فى جو لا يدركه البصر ولا يحده الفكر ، لا
 على بحر يحصره شاطئان ويحده قاع . وانقطع عن آذاننا أصوات
 الملاحين وقد رأيناهم على مدى البصر يصعدون كتيب سقوا . ثم
 واراهم رأس الجبل فلم نعد نسمع لهم ركزا ولا نرى لهم شخصا . وما
 كان يبلغ أسماعنا الا همسة الشلال متقطعة على بعد ، ورفيف
 الريح حاملة أنين الصنوبر ، والتنظام الأمواج على جوانب الزورق .
 وكان نور الشمس وظل الجبل يتقاسمان القارب ، فللشمس مقدمه
 وللظل مؤخره . وكنت جالسا فى جوفه بين قدمي جوليا كما كنت
 يوم عدت بها من دير الهتكب . وما كان أنعم لعيوننا وأحلى فى
 صدورنا أن نذكر فى كل محادثة وفى كل مناسبة ذلك اليوم السعيد
 الذى ابتدأ فيه تعارفنا وكلامنا ، وولد به تألفنا وغرامنا ، وأصبح

لعلنا الوثيقة الخالصة تاريخ اعجاب واخلاص ومودة . كانت
 جوليا مضطجعة على المقعد وإحدى يديها مرسله على حافة الزورق
 والأخرى معتمدة على كتفي تعبت بخصلة من شعري الطويل ،
 ووجهها مخني على وجهي كأنها ترقب في جيبني الشمس وفي عيوني
 النهار، وقد فاضت على قسماتها نضرة السعادة الهادئة العميقة، نخلت
 على محياها بهاء النفس الكريمة وصفاء الضمير النقي ، فكان خليقاً
 أن يكون لنفسها مرآة وخلقها صورة . وبينما نحن على هذه الحال
 نتساقى كؤوس الهوى بالفكر، وتبادل أحاديث المني بالنظر، اذ علاها
 شجوب وآوت اليها ذراعيها ، وسترت عينيها بيديها ، واسترست
 في الفكر ملياً وهي صامتة . ثم رفعت كفيها وقد اخضلتنا من
 الدمع ، وصاحت بصوت ملئه الوضوح والسكون والعزم قائلة :
 «أوه ! فلنمت ! » وأدركها قبل أن يتبين غرضها الوجوم
 فسكتت لحظة ثم عادت الكلام تقول : «أوه ! أجل لنمت ! .
 فليس في الارض على ما نلنا مزيد، ولا في السماء فوقه مطمح » ثم
 سرحت طرفها طويلاً في السماء والجبال والبحيرة وخاطبتني بضمير
 الواحد ، وتلك هي المرة الأولى والأخيرة التي استعملت فيها هذه
 الصيغة الكلامية التي خصص العرف استعمالها لله أو للآليف .
 قالت : أنظر تجد كل شيء كأنما هيء وأعد للاحتفال بانقضاء

حياتنا وتهوين ملماتنا على أقدم صورة وأجل حالة . فها هي الشمس وهي أجل في هذا العام منها في أعوامنا الأول تغرب وربما لا تشرق علينا غداً ! وها هي الجبال تتراعى لآخر مرة في جوانب هذه البحيرة ، وترسل علينا ظلالها وكأنها تقول : أدرجا نفسيكما في هذا الكفن الذي أبسطه لكما ! وها هي الأمواج تتعاقب على الساحل صافية صامتة عميقة فتيه لنا مرقدًا من الرمل لا تقع عليه عين ولا يهتدى إليه انسان فيصدع قلبينا بخبر السفر ! ولن يعلم أحد السبب الذي قضى على هذا الزورق أن يسير غداً وحده حتى ينشب في صخور الساحل . ولن يجد الفضوليون أو الخليون على صفحة الماء أثر ايدل على المكان الذي غاب فيه جسمان متعانقان تحت الموج الهادر ، وصعد منه روحان متلازمان الى الأثير الخالد ! ولن يبقى على الأرض منا صوت ولا أثر غير صوت الموجة تنشق لجسمينا ثم تنطبق ! فلنمت الآن في هذه السكره التي استولت على النفس وهيمنت على الطبيعة حتى لا نذوق من الموت غير لذته . فربما احتجنا اليه في مؤتلف الزمن فلا نجده عذب المذاق ولا سهل الملمس كـهذه الموتة . انى أكبرك بيضع سنين ، وهذا الفرق في السن وان ظهر يسيراً اليوم سيعظم مع الزمن ، فما يفتنك الآن في وجهى من الوسامة والجازية

ستذهب بَلَّتُهُ عما قليل ويدبل ، فلا يبقى في نفسك منه الا عهده المتوهم وأثره الدارس . وسيجد قلبك حينئذ الحاجة الى هوى جديد وسعادة أخرى ، وأنا لا أستطيع الا أن أكون معك ولك . فإذا وجدت هذا الهوى ، وصادفت تلك السعادة في امرأة أخرى هلكت أسمى وغيره . واذا آثرتني على نفسك هلكت ألما وندما لعنائك في سبيلي وشقائك بسببي ! ... أوه ! فلنمت اذن ، ولنقض على هذا المستقبل المريب في هذه اللحظة وقلوبنا جياشة بالسرور فياضة بالسعادة »

في هذه اللحظة وبهذه القوة كانت نفسى تحدثني بما ألقاه فيها في أذنى ، وأداه وجهها الى عيني ، وأوخته الطبيعة الصامتة الحزينة الى قلبي . فكنت أسمع صوتين احدهما داخلي والآخر خارجي يتماوران على لفظ واحد ومعنى واحد ، فنسيت نفسى وذهلت عن وجودى وأجبتها : فلنمت !!

.....

ثم جئت بحبال الشبكة من الزورق وأدريتها ثمانى مرات حول جسمى وجسمها ونحن متعانقان متلاصقان كأننا في كفن ، ثم حملتها بين ذراعى لألقيها معى في الماء ولم أكد أهم بالوثبة حتى شمريت برأسها الواهن يقع على كتفى وقوع الأشياء الجامدة ،

وبجسمها يسقط على ركبتيها سقوط الاجسام الهامدة . فخبث أن
قوة التأثير وشدة السرور بموتنا معا قد عجلتا لها الموت ، ولكنها
كانت في غشية من فرط ما تحس فلم أجرؤ على أن أجريها الى
قبري على تلك الحال مخافة أن يكون قد بدا لها فأجنى عليها .
فاستلقيت بها في قلب الزورق وأسرت الى الوثاق فخلتته ثم
ضجعتها فوق المقعد ، وأخذت أنضح جبينها وشفيتها بالماء البارد .
ولا أدري كم لبثت على حالها تلك من غير وعي ولا لون ولا صوت ،
ولكنني أذكر أنه حين عادت نفسها، وثاب اليها حسها ، كان الليل
غاشياً على الكون، والموج قد استدرج الزورق الى عباب البحيرة .
ولما ذهب ما بها من أثر الغشية قلت لها : ان الله لم يرد ما أردنا ،
فأحالتنا عما قصدنا ، فمازلنا نتملى بالحياة ونشعر بالوجود . ولكن
ما بالنا نستسلم للوجدان وتنحلل من سلطان العقل ؟ أليس ما كنا
نظنه حقاً من حقوق الحب كان جريمة مزدوجة ؟ أمالنا في الأرض
أهل وفي السماء إله ؟ فردت على مسرعة في صوت خافت « دعنا
من هذا الحديث فلا نعد اليه . لقد أردت أن أعيش ، فلتكن
ارادتك . وما كانت جريمتي في العزم على الموت ، وإنما كانت في
حملك عليه وجرك اليه » قالت ذلك وكان في لهجتها ما يشف عن
الأم ، وفي نظرتها ما ينم على الملامة . فقلت لها رداً على آلامها

وملامها : وهل فى العالم الآخر ساعات تعدل هذه الساعات التى قضيناها معا ؟ ان أمثالها لى هذه الحياة الدنيا ، وهذا وحده يحملنى على حبها والحرص عليها »

وسرعان ما عاد إليها فى هذه المرة صفاء نفسها ونضارة وجهها ، فتناولت المجدافين وارسلت الزورق الى الساحل المرمى ، ونزلنا فوجدنا الملاحين قد أوقدوا ناراً تحت صخرة ، فاصطليناها هنيئة ثم عبرنا البحيرة حالمين ، ودخلنا البيت صامتين

٣٦

ولما جاء موعد السم دخلت عليها الغرفة فاذا بها أمام منصبتها تغالب الدمع وتبكي أحر بكاء . وكان بين يديها رسائل كثيرة مفضوضة مبعثرة بين أقذاح الشاى . فلم تكدرانى حتى أوامأت باصبعها الى هذه الكتب الواردة من جنيف وباريس وهى تقول : ليتنا متنا تلك الموتة الوحيدة ^(١) حتى لا نكابد موت النوى الطويل ! لقد كان فيما ألقى إليها من الكتب كتاب من زوجها وآخر من طيبها . فأما زوجها فيقول إن القلق أخذ يساوره عليها من جراء هذه الغيبة الطويلة فى هذا الفصل الذى يصعب ويشتد من يوم الى

(١) السريعة

يوم ، وأنه يحس قواه تضمحل من شهر الى شهر ، ويود قبل أن يفارق الحياة أن يعانقها ويباركها . وكان إلحاحه المؤثر ممزوجاً بالحنان الأبوى والتلميح الظريف الى ذلك الأخ الجميل الذى صرفها عن كل شىء وشغلها عن كل صديق . وأما الطبيب فيقول انه كان مقدراً من قبل أن يأتى اليها فيصحبها الى باريس ، ولكنه اضطر أن يسافر فجأة الى ألمانيا ليطلب أميراً هناك دعاه الى علاجه . فهو مرسل اليها مكانه رجلاً وقوراً ثقة يكون فى صحبتها وخدمتها حتى تبلغ باريس . وفِعلاً قدم هذا الرجل وتحدد الرحيل ثالث هذا اليوم وقعت هذه الاخبار علينا وقوع الصاعقة كأنها لم تكن من قبل معلومة ولا متوقعة ! وقضيناها ليلة طويلة ثقيلة متكئين على المنضدة متقابلين صامتين لا نجرؤ على النظر ولا نقوى على الكلام مخافة أن تنفجر بالبكاء ، فما كان يقطع هذا الاحتضار الطويل الصامت الا كلمات واهية الرباط طائشة الغرض نلنظها بصوت خافت مبهم فيكون لها فى الغرفة رنين كرنين المدامع فوق ناووس فقيد . . ثم قطعت عزمى أنا أيضاً منذ الساعة على السفر

كان اليوم التالى بارحة يوم الفراق ، فأشرق شمسهِ وضاحة الجبين

وضاءة الطلعة، وأصبح جوه دافئ النسيم نقي الأديم جميل الروعة،
 كأنما أراد السخر منا والعبث بنا . فتركنا القوم يعدون الحقائب
 ويجهزون العربة وذهبنا بالبغال والادلاء نودع الخلبجان والوديان
 والجبال، وسرنا على ترتيب المراحل التي قطعناها قبل أن نصل الى
 هذا الحب المقدس . فزرننا أولاً الأماكن التي تقابل فيها نظرانا ،
 ثم التي تلاقى بها شخصانا ، ثم التي تسير عليها جسمانا ، ثم التي تحدث
 فوقها لسانانا ، ثم التي تألف عندها قلبانا . فابتدأنا بثريسرف ، وهي
 هضبة جميلة قائمة بين البحيرات ووادي اكس ، كأنها كومة من
 الخضرة ، جوانبها متعامدة على الماء مغطاة بأشجار الشاهبلوط
 ذوات الاغصان الفيانة المتهدلة على اللجة ، تحسبها اطاراً للسماء اذا
 نظرت الى أعلى ، وللماء اذا نظرت الى أسفل . ثم هبطنا منها على
 حدور دافع الى قصر صغير منعزل يدعى بون بور ، وهو مطمور
 من جهة البر تحت شاهبلوط تريسرف ، ومن جهة البحر تحت
 مطاوى الخليج ، فلا تأخذه العيون لا من الهضبة ولا من البحيرة
 الا بعد لأى . ثم يفصله عن سيف البحيرة الرمل الهادر بالامواج
 والزبد مشرف مغشى بأشجار التين ، فهو للقلوب الحبيبة عش
 وللنفوس المكروبة جنة . ولشد ما غبطنا أولئك السعداء الذين
 يملكون هذا العش المحجوب عن العيون ، المخبوء بين الماء والغصون ،

فلا يعرفه الا اطيّار البحيرة ، ونسّات الشمال ، وأضواء الشمس !
ولطالما باركناه ، وحمدنا مراحه ومغداه ، وتمنينا على الله ألا يجعله
ملاذاً الا لقلوب كقلوبنا تستحقه وتفهمه

٣٨

خرجنا من قصر بون بور وصعدنا تاركين طرف الهضبة
متجهين شمالاً نحو الجبال الشاهقة المشرفة على وادى شميرى ،
فرأينا الربى والمراعى والاكواخ والسفوح المخضرة وما فوقها من
المجول المجتررة التى تدب فوق العشب فترن اجراسها فى رقابها رنيناً يذبه
رعاتها الى حركاتها . ثم علمونا حتى بلغنا الجواسق العليا . وكان قر
الشتاء عندها قد بدأ يحرق أطراف العشب ، فتذكرنا ما قضيناه
بها من الأوقات الهنية ، وما تبادلناه بقرها من الأحاديث
الشهية ، وتمليناها فيها من الخلوة الممتعة والعزلة المحبوبة ، وما حملناه
أجنحة الهواء وأشعة الضياء من النفثات الزافرة والدعوات
الظاهرة الى الله فى سمائه وعلاه

تذكرنا فى أنفسنا هذه الأوقات الرضية الذاهبة ، وأخطرنا
ببائنا تلك الكلمات والنظرات والحركات والأحلام والأوهام التى
نعمنا بها فى خلواتنا وجولاتنا ، كأننا نريد أن ننقلها معنا كما ينقل

الانسان ثمين الرياش وفاخر الأثاث من منزل إذا تركه . ثم دفننا هذه الكنوز وتلك الذكريات كلها بين جدران هذه الجواسق الخشبية التي لا يفتحها الا قدوم الربيع ، حتى اذا كان في مقدور الله لنا أن نعود وجدناها سالمة غير منقوصة

هبطنا فوق ربوة ذات قرار جلَّه النبات وجمَّه الشجر ، ثم انحدرنا منها الى مسيل مزبد ، يمدد شلال هادر ، أقيم على جانبه ضريح صغير لفتاة تدعى (بروك) ، تردت فيه منذ سنين فحملها السيل الجارف الى مغارة ، ثم أظهر الموج بعد طويل ثوبها الابيض ، فدل الناس على جسمها فأخرجوه ودفنوه . جلسنا طويلا أمام هذا الضريح المبلل والقلب واجف ، والدمع واكف ، نفكر في قيمة هذه السداة المهشمة التي تذهب بها زلَّة فوق الحجر الأملس ! . ثم غادرنا هذا الشلال صامتين الى جهة البحيرة ، وكان الواقف تحت قصر (سنت إنوسان) يأخذ بنظره عرض الماء وجمَّته . فلما بلغناه تركنا البغال ترعى في الغابة تحت نظر الغلمان ، وسرنا راجلين وحدنا تحت أدواح من السنديان تتخللها مزارع الطماطم ، وكانت حينئذ موحشة مقفرة ، أما الآن فقد عاد إليها

أحد أبنائها من طلاب الرزق في الهند فابتنى بها دارا جميلة ، وخطط فيها حدائق بهيجة . فتقدمنا متنقلين من سرحة الى سرحة ، ومن رحبة الى رحبة ، حتى بلغنا طرف اللسان الداخل في البحيرة ، ورأينا بريق لألأئها ، وسمعنا اصطفاق مائها . وكان في أقصى هذا اللسان الأرضى صخور من الحجر الصوان الأغبر تخضل كلما طنى الماء عليها ، وتجف وتلمع كلما انحسر عنها . فجلس كل منا على صخرة من هذه الصخور ، وقُبلتتنا على العدوّة الأخرى من البحيرة دير المتهكّب يبدو للعيون أسود اللون هرمى الشكل ، وعلى مقربة من مشارفه السود نكتة بيضاء هي منزل الصياد الذى ألقانا به الموج ليتحد قلبانا على طول الأبد . فرأيت جوليا تمد ذراعها وتشير باصبعها الى هذه النقطة البيضاء وقد كاد يحجبها البعد وتخفيها ظلال الشاطئ وهى تقول : « لقد كان ذلك هناك !! » ثم عقت على هذه الجملة تقول بصوت مؤثر ولهجة حزينة : « ألا يمكن أن يأتى زمان ويوجد مكان تصبح فيهما ذكرى هذه الساعات التى قضيناها هناك مطموسة لطول المهد فى خاطرك ، طموس هذه النكتة البيضاء لطول البعد فى ناظرك ؟ » فقطع هذا السؤال المريب حشائى ، وزاد فى مخاوفى وجواى ، وأخذ على سبيل القول فصمت اللسان ونطق الدمع ، فحاولت أن أستمر مدامى بأصابعى ،

وأن أواجه مهب الريح لتجفف ما بدر منها ، ولكنها رأتها ،
فأقبلت على بلبها ، وأظهرت الى رقة قلبها ، وقالت : كلا يارفاثيل !
انك لن تنساني ، وأنا أستيقن ذلك وأحسه . ولكن الحب قصير
والحياة بطيئة . انك ستعمر بعدى طويلا ، وستذوق حلو الحياة
ومرها ، وستبلو خيرها وشرها ، وسيتقلب على عينيك ما يتقلب
على عيون الرجال من سعودها ونحسها ، ونعيمها وبؤسها ،
وستكون في الرغبة الواحدة من رغائبك من روح الأمل والقوة
ما يكفي الوفاً من الأحياء ، وستعيش ممتعاً بكل ما يشتمل عليه
معنى الحياة من نشاط ونفوذ وقوة . أما أنا » ثم توقفت
قليلا ورفعت يديها وعينها الى السماء ، ثم نكست بصرها فعلم من
يحمد الله ويشكره وقالت : « أما أنا فقد عشت عشت ما
يكفيني ويرضيني منذ تنسمت وتزودت أرج نفسك الحبيبة ، وهي
وحدها التي كنت أنتظرها على هذه الأرض ، وهي التي ستقويني
حتى على الموت الذي أنقذتني منه وغلبته على سأموت
في وفرة الشباب وزهرة العمر ، ولكني يوم أموت لا آسو على
فائت ولا آسف على آتٍ ، لأنني استغرقت في نفس واحد من
الحياة ما لا تستطيع أنت ان تستنشقه قبل أن يأخذ المشيب
بوفر تلك الجميلة الفاحمة ، فتصبح في بياض هذا الزبد الراغى تحت

قديمك . ان هذه السماء وذلك الساحل وتلك البحيرة وأولئك الجبال كن مسرحاً لحياتي الحقيقية في هذا العالم ، فأقسم لى أنك تمزج هذه الأشياء بذكرى فى ذهنك ، وأن تدوم صورة هذا المكان مع صورتى فى نفسك ، وأن تظل هذه الطبيعة فى عينك مادمت أنا فى قلبك ، حتى اذا عدت بعد أيام طويلة الى هذا البلد تستمتع بهذه الطبيعة الجميلة ، وتجول تحت هذه الأشجار الظليلة ، وتجلس فوق هذه الشواطىء الوعرة ، وتتسمع جرجرة هذه الأمواج الهادرة ، تكون قد رأيتنى وسمعتنى أنا كذلك موجودة مشهودة محبوبة كما ترى هذه الأشياء وتسمعها « ثم أدركها الجزع فعيت عن متابعة الحديث ، واستخرطت هى أيضاً فى البكاء ، فتصبب الدمع حتى أخضل الثياب ، وبلل النجور ، وخدد صفحة الماء الراقد ، وحتى اختلط نحيبنا ونشيجنا بانحجاب الموج على الساحل الرمل . وأقسم ما أصف الآن هذه الحال وقد أتى عليها عشرون حولاً الا وأنا أبكيها أحر بكاء . أيها المحبون ! لا تجزعوا على عواطفكم ، ولا تخشوا أن يعصف بها الزمن ، أو يعدو عليها البلى ، فليس للدوى القوى يملأ الذاكرة أمس ولا غد ، انما له اليوم الحاضر والوجود المستمر . ولا تظنوا أن من ينقطع شعوره قد شعر حقيقة من قبل . ان لكل امرئ ذاكرتين : ذاكرة الحس

وهى تبلى كما يبلى الحس ، ويذهب ما فيها ذهاب الأمس ؛ وذاكرة النفس ، وهذه لا تعهد النسيان ولا تعرف الزمان ، فنظرها الى الماضى والحاضر سواء ، وادراكها للقريب والبعيد كفاء ، ولها ما للنفس من الخلؤل فى كل مكان ، والبقاء على طول الزمان ، والعموم الذى لا يقيده ظرف ، ولا يحدده وصف . فسكنوا روعكم أيها المحبون ، واعلموا أن سلطان الزمن على ساعاتكم وأيامكم ، لا على نفوسكم وأحلامكم !

٤٠

حاولت الكلام نغاني المنطق ، والتأت على القول ، فرددت عليها بزفرائى ، وأقسمت لها بعبرائى . ثم قننا فلجقنا بالمُكارين وعدنا والشمس فى الطَّفَل من طريق الحور التى سلكنها ليلة أُنْبا من منزل الصياد وهى فى المحفة وأنا بجانبها أسير على قدمي ويداي فى يديها طول الطريق . فلما بلغنا الضاحية الكبيرة التى بظاهر المدينة وأجزنا الساحة واخترقنا الشارع الصاعد الى اكس بدت وجوه كاسفة حزينة من شبايك المنازل وأعتاب الأبواب تلقى علينا السلام كما تلقى القلوب الرقيقة على زوج من السنونو تعوّق عن الرحيل مع سربه . ووقف النساء المساكين اللائى كن يغزلن جالسات على مقاعد من

الحجر قريباً من بيوتهن ، وهرع الولدان الينا تاركين ما يسوقون
أمامهم من قطعان الشاء ورعائل الحُمُر ، وكلهم جاء ليوجه الى الفتاة
والى من يظنونه أخاها اما نظرة واما كلمة واما انحناء صامتة .
وهى جميلة فى كل عين ، حبيبة الى كل قلب ، خفيفة على كل نفس ،
فكأنها كانت الشماع الأخير من أشعة العام يرتد عن الوادى .
ولما ظهرنا على المدينة ترجلنا وصرفنا الغلمان ببغاهم ، ومازال من
يومنا الأخير بقية تضىء الثلوج الوردية التى تُقنع رأس الألب ،
فكرهنا أن نضيعها على أنفسنا بالدخول الى المدينة ، ومضينا وحدنا
نصعد فى طريق منجوتة تؤدى الى حديقة فوق بيت جميل يسمى
بيت الفارس . فلما وقفنا على سطح هذا المنزل استطاعت عيوننا
أن تجول حرة طليقة فى المدينة والبحيرة ، وفوق مضائق الرون
المجمعة ، وبساتين الكروم الموشعة ، ومناظر الألب الجميلة ، وجلسنا
فوق جذع مجندل على الأرض معتمدين بمرافقنا على سور هذا
السطح صامتين جامدين ننظر اما معاً واما متعاقبين الى الأماكن
المختلفة التى ملأناها فى ستة أسابيع بنظراتنا وخطواتنا وأحلامنا
وأفئاسنا ، حتى اذا انطفأ مصباح النهار فى هذه الأمكنة واحدا
بعد واحد ، ولم يبق الا بصيص من النور يلمع شمالاً فى حاشية الأفق ،
نهضنا واقفين دون مشاورة ولا مداولة ، وانصرفنا راجعين لتلفت

عشنا الى الورا كآن يدأخفة طردتنا من هذا الفردوس . ثم أخذت الطبيعة تطوى على أثرنا ما أقامته من زينة، وما اتخذته من زخرف ، احتفالا بسعادتنا واحتفاء بحبنا

٤١

رجعنا المنزل وقضيناها عشيّة كئيبة عابسة ، وتم الأمر بيننا على أن أصحب جوليا حتى تبلغ ليون . فلما آذنتنا الساعة بوهن الليل قت أنصرف لأترك لها ما بقى منه لتستريح فيه حتى الصباح . فشيعتنى الى الباب وتقدمت ففتحتة ثم قبات يدها وقلت لها : (الى الغد !) فلم ترد على . ولكنى سمعتها تغغم قائلة وهى تنتحب خلف الباب : « هيهات ! لم يبق لنا من غد ! » بلى ! قد بقى لنا فى صحيفة الزمن أيام ، ولكنها قصيرة مرة كأنها النطفة الأخيرة من كأس فارغة !

رحلنا قبل أن يخلع الصباح ثوب الغلس الى شميمى حتى لا يظهر الناس منا على خدود أذواها الأرق ، وعيون قرحها البكاء . وقضينا سحابة ذلك اليوم فى فندق من فنادق هذا البلد . وكان لهذا الفندق شاذرّوان من الخشب يشرف على حديقة يجرى وسطها نهر صغير ، فألقى فى روعنا بضع ساعات أخرى أننا لا نزال

على صلة بمسكننا في اكس وما يتصل به من ظلال وسكون وعزلة

٤٢

وَدَدْنَا قَبْلَ أَنْ نَغَادِرَ شَمِيرِي وَوَادِيهَا الْعَزِيزَ أَنْ نَزُورَ مَعًا
مَنْزَلَ جَانِ چَاكْ رُوسُو وَالسَّيِّدَةِ دَقْرَنْسَ فِي شَرْمِيتَ . وَمَا الرَّبَّعُ
إِلَّا رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ . وَالِدَارُ لَوْلَا سَاكِنُوهَا بِنَاءٌ ، وَالْأَرْضُ لَوْلَا
عَامِرُوهَا خَلَاءٌ . فَمَا قُسْكَوْزُ لَوْلَا بَرَارُكْ ؟ وَشَوَارَنْتْ لَوْلَا تَاسْ ؟
وَصَقْلِيَّةُ لَوْلَا رَتِيوَكْرِيْتْ ؟ وَبَرَّاكْلِيَّةُ لَوْلَا هَلْبُووِزْ ؟ وَأَيْنِسِي لَوْلَا
دَقْرَنْسْ ؟ وَشَمِيرِي لَوْلَا جَانِ چَاكْ رُوسُو ؟ هَلْ تَكُونُ هَذِهِ الْبَقَاعُ
مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ ، الْأَسْمَاءُ مِنْ غَيْرِ أَضْوَاءَ ، وَأَصْوَاتًا مِنْ غَيْرِ أَصْدَاءَ ،
وَمَسَاكِنَ مِنْ غَيْرِ أَحْيَاءَ ؟ إِنْ الْإِنْسَانُ لَا يُؤْثِرُ فِي الْإِنْسَانِ وَحْدَهُ ،
وَأَمَّا يُؤْثِرُ فِي الطَّبِيعَةِ كَذَلِكَ . فَهِيَ تَحْمِلُ مَعَهُ خُلُودًا فِي السَّمَاءِ ، وَيَتْرَكُ
بَعْدَهُ خُلُودًا فِي الْأَرْضِ ، تَحْسَهُ فِيمَا عَالِشَ مِنْ قَوْمٍ ، وَزَاوَلَ مِنْ عَمَلٍ ،
وَلَا بَسَ مِنْ رُبُوعٍ ؛ فَإِذَا مَا وَجَدْتَ آثَارَهُ فَقَدْ وَجَدْتَهُ ، أَوْ زَرْتِ دِيَارَهُ
فَكَأَنَّكَ زَرْتَهُ . ذَهَبْنَا نَزُورُ هَذَا الْمَكَانَ وَمَعْنَا كِتَابِ الْإِعْتِرَافَاتِ
الَّذِي وَصَفَ فِيهِ شَاعِرُ شَرْمِيتِ هَذِهِ الْأَرْبَاضَ الرَّيْفِيَّةَ أَجْمَلَ وَصَفَ .
وَكَانَ هَذَا الْمَكَانَ أَوَّلَ مَلْجَأٍ لَأَوْنِي غُرَفَاتِ رُوسُو فِي خُضْمِ الْحَيَاةِ ،
أَلْقَتْ بِهِ أَمْوَاجُ الْقَدَرِ بَيْنَ ذِرَاعِي امْرَأَةٍ فَنِيَّةٍ جَمِيلَةٍ مَخَاطَرَةٌ ارْتَطَمَتْ

بها سفينة الحظ مثله فانتشلتة . وكأنا صيغت هذه المرأة عن قصد من الفضيلة والذيلة والحياء والوقاحة والركة والقسوة لتُسبِل على حداثة هذا العبرى الشاذ الذى تجمعت فى نفسه المتناقضة صفات الحكيم والحبيب والفيلسوف والفقيه والأحمق . فلو قِض له الله امرأة أخرى لكان من الممكن أن تصوغ منه رجلاً آخر . فان أثر الحبيبة الأولى فى حياة الحب من أقوى الآثار وأبقاها

فما أسعد من عرف السيدة دفرنس قبل رجسها وتبدل نفسها ، فقد كانت صنما تهوى اليه الأفئدة ، فما زالت الأرجاس تتعاوره حتى تدنس ، واستجالت العبادة التى كانت تؤديها إليها تلك النفس الطاهرة الوامقة الى حقارة وضعة . وماحب هذا الفتى وهذه المرأة الا صفحة من (دقنس وكلويه) انتزعت من الكتاب ثم وُجدت ملطخة مدنسة على فراش عاهرة

وعلى أية حال لقد كان حبها الغرام الأول لهذا الشاب الجميل ، وبيتها منبت هذا الغرام ومثابته ، كان فيه العريش الذى نشأت فيه أوائل اعترافاته ، والغرفة التى خجل فيها من أولى علاقاته ، والفناء الذى كان يتمجد بالاسفاف فيه الى أحقر الأعمال البدنية خدمة لحبيبتة ونصيرته ، وأشجار القسطل المتفرقة التى كان يجلس فى فيئها الحبيبان يتحدثان عن الله ، ويقطعان سياق هذا الحديث اللاهوتى الفرح

بالضحكات الجنونية والمداعبات الطفلية . وكانت صورتاهما مطبوعتين في كل هذه المشاهد المونقة الريفية ، ممزجتين بهذه الطبيعة الموحشة الخفية . وللشعراء والحكماء والأخلاء الى كل ذلك انجذاب قوى وميل شديد . فأما الشعراء فلأنها الصفحة الأولى من نفس هى فى مجموعها قصيد ونشيد ، وأما الحكماء فلأنها مهد ثورة ومسرح تجديد ، وأما الأخلاء فلأنها عش لأول حب ومهد لأول عاطفة !

٤٣

كنا نصعد ونحن نتحدث عن هذا الحب فى طريق مُحَصَّب يخوض فى جوف وادٍ يؤدي الى شرميت ، وكنا نسير وحدنا لانحس من أجد ولا نسمع من صوت ، حتى رعاة المعز غادروا السهول بعد أن تركوا المروج جديبة ، والأسوجة سليبية . وكانت الشمس تضىء من خلال الغمام الجهام فتتجمع أشعتها فى جوف الوادى فيشتد حره ، والعصافير المطوقة تثب فى الأدغال تحت أيدينا وهى آمنة . وكنا نقف الحين بعد الحين فنجلس على مصرف من مصارف الماء لنقرأ صفحة أو صفحتين من كتاب الاعترافات؛ ولنتحدث بحسب ما ونفوسنا مع هذا المكان ؛ قرأنا الأفاق الشاب فى أطماره البالية يقرع باب أنيسى ويلقى كتاب التوصية فى حياء وخجل

الى الغادة المعتكفة وهي فى الطريق المقفرة بين قصرها والكنيسة .
 وكان الفتى والفتاة ماثلين لعيوننا ، حاضرين فى قلوبنا ، حتى ليخيل الى
 أنهما يسمعا ننا ، وأننا سنراهما عما قليل فى الشباك أو على مماشى
 الحديقة بشرميت . ثم نهض فلا نكاد نعاود السير حتى نعاود
 الوقوف ، كأنا فى كل مكان عاملان أحدهما يجذب والآخر يدفع .
 وكأنا فى المكان الواحد كانت قداسة هذه الحب ونجاسته . ولكن
 حبنا والله الحمد بنجوة من هذا الخطر ، فنستطيع أن نتخيله ونتمثله
 كما حملناه فى قلوبنا نقى الصفحة نزيه الغرض لا يقرف بسوء ولا
 يحاط بشبهة

ثم قلت فى نفسى : آه لو كنت أنا روسو وكانت جوليا
 دفرنس فماذا كان تأثيرها فى ، وسلطانها على ، وهى أسمى من فتاة
 شرميت ، وأنا أدنى من روسو فى الذكاء وإن كنت أدانيه
 فى الحساسة ؟ !

وكنا اذ ذاك قد علونا وراقاً^(١) من الأرض شديد الانحدار
 والتعرج ، تتخلله أشجار من الجوز قديمة العهد كاد يلبسها مرور الزمن .
 وهذه الشجرات شهدت ههنا الحبيبين ورأتهما يلعبان معاً فوق
 جذورها . ورأينا على اليمين فى الموضع الذى ضاق فيه الشعب حتى

كاد جانباه يتماسان شرفاً من الحجارة الوعرة المتنافرة يقوم عليه منزل السيدة دثرنس ، وهو مكعب من الحجارة الغبر ينفذ فيه من جهة الشرف باب وشباك كان ومثلهما من جهة البستان ، ومن فوق ذلك ثلاث حجرات واطئة وردهة كبيرة على سواء الأرض ، وليس فيه من الرياش الا صورة للسيدة دثرنس وهي في وفرة شبابها ، ولا يزال محياها الوسيم الضاحك يشع الجمال والخيال والفرح من خلال الغبار الغاشي على الصورة . مسكينة هذه المرأة الفاتنة ! لو لم تصادف هذا الصبي الشرير فأمنت سربه ، وفرجت كربه ، وفتحت له بيتها وقلبها لانطفأت في الوحل والقذر عبقرية قريحته الحساسة المعذبة . وقد يُظن أن هذه المقابلة جاءت عرضاً من طريق المصادفة ، ولكنها حظ هذا الرجل العظيم كتبه الله منذ الأزل على وجه خليلته الأولى فأتمته وثقفته وحمسته بالخلوة والحرية والحب . فكان أثرها فيه كأثر الحور العين على رأى المشاركة في نفوس المؤمنين ، اذ يسمو بهم طمعهم في اللذة الى مقام الصديقين والشهداء . ثم جعلت منه خيلة قوية مفكرة ، ونفساً نسيئة مؤثرة ، ولهجة حنونة رقيقة ، وميلاً شديداً للطبيعة ، ووصلت نفسها الشاعرة بنفسه ، فغيرت من طباعه وحسه ، وأعطته العالم فقلبها بالكمران والجحود ، ومنحته الجهد فجازاها بالمضيحة والسبحة . ولكن الأعداء

يجب ان يكونوا أشكر للنعمة ، وأرعى للجرمة ، وأولى من اغتفر لها ذلك الضعف الذى خلق لنا نبي الحرية . على ان روسو حينما آثر العوراء على الغيناء فكتب ما كتب عمن أشبلت عليه وأحسنه اليه لم يكن روسو ، وانما كان ذلك المأفون الأحمق . ومن يدرى ؟ لغل التصور المريض المضطرب الذى خيل اليه أن الصنيعة اهانة والمحبة كراهة ، هو الذى أوهمه ان المرأة الحساسة الشاعرة ، هى المرأة المهلكة الفاجرة ، وان الغرام والصراحة ، هما السفاهة والوقاحة . لقد خامرنى فى أمره الريب ، وحركت فى صدرى هذه التهمة ، وانى أتحدى ذوى الدراية بالمنطق والبصر بالكلام أن يحلوا هذه الصورة الغريبة التى صور بها روسو حبيبته ، ويعللوا هذه العناصر المتناقضة المتعارضة التى جمعها فيها وخلقها منها . . ألا يجدونها متنافرة متناكرة يدفع آخرها أولها ؟ لو أنها عاشقة مخلصه لروسو لما أشركت به (كلود أنيت) فأحلتها معه قلبها ، وقسمت بينهما حبها ، ولو أنها كانت حريصة عليهما مؤثرة لهما ، لما هويت الغلام البغائى ، ولو أنها كانت تقية فاضلة لما تمدحت برذائلها وتبجحت بمخازيها ، ولو أنها كانت جميلة فتانة سهلة كما وصفها روسو لما بلغها الأمر أن تنشد هوائها وعبادها بين الصعاليك والأفاكين على قوارع الطرق وأفواه الشوارع ، ولو كانت حياتها تصنعاً وتخلقاً لكانت امرأة مال وصنيعة

نفاق ؛ ولو كانت مداجية منافقة لما كانت هي المرأة الحرة الصريحة المطبوعة التي تجدها في اعترافاته . كلا ليست هذه الصورة صحيحة ، وإنما هي رأس وقلب رسمتهما يد عابثة لاعبة . ولا بد أن يكون لهذا الامر سر ، وربما كان هذا السر في اليد الضالة التي صوّرت ، لا في طبيعة المرأة التي صوّرت ، فلا ينبغي ان تهم المصور الذي خل ميزانه وضل حكمه ، ولا أن نصدق الصورة التي شوّهت خلقه جميلة ، وكرهت نفساً نبيلاً ، بعد أن رسمتها وحسنها . . . أما أنا فأم يصح في اعتقادي مطلقاً أن السيدة دفرنس تتمثل في هذه الصفحات المريبة المبهمة التي كتبها روسو في هزال الشيخوخة وضلال الكبير ، وإنما كنت أتمثلها دائماً في خاطري كما بدت للشاعر الشاب في أنيسي جميلة حساسة رقيقة فيها شيء من النزق والمجون على عفاف نفس وورع قلب ، مسرفة في الطيبة ، ظمأى من الحب ، متحرقة الى أن تجمع بين عاطفتي الأمومة والعشق في علاقتها بهذا الطفل الذي ساقته اليها المقادير ، فوجدت فيه بغية قلبها وحاجة هواها . هذه هي الصورة الصحيحة صورتها كما سمعتها من أفواه العجائز والشيخوخ في شميرى وأنيسي رواية عن آبائهم

ان روسو ليحمل في نفسه الشهادة على ظلمه واجرامه . والا فمن أين له هذه الشفقة السامية الحنون ، وهذا الانقباض المؤث

المحتشم ، وهذه الحساسة الرقيقة الصافية ، اذا لم يكن استمدها من قلب امرأة ؟ كلا ان المرأة التى خلقت مثل هذا الرجل ما كانت وقحة ولا فاجرة ، وانما كانت هيلوينز ساقطة . وما كان سقوطها فى رذغة الفحش ولا فى سفالة الخلق ، وانما كانت فى لجة الهوى والصباية

٤٤

جاءت البستانية فأوقدت لنا فى غرفة السيدة دثرانس ناراً وتركنا نصطليها ومضت لعمليها فى المطبخ والفناء دون ان تحذرننا أو تشغل بنا ، لانها تعودت ان ترى الأجانب فى هذه الدار وأن تسمع أحاديثهم الطويلة عن هذا المسرح الذى شهد السنين الأولى لهذا النابغة النابه . ثم قمنا نحن فتنقلنا أحراراً من الردهة الى الحديقة ومن الحديقة الى الغرف . وكانت الحديقة يهوى مغمورة بالشمس عارية من العشب والبقل كاسية بالنبات الطفيف أشبه بمقابر القرى يأتها الفلاحون أيام الآحاد فيجلسون تحت جدران الكنيسة يضحون للشمس وأرجلهم على قبور الموتى . ترى ممشيها بعد ان كانت فى عهدنا الأول مفروشة بالرمل محصوبة بالحصى قد كساها التراب الندى وغشاها النجيل الأصفر . وما كان أشوقنا الى أن نكشف

عن آثار أقدام السيدة في العهد الذي كانت تنقل فيه من شجرة الى شجرة ومن كرمة الى كرمة ، وفي يدها مقطف تجنى فيه الكمثرى من البستان أو العنب من الكرم ، وبجانبا ذلك التلميذ أو المعترف تطير معه في الروض طائشة كما يطير الفراش أو يطيش الظليم . على أنه لم يبق من أثرهما في بيتيهما غير نفسيهما . فكانت اسماهما ، وذكراهما ، وصورتهما ، والشمس التي رآها ولا تزال تشعُّ بشبابهما ، والهواء الذي نشقاه ولا يزال دافئاً بأنفاسهما رناناً بأصواتهما ، كل ذلك كان يغمرنا بما كان يغمر به ربوعهما ويبهج ربيعهما من نور ونفَس وحركة . وكنت أرى من سحنة جوليا المفكرة وصمتها الناطق ان هذا المعبد معبد الحب والعبقرية قد فعل في قلبها مافعله في قلبي من الأثر القوي والتفكير البالغ . وقد حاولت الفرار مني لتخلو الى نفسها ، وتستسلم الى أفكارها وحسها ، فتركنتي في الحديقة وعادت هي الى البيت تريد ان تستدفئ . فاما لحقت بها هناك انقلبت الى الحديقة ، جلست على مقعد حجرى في الجوسق فتبعتها اليه . وكان ما تحلف من الأوراق الذائبة المصفرة على عسليلج الكرم لا يستطيع حجب الشمس عن هذا الجوسق فنام فيه الضوء وتمدد . ثم قلت لها بلهجة العاتب الخائى : ما هذا الذى شغلك فأردت أن تفكرى فيه من دونى ؟

فقلت : وأأسفاه ! وهل أستطيع أن أفكر وحدي ؟ انى أقول
لنفسى : ليتنى كنت لك فصلاً واحداً من الدهر كما كانت السيدة
دفرنس لروسو، حتى ولو قضيت مثلها بقية أيامى فى القطيعة والمنقصة ،
وكننت أنت مثله كافراً بالمعروف رامياً بالهم ! ما كان أسعد قلبها
وأرغد عيشها ! لقد استطاعت ان تضجى بنفسها فى سبيل من
أحبت ! فقلت لها وقد عدت بها الى البيت : ما هذا الكفران
والنقصان اللذان تصمان بهما نفسك وحبك ؟ هل بدرت منى
اليك لفتة أو لحظة تهمين منها أن هنائى مشوب وأن سعادتى
منقوصة ؟ لم لا تصور خاطرك الطاهر أن يكون لهذا الذى
تشبهينه بروسو حبيبة أخرى فتية نقية عذراء تقدم اليه نفسها
لاجسمها ، وتفتح له قلبها لاييتها ، وتبسط له انقباض الحياة ،
وتنير أمامه ظلام الوجود ، وتطهره من رجس الهوى بنار الحب ،
وتغسله من دنس الشهوة بدموع الألم ، وتعلمه أن لذة الحب فى التأمل
والحرمان أبلغ منها فى التبذل والمنح ، وتدفعه الى المجد والفضيلة
والايثار بحملها اياه على أن يعتقد أن هذه الخلال قبس من الحب ،
وهى كلها مدد ليكنز الجنان الذى يمتلىء فى الأرض ليفتح فى السماء ؟
وأدركنى الخور والاعياء من التأثر فتطرحت بعيداً عنها على كرسى
واعتمدت وجهى بيدي ولبثت طويلاً لا أتكلم . فقلت لى : هلم

فانى أحس البرد وهذا المكان لا يلائمنا . . فأعطينا المرأة شيئاً من النقود وخرجنا فأخذنا الطريق الى شميرى

٤٥

كانت جوليا قد اعتزمت الرحيل بكرة الغد الى ليون ، وكان لويس قد جاء ليلة السفر يزورنا فى الفندق . فحملته على أن يسافر معى بضعة أسابيع فى بيت أبى . وكان موقع هذا البيت على الطريق بين ليون وباريس . وخرجنا معاً نبحث عند السراجين فى شميرى عن مركبة صغيرة مكشوفة تقلنا ، ثم نستطيع ونحن على مقعدها أن نتبع بالنظر مركبة صاحبتى حتى البلد الذى يدهمنا التفرق فيه . فظفرنا بما كنا نبحث . ولم يكد الفجربزغ حتى كانت الخيول تعدو بالمركبتين فى المضائق المتعرجة من سقوا . وكلما بلغنا مرحلة نزلنا فسألنا عن حال المريضة . واحسرتاه عليها ! لقد كانت كل دورة من عجلة المركبة تقصيصها عن منبع الحياة الذى وجدته فى سقوا ، وتجنّف ما ترقرق من ماء الشباب فى وجهها ، وترد الى محاجرها وملاصيحها ذلك النحول الكاسف وتلك الحمى الباردة التى أثرت فى ونالت منى يوم لقيتها لأول مرة . ولما وردنا برج الصنوبر من طريق ليون صعدنا اليها فى مركبتها نهوّن عليها ونسليها ، ورجوت منها أن تغنى

لصديقي أغنية الملاح الايقوسى ، فغنتها إطاعة لى ، ولكنها لم تكذب
تبدأ المقطوعة الثانية التى تذكر فراق الحبيبين حتى تمثلت فيها
موقفينا، ووجدتها تعبر عن حالينا، فخافنا الصبر ورهقها الجزع وانهدت
مدامعنا ومدامعها انهلال القطر ، فسدت على وجهها شالا أسود ،
ورأيتها تنتحب من خلاله طويلا ، حتى بلغنا المرحلة الأخيرة
فأصابها غشية شديدة دامت الى ان وقفنا على باب الفندق .
فساعدتنا خادمة الخاف على حملها الى سريرها ولزمتها حتى المساء
فاستفاقت . وفى صباح اليوم التالى تابعنا المسير الى (ما كون)

٤٦

وفى هذا البلد حُم الفراق ودنت روعة البين ، فزودنا سائقها
بنصائح ضرورية ووصايا لازمة . واختصرنا التوديع مخافة أن يهيج
أشجانها ويزيد آلامها كما يسرع الجراح فى شق الجرح اتقاء لصيحة
المجروح . ومضى صاحبي الى ضيعة أبى وتخلفت عنه لألحق به .
على أن لويس لم يكذب يغادر ما كون حتى وجدتني فى حالة لا أستطيع
معه البر بما وعدته ، ولا الصدق فيما قلته . فقد وقع فى فكركى انى
اذا تركت جوليا تقطع هذه الشقة البعيدة فى فصل الشتاء شاكية
باكية لا يعنى بها ولا يقوم بأمرها غير خادمين ، أدركها المرض أو

عاجلها الموت وهى وحدها فى خان أو فى أى مكان تذكرنى ولا أدرى ، وتدعونى ولا أجيب ، فعدلت عن السفر وقررت فى نفسى أن أسايرها على بُعد فاسهر عليها وأرعاها ، حتى تبلغ مأمنها ومأواها . ولكن يدى من المال صفر ، والشيخ الطيب الذى أقرضنى الخمسة والعشرين ديناراً زاره الموت فى غيبتى . نخلعت ساعتى وسلسلتها الذهبية من صدرى ، وسيفى من عاتقى ، وطرأى من سيفى ، وشرائطى الفضية من حلقى ، وجمعت هذا كله فى معطفى وذهبت به الى جوهرى أمى فبعته منه بخمسة وثلاثين ديناراً ومضيت مسرعاً الى الفندق الذى نزلت فيه جوليا ، ودعوت سائق مركبتها وقلت له انى مسارك من بعد حتى تبلغ أبواب باريس ، ولكن لا أريد أن تقطن سيدتك الى ذلك مخافة أن تحول بينى وبينه . ثم استفهمته عن أسماء المدن والفنادق التى سيقف بها أو ينزل فيها حتى أنزل بنزولهم وأرحل برحيلهم . ثم أجزلت له المكافأة مقدماً على حصانة صدره وصيانة سره ، ومضيت فاحتجزت لى خيلاً من البريد وقت على أثرها بعد سفرها بنصف ساعة

أمامي كلما مر بمحطة يسر الى عمال البريد أن مركبة من ورائه توشك أن تصل وهي تحتاج الى جوادين ، فيعدونهما وينتظرونني بهما حتى أصل فأشدهما ، ثم أتابع السير مسرعا مرة ومببطئا أخرى تبعاً لما أريد من البعد أو القرب من المركبة الحبيبة . فإذا ما علوت شرفاً من الارض أبصرت بها تدرج على جَدَد السهل في أطباق الضباب أو في ضوء الشمس حاملة سعادة نفسى ونعيم حياتى ، فيسبق فكركى اليها عَدُو الجوادين ويغشاها في المركبة فإذا هي راقدة تحلم بى ، أو يقظانة تبكى أيامنا الخالية وهنأنا الراحل . ولا أستطيع أن أعلل الآن كيف تسنى لى أن أغالب شعورى ، واكظم على ما فى نفسى من النزوع والثوب مسافة عشرين ومائة فرسخ ، فلم أقنح الطريق إلى المركبة التى أقلت هواى ، وتجمع فيها منأى ، وتعلقت بهاروحى ، تاركة جسمى يهيم وراءها غير عابئ بما يصدمه من هزات العجلات ، ويؤلمه من سفعات الجليد ! ولكن خوفي عليها من أثر اللقاء المفاجئ ، وتجديد موقف الوداع المؤلم ، ورغبتى فى أن أقوم على حراستها ، وأسهر على سلامتها ، بعين العاشق النزيه حبس عنأنى وقطع على وجهى نزلت للمرة الأولى فى فندق أوتين الكبير ، ونزلت أنا فى خان الضاحية على مقربة منه . فبتنا ، وقبل أن يتنفس الصبح كانت المركبتان تكررآن على الطريق خلال السهوب المغبرة ، أويين غياض

السنديان العتيقة من عُليا بورجونيا . ثم وقفنا بدسكرة أقالون ،
 هى فى قلبها وأنا فى طرفها . وفى غد ذلك اليوم أخذنا الطريق الى
 سنس . وكان ماركنته ريح الشمال من الثلج حول الهضاب الوعرة الشم
 (من لوسى لبوا) و(فرماتون) قد أخذ يساقط كُبباً منجلة على الجبال
 والطرق ، فأخفت صوت العجلات ، وأصبح مما يشق على العيون
 أن تميز الأفق المُضَبّ من زرور الثلج الذى تعصف به الريح فوق
 الأرض ، فاستحال على حينئذ أن أقيس المسافة بين المركبتين بالسمع
 والبصر . وبينما أنا كذلك اذ بصرت فجأة بمركبة جوليا واقفة أمام
 جوادى فى وسط الطريق ، والسائق قائماً على ساهها ينسأدى بالويل
 والجزع ، ويبدى حركات الحزن والهلع ، فوثبت الى الأرض وطرت
 الى المركبة ودخلتها فاذا هى مغنى عليها من أثر الكلال وتغير الجو
 وروعة البين ، ووصيفتها تحاول تنبيهها فلا تنبهه ، فأخذت بين يديّ
 رأسها الحبيب ساعة طويلة من الزمن كانت هى فى غيبوبة الحس ،
 وأخذت الوصيفة بتقديمها ووضعتهما على ركبتها ، وطفقت تفرهما
 وتضمهما الى صدرها ، وذهب السائق الى الاكواخ البعيدة يقتبس
 منها ناراً ، أو يلتمس منها ماء ساخناً ، وأنا فى أثناء ذلك يتتابنى من
 الشهور المختلف بين الرغبة فى أن تعرفنى ، والرغبة فى أن تجهلنى ، ما
 لا يدركه ولا يعبر عنه الا من اقتتل الموت والحياة على قلبه . وكانت

نتيجة هذه العناية الرؤوف والعلاج المنعش أن دبّت في جسمها الحرارة ، وانتشرت في وجنتيها الحمرة ، وانفجرت شفتاها عن تنفس طويل خافت . فعلمت أنها تستفيق ، فوثبت خارج المركبة حتى لا يقع بصرها على اذا ما فتحت عينيها ، ووقفت الى جانب العجلة قليلا وقد سترت وجهي بمعطفى ، وأوصيت الخادمين أن يخفيا عنها وجودى . فأشارا الىّ أن السيدة قد عادت الى نفسها ؛ وسمعتها تقول وكأنها تحلم : « آه لو كان رفائيل حاضراً ! لقد أحسست رفائيل بجاني ! » فصعدت مركبتى وانطلقت الخيول تعدو حتى وقفت بنا فى « سِنْسَ » . وهناك فى العشية سألت عن حالها فقبل لى : انها الليلة أصلح ، وهى الآن نائمة ملء عينيها . ثم تقصصت أثرها حتى « فوسار » وهى محطة للبريد قريبة من مدينة مونثرو . وفى هذا الموضع ينشعب طريق سنس الى باريس شعبتين احدهما تمر بِقُنْتِنَبِلُو والاخرى بِمِيلِن ، وهذه الشعبة أقصر من تلك بيضعة فراسخ ، فأخذتها حتى أسبق جوليا الى باريس فأستطيع أن أراها وهى تنزل من المركبة أمام بيتها . وضاعفت الأجر لساقية البريد فأدخلوني باريس قبل دخول الليل بوقت طويل . فنزلت بالفندق الذى اعتدت النزول به . ولما غشى الليل ذهبت فكلمت على رصف من أرصاف السين إزاء بيتها وقد كنت عرفته من طول ما وصفته

لى فكأنما قضيت به ذاهب عمرى . اطلّعتُ فى داخل البيت فرأيت من خلال زجاجه ظلالا تذهب وتجيئ استعدادا لقدم الضيف العزيز ، ولحت فى غرفها سطوع نار الموقد فى سماءها ، وفى أحد الشبايك وجه شيخ يقترب فيرى الناس ويتسمع الى حركة الشارع ، ذلك كان زوجها وأباها . وكان البوابون قد تركوا الباب مفتوحا وهم بين آونة وأخرى يخرجون فينظرون ويسمعون أيضاً ، وأمام البيت مصباح قد عبث بضوئه هواء ديسمبر العاصف فهو ينشر نوره على البلاط ثم يطويه فى خمود وسرعة . ثم خرجت من أحد الشوارع مركبة من مركبات البريد وأقبلت تسرع حتى وقفت أمام ذلك المنزل . فبادرت الى ظل عمود هناك أمام البيت المجاور لبيتها فتسترت به ، ورأيت الخدم يستبقون باب المركبة ، وچوليا تنزل منها فى حضن الشيخ ، والشيخ يقبلها قبلات الوالد لولده بعد غياب طويل ، ورأيتها تصعد السلم متناقلة متطرحة تتحامل على ذراع الحاجب . وقفلت المركبة بعد تفرغها من المتاع راجعة ، وأغلق الباب وعدت الى محلى الأول بالقرب من حاجز النهر

لبثت طويلا أرقب شبايك بيتها وقد أضاءتها المصابيح ،

وحاولت أن أقف على ما يحدث داخل البيت فلم أر إلا الحركة العادية التي تعقب قدوم المسافر من حمل حقائب وفك صرر وترتيب أثاث . فلما همدت الحركة ووقف تنقل المصاييح من حجرة الى حجرة ، وانطفأ النور الا من غرفة الشيخ في الطابق الأول ، رأيت من خلال الزجاج قدها الأهيف الممشوق يرتسم ساكنا أسود على بياض الستور ، وبقيت ساعة على تلك الحال ، ثم فتحت الشباك على رغم البرد واطلعت لحظة في السنين من الجهة التي تليني ، كأنما ألهمها الحب أن تصوب نظرها الى . ثم استرجعت بصرها وأرسلته الى جهة الشمال فراقبت كوكبا كنا نديم النظر اليه معا واتفقنا على أن نجعله موعدا للقاء ، ومجتمع النجوى متى حُمَّ الفراق وشط المزار ، فيرقبه كلانا من جهته ، وتلتقى عنده روحانا في خلوة السماء الآمنة . رأيتها ترعى هذا الكوكب فكأنما لدع كبدي حجرة متقدمة ، وأقصد فؤادي سهم ناصل . ففهمت أن روحينا تلاقيا في مكان واحد واجتمعا في فكرة واحدة . فخل ذلك عرى عزمي ففقت كأنما نشطت من عقالي ، وعدوت حتى وقفت تحت نافذتها ، وناديتها بما يدها على أن أخاها تحت قدميها ، ولكنها في تلك اللحظة كانت تغلق الشباك ، وطني دروج المركبات على صوتي فأخفاه ، وانطفأ النور من أسفل البيت فوجت مكاني لا أتحرك ، حتى سمعت ساعة تعلن

انتصاف الليل فاقتربت من الباب وقبلته وأنا واجف القلب مرتهك
 المفصل . ثم جثوت على عتبة البيت وابتليت الى جدرانه أن
 تحفظ ما استودعتها من مهجة القلب ومنية النفس وأثمن الثنى ، ثم
 غادرت المكان والنفس هائجة والفؤاد زاهر

٤٩

وفي الصباح تركت باريس دون أن أعوج على أحد من أصحابي
 فيها . وكنت بذلك سعيد النفس راضى الضمير ، لأننى لم أنظر نظرة
 ولم أقل كلمة ولم أخط خطوة الا فى سبيلها . غير انى وضعت فى
 صندوق البريد قبل أن أغادر المدينة رسالة قصيرة الى جوليا تصلها
 عند هبوبها من النوم وما فيها غير هذه الكلمات : « لقد تبعتك
 من بعيد ، وكلاؤك بمعنى خفية ؛ ولم أستطع أن أفارقك قبل أن
 أراك فى حى الحانين عليك ، ورعاية الكلفين بك ؛ ولقد كنت
 هناك ساعة فتحت الشبابك عند منتصف الليل وتهدت وأنت
 تنظرين الى السكوكب . ولو كنتُ تكلمت لسمعت كلامى ؛ غير
 أنك تقرأين هذه السطور حينما أكون بعيداً عن باريس محمولا على
 جناح النوى الى البلد القصى ...

سرت النهار وسريت الليل ذاهب اللب ، مستطار القلب ،
 مشرد الفكر ، لا أحس البرد ، ولا أجِد الجوع ، ولا ألاحظ
 المسافة حتى بلغت (م) . . فكأنى صجوت من حلم ، وكأنى لم أذهب
 الى باريس . فوجدت صديقى لويس ينتظرنى فى ضيعة أبى ، فكان
 وجوده جلاء لقلبى من الهم ، وعزاء لنفسى من روعة اليبس ، اذ
 استطعت أن أناقله الحديث عن تلك التى أعجب بها ، وهام فى حبها ،
 كما أعجبت وهمت . كئنا ننام معا فى حجرة واحدة ، فكئنا نقطع
 صدور ليالينا بالحديث عن هذه الظاهرة الالهية والمخلوقة الفاتنة ،
 وكانت فى رأى لويس خلقا مما يكبر فى صدور النوابع ، ويسمو
 فوق الطبيعة ، أمثال بياتريس حبيبة دانتى ، وإلينور حبيبة تاس ،
 ولور حبيبة بترارك ، أو مثل فيتوريا كولونا التى جمعت بين الشعر
 والحب والبطولة ، وغير هؤلاء ممن هبطن الأرض وجزنها دوز أن
 يمسسها أو يقفن بها الارثما يقفن بعض العيون البصيرة ، ويسمين
 بعض القلوب الكبيرة ، ويوحين الى نفوس المصطفين الأخيار
 حقيقة الخلود ، وسر الوجود ، وطموح العظمة . على أن لويس لم
 يستطع أن يرفع حبه لها الى مستوى إعجابه بها ، لأن قلبه الرقيق

المدنف قد شغلته من زمن باكر فتاة يتيمة من أهله ، حلاها الله
بالجمال والأدب ، كما أخلاها من الأهل والنشب . وكان حديث قلبه
ومرآد أمانيه أن يتزوج منها ويعيش معها في هدوء العزلة ودعة
الخلول في بيت صغير على هضاب شميرى . ولكن الفاقة التي
هابضت جناح الحبيبين قعدت بهما عما ينبغيان ، فلم يتعديا حدود
الصدافة البائسة ضنا بأهلها على الخصاصة والعوز ، وإشفاقا
على أولادها من عاقبة الشقاء ووراثة البؤس . ولم يمض بضع سنين
حتى لحقت الفتاة برهبها مفجوعة بحبها ، فريسة للخذلان والوحدة ،
وعهدى بها أنضر زهرة في روض الحياة مسها الفقر والضر فصولها
وأذواها ، ورأى عيني^(١) وجهها تشرق فيه لمعة من أثر الشباب النضر ،
وتلوح عليه تلك السمة التي يطبعها الشقاء على الوجوه العروفة^(٢)
المحتسبة . وكان قد ذهب ضوء عينها قبل ذهاب حبيبها من فرط
الاستعمار وطول الانتظار في الأسى والشك . ولقد لقيتها مرة
وأنا عائد من ايطاليا تفودها اختها الصغيرة في شوارع شميرى .
فأما سمعت صوتى انكفا^(٣) لونها وانسرفت قواها ، وتحسست
بيدها شيئا تتحمل عليه مخافة السقوط . ثم قالت لى : عفواً ومعدرة ،

(١) أى كنت أرى وجهها دائما على هذه الحال . (٢) العروفة الصابرة

(٣) انكفاً لونها : تغير

إن ذلك حدث لأننى تعودت كلما سمعت هذا الصوت أن أسمع
بجانبه صوتاً آخر . وارتجته لك أيتها الفتاة ! انك تسمعين اليوم
صوت حبيبك فى السماء !

٥١

ما كان أطول الشهرين اللذين قضيتهما بعيداً عنها على الرغم منى
ومنها فى الضيعة أو فى المدينة انتظاراً لموعد اللقاء بها فى باريس !!
لقد استنفدت اثناء ثلاثة الأشهر المنصرمة كل ما رصد لى أبى من
مال ، وأمدتني به أمى من معونة ، واستعنت بمال أصحابى على اداء
القروض التى أُلجأتني الى عقدها السرف والميسر والأسفار ، فلم يعد
فى وسعى احتيال شئ من المال اتبلغ به الى باريس ، وأعيش عليه
هناك رديحاً من الزمن ولو فى ضيق وعزلة . فاضطرت الى انتظار
يناير . وهو موعد القسط الرابع من مرتبى الذى أجراه على أبى ،
والوقت الذى تعود فيه عمى الغنى الجامد ، وعمتى البرة الحازمة ، أن
يرضخا^(١) الى شيئاً من مالهما ، ورجوت أن يتجمع فى يدي من
هذه الموارد ستمائة فرنك أو ثمانمائة تمكّننى من الإقامة بباريس
بضعة شهور . ولم أعد أشعر بمض الغضاضة من عيش الكفاف

(١) رضح له : أعطاه قليلاً

لأن سعادة نفسى وراحة حياتى تجمعتا فى حى . فلو أنى مافى العالم من رزق ومال لبذلتته راضياً فى شراء لحظة من نهار أرجو أن أمضيها معها . ثم شغلت أيام الانتظار بالفكر فيها والكتابة إليها وفعلت هى كذلك . فكنا نجلس كل يوم بعد الهبوب من النوم كل فى غرفته يكتب الى الآخر فلا يمر يوم دون أن تتقابل رسائلنا وأفكارنا فى الطريق فتساءل وتتجاوب وتمتزج دون أن ينقطع سيلها أو تجم خيلها يوماً واحداً . فلم يكن فى الحقيقة بيننا غير فراق ساعات من المساء والليل . على أنى كنت أملاًها هى أيضاً بالنزوع إليها ، والتفكر فيها ، وأضرب حولى نطاقاً من رسائلها أنشرها على مكتبى ، وأثرها على سريرى ، وأحفظها عن ظهر قلب ، ثم أقرأ على نفسى منها الفقر الغزلية المؤثرة مقلداً فى القراءة صوتها ولهجتها ، وحركتها ونظرتها ، ثم أرد عليها بصوتى ولهجتى فيتسنى لى بذلك أن أخدع نفسى وأوهمها أن حضورها معى حق لاشك فيه ، حتى اذا اقتحم الحجرة على زائر أو خادم أحس كأنه انتزعها منى أو طردها عنى ، وأخرج الى النزهة فى الجبال والمروج الحافة من حول النهر ومعى رسالة الصباح الواردة منها ، ثم أجلس لقراءتها مرات فوق الصخور أو على شاطئ النهر أو فوق قطع الجليد . وكلما قرأتها مرة تكشف لى الكتاب عن كلمة أو لهجة نددت عنى

أول مرة . وأتذكر أنى كنت أتجه دائماً فى جولاتى الى الشمال عن غير قصد، كأنما كل خطوة أخطوها نحو باريس تدنىنى منها وتقلل من تلك الشقة البعيدة التى انفصل بيننا . وكثيراً ما كنت أُلج فى المسير وأمعن فى طريق باريس على هذه النية حتى يستحيل المضى ويتحتم الرجوع ، فينشب فى نفسى عراك شديد قبل أن اقتنع بالعودة . هنالك أرسل طرفى الباكى الى الناحية التى تظلمها من الافق ، ثم أعود أدراجى ثقيل الخطى بطىء الحركة . ولشدة ما كنت أغبط الغربان السابحة فى الضباب الى جهة الشمال على أجنحتها الموقرة بالثلج ! وما كان آلم لنفسى وأمض لفؤادى أن أرى المركبات دارجة على طريق باريس ! وما كان أَرْضانى أن أنزل عن شبابى الباطل الى هذا الشيخ العاقل الذى ينظر الى من باب المركبة على أن أذهب فى طريقه ويعود فى طريقى ! آه ! ما كان أطول أيام ديسمبر ويناير على قصرها ! ان الساعة الوحيدة التى كنت أهنأ فيها من بين تلك الساعات هى التى كنت أسمع فيها وأنا فى غرفتى خطى ساعى البريد وصوته . حينئذ أفتح الشباك وأطلع فأراه فى أقصى الشارع مملوء اليدين بالرسائل يوزعها على الخادومات ثم يقف أمام كل بيت هنيهة ينتظر أن يخرجن اليه بالأجر . وكمر مرة لعنت هؤلاء النسوة الساذجات على تلكوهن ، وحرصهن على أن يعدذن النقود فى يد

الساعى قطعة قطعة . وقبل أن يقرع الساعى باب منزلنا كان يرانى واقفاً على العتبة خافق القلب فارغ الصبر، فيأخذ فى تصفح العناوين وعيناي تسبقانه الى اكتشاف الرسالة الأنيقة ذات الورق الهولندى والخط الانجليزى حتى أجدها فأتناولها واليد مضطربة والمفاصل مرتهكة ، والعين عاشية ، والقلب واجف . ثم أخفيها تحت ثيابى مخافة أن تراها أمى فترتاب فى هذه المكاتبه المستمرة ، وأهرب بها فى غرفتى فأوعد بابها على ، ثم آخذ فى تلاوتها وأنا آمن . ولا تسلم عما ذرفته فوق هذه الأوراق من عبرات ، وما طبعته عليها من قُبَل ! ولقد فتحت بعد سنين هذا المجلد من الرسائل فوجدت وا أسفاه كثيراً من الكلمات قد محته شفتاى فاستبهمت معانى الجمل ، وكثير منها خلطه الدمع أو عبثت بورقه نشوة الطرب !

وبعد الغداء كنت أصعد الى غرفتى العليا فأعيد قراءة رسالتها ثم آخذ فى الرد عليها . وتلك كانت أطيب ساعات النهار فى نفسى وأسمائها : كنت آخذ أربعة أدراج من الورق الهولندى الرقيق الكبير ، فأبدأ الكتابة من أول طرفها الأعلى الى آخر طرفها الأسفل حتى لا أترك فيها فراغاً . ثم أعود فأدبج الهوامش ،

وأطرز ما بين السطور ، حتى لا أَدع فيها بياضاً . املأ هذه
 الصحائف كل صباح ثم أشعر أنها أضيق من أن تسع
 خواطري الفائضة المضطربة ، وأعجز من أن تصور عواطفى المتشعبة
 الملتهبة . لم يكن لتلك الرسائل ابتداء ولا انتهاء ولا وسط ولا
 قواعد ولا شيء مما تواضع الناس عليه فى الانشاء ، وإنما كان فيها
 نفس عارية مجردة أمام نفس أخرى تشرح لها جهد الطاقة ما يحيش
 فيها من شعور ، ويعتلاج بها من عواطف . تشرحه بهذه اللغة
 الناقصة القاصرة لغة الناس التى لم تخلق لشرح الغامض وتفسير المبهم ،
 وإنما هى علامات ناقصة ، وكلمات فارغة ، وجل جوفاء ، والفاظ
 باردة ، تصهرها نفوسنا بقوتها وحميتها واضطرامها صهر المعدن
 الآبى على النار ، ثم تصوغ منها لغة أثيرية مبهمه متقدة كألسنة
 اللهب نفهمها نحن ولا يفهمها الناس لأنها من نفوسنا وذواتنا . أبداً
 لا ينقطع تدفق نفسى ولا يبرد . فلو أن السماء كانت صحيفة وأرادنى
 الله على أن أرقم فوقها حبي لما وسعت هذه الصحيفة كل ما أردده
 فى نفسى وما أريد أن أقوله ! لقد كنت أفرغ من نعمة الصحائف
 الأربع وكأنى لم أقل شيئاً ! والحق أنى لم أقل شيئاً ، فإن الاحاطة
 بالانهاية والتعبير عنها محال وباطل

لا أزعم أن هذه الكتب من طرائف الكلام، ونوادير الفكر،
وروائع الفن، وإنما أزعم أنها لذتني وأفادتني ومهدت لي سبل
الكتابة حينما عرضت فيما بعد لأحوال الناس ولأخلاقهم بالوصف
والتحليل فيما ألفت من كتب ونظمت من شعر. فاستطعت أن
أرسم الفروق الدقيقة، وأصور المنازع المختلفة، وأعبر عما يعترى
النفوس من فتور وسقم، أو حمية وحدة. لقد كنت أجاهد على غير
قصد فقر هذه اللغة وجودها وبرودها لأنني مضطر إلى استعمالها
مادمت لا أعرف لغة السماء. وكانت الجهود الخارقة التي بذلتها في
اخضاعها وتليينها وبسطها وليها وتصويرها وتلوينها، وإلهاب
عبارتها أو اطفائها، ثم الحاجة إلى التعبير بالكلمات عن أخص
المواطن وأدقها، واسمى الخواطر وأرقها، وعن نوازي القلب
الجموح، وعفة الهوى المحتشم، وإلى تصوير النظرات والهيئات
والزفرات والصمت والنحول وفناء القلب في عبادة حبيبه النائي،
كل هذه الجهود وإن كسرت القلم في أنامل كما تكسر الآلة العصية
في يد الفنان، مكنت لهذا القلم الكسير أن يجد أحياناً الكلمة أو
الحيلة أو العبارة أو الصرخة التي يبحث عنها ليظهر الخفى ويبرز

العقلي ويصور المستحيل

لذلك أنذكر أنى كنت كلما فرغت من رسالة نهضت من
كرسى كأتى خارج من معركة شعواء خصومى فيها الكلمات واليراعة
والطرس ، فأفتح الشباك وأعرض وجهى لنسيم الشتاء البارد
ليجفف ما أرفض عليه من العرق

٥٤

على أن رسائلى لم تكن مقصورة على صرخات القلب وأتات
الحب ، وإنما كانت فى الغالب من الأمر صلوات وأدعية ، وتأملات
وتعزية ، وأملأ فى المستقبل ورجاء فى الله . لأن هذا الحب المحروم
بطبيعته من الملمات التى تمت القلب بأحياء الحواس ، كان قد فجر
ثانية فى نفسى ينابيع الشفقة التى غورتها الشهوات السافلة ، أو
كدرتها النزعات الباطلة . وكثيراً ما كانت هذه العاطفة الدنيا تنقلب
على العواطف السامية الطاهرة ، فأجهد أن أرفع معى إلى ملكوت
السموات هذه النفس الثانية المعذبة المجذبة على أجنحة خيلى الوثابة
الطموح . فكنت أتحديث فى هذه الوسائل عن الله ، وهو وحده
القادر بكماله على أن يخلق هذا الجمال الفاتن ، وتلك العبقريّة الرائعة ،
وهذا الحنان المحض ، وهو وحده القوى على أن يحتوى أملنا

الواسع ، ويستوعب حبنا العظيم . وأعزى جوليا عن توضيحتنا بهذه
السعادة الدنيوية الكاملة على مذبح الواجب ، وأرفع لها من قيمة
هذه التضحية عند الله الذى يشب على الخير ويكافئ على الفضيلة ،
وبارك على نزاهة حبنا اليأس ، وطهارة قلبنا الكسير ، مادام هذا
الشقاء الزائل يؤدنا الى السعادة الخالدة والنعيم المقيم مع الأبرار
فى عليين . حتى لقد بلغ بى الأمر أن عددتنى وعددتها فى زمرة
السعداء ، ورحت أرتل أناشيد التفويض والتسليم كما شاء الحب
العذرى وقضى به الواجب المقدس . وتوسلت الى جوليا ألا تألم
وألا تفكر فى آلامى . وأظهرت لها الجلادة على المكروه ،
والاحتقار لتلك السعادة الدنيوية التى كانت تجرى على لسانى دون
أن يتأثر بها وجدانى ، وأريتها أنى تجردت من منازع الناس ،
وتخلصت من طبائع الحيوان ، وأصبحت فى روحية الأملاك ،
وسموت الى مسبح الأفلاك ، حتى لا يخامرها شك فى أنى ألم من جها ،
أو نادى على عبادتها ، ورجوت منها أن تنشد فى ظلال الكنيسة
وفى ايمان المسيح اله الدموع ورمز الألم ما وجدته أنا نفسى فى عهد
صباى من الرجاء القريب والغزاء المفرج والبشاشة المروحة . ثم
ألفت لها أدعية ضارعة قوية تصعد الى السماء بعبود الاله لا يحجب
حاجب ولا تعبت به ريج . وطلبت اليها أن تنلها فى ساعات مهيبة

من الليل والنهار حتى أتلوها معها، فتجتمع خواطرننا وترتفع معاً في ساعة واحدة وفي صلاة واحدة..... ثم أبلل كل هذا بالدموع، فتترك الدموع أثرها بين السطور . فيكون هذا الأثر أنطق من السطور نفسها وأبلغ .

ثم كنت أذهب خفية الى البريد فألقى به نحاع عظامي وسواد قلبي ثم أعود رافه النفس خفيف الجسم كأنما القيت حملاً كان يفدح قلبي ويهبط حشاي

٥٥

ومهما يكن من جهودى المستمرة فى هذه المعركة الناشئة بينى وبين اللغة العاجزة العصية ، وإعنائى القريحة وهى ملتبسة فنية ، لتلعب رسائلى بنار قلبي السكاوية ولتجتاز نفسى مسكوبة على القرطاس هذه المسافة النائية ، فانى لم أبلغ مدى جوليا فى هذه السبيل ، ولم أستطع أن أجرى معها الى هذه الغاية . فان الجملة الواحدة من رسائلها كانت أبلغ دلالة وأقوى أثراً من صفحات الثمان . فلقد تدنيك من نفسها حتى تجد أنفاسها فى الكلمات ، وترى نظراتها فى السطور ، وتحس حرارة شفيتها فى الجمل . فلا تفقد شيئاً فى نقل الشعور الى اللفظ ، ومن عادة هذا النقل أن يخدم الشعور ويذكرى

العاطفة في قلم الرجل . ولكن المرأة ليس لها أسلوب ، فهي لذلك تحسن القول في كل وجه ، وتبلغ به في كل غرض . وما الأسلوب الا ثوب ، والنفس عارية على لسان المرأة أو في يدها . فالبارة عنها تنبعث من العاطفة عارية عرى الزهرة ولدت بنفسها ثم تعجب لأنها ولدت ، وأعجب من عجبها أنها قبل أن تعرف نفسها قد عُبِدَت !

ولا تسلى عن رسائلها كيف كانت . فإذا عسى أن أقول لك عن الضرم المتقدم ، والضوء الشاحب ، والألوان المتغيرة ، واللهجات المؤثرة ، والذات المختلطة بالنقاء ، اختلاط الومض والصفاء في حجر الماس ، والحمة والطهر على جبين الفتاة المحبة ؟ وكيف أحدثك عن السذاجة القوية ، والمناغة الثرة ، واليقظة الفاجئة ، والاعاني الشادية ؟ وبماذا أصف لك الحب الحزين الذي تشعر به شعورك بالرجع الخافت في آخر اللحن الرخيم ، وتلك الملاحظة بالكلمات التي تحسها على جبينك كما تحس انفاس الأم المداعبة على جبهة طفلها الباسم ، وتلك الهددة اللذيذة بالصوت الخافت ، والجل المنعم التي تغمرك بالنور والسرور والعطر والدعة ، وتنقلك بالمقاطع المنومة

على رُودٍ وهمل حتى تصل بك الى راحة الحب وغفوة النفس ،
وتقف عند قبلة الوداع التي طبعتها شفها على الصحيفة فتقطفها في
سكون وصمت ؟

لقد وجدت ثانية هذه الرسائل وتصفحتها ورقة ورقة . وجدتها
بعد موتها وقد جمعها ورتبتها وغلفها يد صديقة تقية ، وقرنت كل
كتاب الى جوابه ابتداء من أول رسالة الى آخر كلمة لفظتها المختصرة
وخطها يد أرعشها الموت وسندها الحب . فأعدت قراءتها ثم احرقها
وانا دامع العين دامي الفؤاد ، بعد أن غلقت الابواب كأنى أم بجريرة ،
وبعد أن نازعت الاله عشرين مرة على كل صحيفة أكل نصفها
لأعيد قراءتها قبل أن يأتى عليها !! تسألنى لماذا أحرقتها ؟
أحرقها لأن رمادها تنفسه ما كانت تطيق حرارته الأرض فذريته
في الهواء ، وبعثرته في جو السماء !!

دنا اليوم المنتظر ، وأصبحت أستطيع عد الساعات التي
تفصلنى عن جوليا . وكان المال الذي تجمع لى من كل الموارد لا يقوم
بنفقتى ثلاثة أشهر أو أربعة في باريس . فهزت الشفقة أسمى ، وهى
تنظر الى شجنى وهى ، دون أن تعرف السبب ، فانتزعت من علبه

جواهرها خاتما ركبت فيه ماسة كبيرة، وهى وأسفاه آخر ما أبقاه
حنانها على وإثارها إياى من حلى شبابها ! ثم وضعها خفية فى يدى
وهى تقول باكية : « انى ليؤلمنى كما يؤلمك يارفايل أن أرى شبابك
يذويه الفراغ ، وتبليه البطالة بين خمود القرية وذهول الحقول . لقد
كنت أرجو أن المواهب التى جعلك الله بها وباركتها فيك منذ الصغر
ترفعك فى الناس وتفتح لك طريق الثروة والسؤدد ، ما دام الفقر
الذى نصارع وندافعه لا يمكننا من أن نفتحه نحن لك . والله لم
يشأ بعد أن يهين لنا هذا الأمر ؛ ونحن خاضعون لأمره ، راضون
بحكمه ، لا يخامرنا الشك فى عدله ، ولا يدركنا القنوط من فضله ،
فكل أعماله لحكمة . غير انى أراك استسلمت بعد الجهود المحفقة
الى أهم فئال منك وغلب عليك . عاجل الحظ مرة أخرى ، سافر
يا ولدى ما دامت هذه الأرض تحرق قدميك ، وعش فى باريس
حينما من الدهر ، واقرع أبواب السراة من أصدقائنا الأقدمين ،
فى عزة وتحفظ ، وأظهر مواهبك التى حببتك بها الطبيعة وقواها
فيك . العمل . ومن المحال أن يغفل رجال الحكومة الجديدة عن
تقريب الأكفاء من الشباب لخدموا هؤلاء الأمراء^(١) الذين
أعادهم الله إلينا ، فيؤيدوا ملكهم ويزينوا حكمهم . ان أباك على فقره

كابد الأهوال في تربية أطفاله الستة ، وتحمل مضض الحياة القروية ، ولكنه لم يطأطىء من إشرافه ، ولم يهبط من سامى درجته . وبقية أهلك كلهم بررة محسنون ولكنهم لا يريدون أن يفهموا أن لا بد من الهواء للتنفس ، ومن العمل للنفس الشابة النشيطة . دونك آخر حلية من حلي وقد عاهدت أمى ألا أتخلى عنها الا فى الضرورة القاهرة . نخذها وبمها لعلها تساعدك على أن تطيل الإقامة فى باريس بضعة أسابيع . انها آخر شاهد من شواهد حنانى . أطرحه فى سهمة القدر ، وعسى أن يعود اليك بالسعادة والرجح ، لأننى طرحت معها كل ما أملك لك من صلاة وحنان وعناية »

فتناولت الخاتم واضعاً على يد أمى قبلة ، وسا كبا على الماسة دمة ، ثم انفقتها وأسفاه لا فى طلب الخطوة عند الرؤساء والأمراء الذين عموأ عنى لفقرى وخمولى ، وانما انفقتها فى ثلاثة أشهر من حياة الوجدان والقلب ، وكل يوم منها يساوى قروناً من المجد والعظمة . لقد كانت لى هذه الماسة المقدسة كلؤلؤة كليبوطرا ذابت فى كأس حياتى فأروتنى حيناً من الدهر بالحب والسعادة

على أننى غيرت من طبعى ، وأصلحت من نفسى ، احتراماً

لكثرة الضحايا التي بذلتها أمي المسكينة ، وتنفيذا للفكرة التي جمعت كل أفكارى ، واستوعبت جميع آماني، وهي أن أرى الحبيبة وأطيل الإقامة بجانبها ما استطعت . ولا يتسنى ذلك الا بقبض الكف وتضييق النفقة . فأصبحت دقيق الحساب كز الأنامل شديد الحرص على ما أملك من ذهب قليل . وخيل الى أن كل درهم أنفقه انما هو ساعة من هنائي تمر ، ونقطة من حياتي تضع . واعتزمت أن أحيي حياة روسو على الاعداء أو الاقتار ، فاقطع مما انفق في الأبهة واللباس والطعام ما أبذله في اسعاد قلبي وارضاء حبي .

ومع ذلك ما كنت خاليا من رَوْح الأمل ، فقد كان في مرجوئى أن أستفيد من قريحتي لهواى ، وأستخدم مواهبى في تحقيق منأى . ففى ثلاثة الأشهر المنصرمة أخذت نفسى بقول الشعر فى ساعات الأرق ، فوقع لى منه طائفة صالحة من القصائد الغزلية والخيالية جمعتها فى ديوان ثم نقلت منه نسخة بخط جميل ، وقرأت بعضه على أبى ، وهو سيدد الحكم دقيق النظر فاستحسنه ، وعرضته على بعض صحابتي حفظوه واستنسخوه . فغلقت هذا الكنز الشعري بغلاف أخضر ، وهو لون الفأل الحسن والرجاء الصالح ، وأخفيت عنه أمى مخافة أن يتألم شعورها النقي التقي العفيف من بعض مرآثيه التي نحوت فيها منجى الجاهليين لا منجى المسيحيين .

وكان معقد رجائي أن رقة هذه الاشعار وما فيها من الحمية الوثابة ،
والمعانى الخلابه ، تغرى بها أحد الطباعين الأذكياء فيشتريها أو
يطبعها على نفقته ثم يتركها لذوق الجمهور ، وهو لاشك واجد فيها
ما يستهويه من أسلوب طلي جديد نبت في الغابات ، وتتجر من
الينابيع ، فيكون لى من وراء اقباله عليها نباهة فى الاسم ، وسعة
فى الثروة

لم يكن يشغل بالى أمر السكنى فى باريس ، لأن أحد صحابتي
وهو الكنت الشاب (ف) . . قد عاد من رحلته منذ قليل ، وعزم
أن يقضى فيها الشتاء والربيع . وقد عرض على أن أساكنه فى طابق
أرضى من قصر ريشليو الفخم فى شارع (نوف سنت أو جستين)
وهو عليم بحقيقة أمرى ، واقف على دخيلة سرى ، لأن بينى وبينه
مكاتبات متصلة لا تكاد تنقطع . فكتبت اليه كتاب مقدمة الى جوليا
ليعرف روح روحى ويعلم معنى عبادتى ان لم أقل هذيانى لهذه المرأة .
وماهى الا الزيارة الأولى حتى فهمها حق الفهم وشاطرني الأعجاب
بها والميل اليها . ومضى يصف لى فى رسائله مايشعر به من الاجلال
والأشفاق لهذه الفتاة الكاسفة المعلقة بين الحياة والموت لايمسكها

الا ما تجد لى من الهوى العذرى والحب الدخيل . ولم يفر عن
التحدث عنها الى كما يتحدث عن منحة من منح الله من بها على
نوراً لعينى وسروراً لقلبي ، وسبباً من أسباب المجد يرفعنى فوق
الانسانية درجات . ولما اقتنع بطهارة هوانا ، وشرف علاقتنا ، اعتبر
حبنا فضيلة ، فلم يجد غضاظة فى أن يكون موضع سرنا ، ونقطة
اتصالنا . وأخذت جوليا تصفه بصدق الوفاء الى حتى تؤكد بيننا
عقدة الصداقة بدلا من توهينها بسخف الغيرة . وكان كل منهما
يستعجل قدومى ، وما يعلم أحد غير صديقى ف . . تلك الأسباب
الخفية التى حالت بينى وبين القدوم الى الآن . ولكنه على الرغم
من اخلاصه الى وحده على واشاره اياى منذ عرفته الى يوم فقدته
لم يكن قادراً يومئذ على تدليل هذه العقبة وتقريح هذه الكربة .
فان أمه قد أنفقت جل ما تملك فى تربيته تلاميذ يئته ودرجته ،
وزودته بما بقى منه فى رحلته التى رحلها الى أقطار أوروبا . ثم عاد
مثقلاً بالدين ففى وسعه الا أن يقدم الى ركننا من مسكنه الذى
تحملت أسرته بأجرته

سافرت من ما كون فى مركبة صغيرة حقيرة يجرها جواد
واحد يغير فى كل قرية . وهى من النوع الذى يسير بين ليون
وباريس لينقل البنائين والعمال من أهل بربونيه وأوڤرنى ، ومن

أصابعهم الونى من الراجلين ، أو أدركهم الوجى من الجند المساكين ،
 فيرفهون عن أنفسهم بركوبها مرحلة بأجر زهيد . ركبت هذه
 العجلة دون أن استشعر خجلاً أو أحس ألماً من ابتذالها وخشونتها .
 ولو أنى قطعت الطريق حافياً على الثلج لما شعرت ابداً بضعة فى
 مكائتى ، ولا بنقص فى سعادتى ، لأنى أوفر بذلك ديناراً أو دينارين
 اشتري بهما أياماً من حياة الغبطة والنعيم . وصلت باب باريس
 وما شعرت باغوب السير ولا وعشاء الطريق . وكان الليل حالك
 الجلباب ، والمطر دائم التسكاب ، والجوقارس البرودة . فحملت
 حقيبتى على كتفى ، وذهبت أطرق باب المسكن المتواضع على السكنت
 (ف) . . فلقيته فى انتظارى ، وما وقع نظره على حتى عاتقنى عناقاً
 طويلاً ، ولقينى لقاء جميلاً ، واندفع يقص على أخبارها وأنا أستفهمه
 وأستعيده واستزيده لا أفتر عن ذلك ولا أمل . وفى الليلة نفسها
 صممت أن أراها . فاتفقنا على أن يزورها (ف) . . ويعلن إليها
 قدومى ويمكث عندها حتى ينصرف السامرون وتخلو الى نفسها
 فيأتى الى فى قهوة مجاورة فيذهب بي إليها . ثم فكرت بعد مادبرت
 هذا كله أن أجفف ثيابى على المدفأة ، وأسد رمقى على المائدة ،
 وأرتدى حلة نظيفة لا تكون سبباً فى إخجالها أمام أصحابها

وفى الساعة الحادية عشرة خرجت أنا وصديقى فسرنا على

أقدمنا حتى وقفنا تحت شباكها فوجدنا لدى الباب ثلاث مركبات
منتظرات ، وصعد (ف) . . وذهبت انتظره في القهوة المعهودة .
وما كان أثقل الانتظار وأطول الزمن ! ويا كثرة ما لعنت هؤلاء
الزائرين الخليين الذين أرادوا أن يقتلوا ساعات من الفراغ فقتلوا
غير عامدين ساعات من الهناء يترقبها قلبان حبيبان ! ثم ظهر الكنت
(ف) . . فاندفعت أمشى على أثره حتى بلغني الباب فركنني وصعدت

٦٠

ان أعمرَّ الف سنة فلن أنسى هذه اللحظة ولا هذا المنظر !
لقد كانت واقفة في النور، مرفقا على رخام المدفأة ، وقدها الممشوق
وكتفها وجانب وجهها ينعكس عليها الضوء فتترأى في المرأة ،
ووجهها متجه الى الباب ، وعيناها محبقتان في الدهليز المظلم الذي
يتقدم البهو ، ورأسها قد امتد قليلا وانحنى الى جانب : هيئة من
يحاول أن يميز بالسمع وقع خطوات تقترب . وكانت ترتدى سلاباً^(١)
من الحرير الأسود مزدان الحواشي بالمخرم (الدتلا) لا يشرق في
ظلام هذا الثوب الا كتفها وجيدها ووجهها . وكان من أثر انعكاس
الموقد في المرأة ، ومناغة المصباح خدها من فوق المدفأة ، ويقظة

(١) السلاب بالكسر ثوب الحداد والخزن

الانتظار ، وقلة الاضطبار ، ان انتشر فوق مجيهاها رونق الشباب
وبهجة الحياة ، فكأنما غير الحب هيئتها ، وبدل صورتها .

كان أول ما انفرجت عنه شفتاى أن صحت صيحة الفرح
والغبطة ، إذ رأيتها أوفر حياة وأوفى جمالا وأسمى كمالا منها أيام
كانت تتقلب فى شمس سقوا وتمرح تحت سمائها الضاحية الجميلة .
وحاولت هى أن تعمم ببعض الكلام حين رأتنى فاضطربت شفتاها
وما استطاعت . نخررت على قدميها وألصقت فى بالبساط ، ثم رفعت
جيني لأنظر اليها وأطمئن عليها مخافة أن أكون فى حالم . فوضعت
احدى يديها على شعري المرتعد واستندت بالأخرى على زاوية
الرخامة ، وجثت هى أيضاً أمامى على ركبتيها ، تتخاطب بالنظرات
فلا تكفى ، وتلمس الكلمات فلا نجد . لقد انعقدت الستننا من
فرط السرور ، واضطربت اعصابنا من شدة التأثر ، فبقينا صامتتين
لألغة الالهذا الصمت ، ولا حركة الالهذا السجود . فاما سجودى
فلئه العبادة ، وأما سجودها فلئه السعادة . وكأنما تنطق هذه
الهيئة قائلة : « انهما يتساهمان الحب بالقلب ، ويتساقيان الهوى
بالنظر ، ولكن بينهما شبح الموت ، وحجاز الواجب ، فهيهات
أن يتعانقا ! »

لا أدري كم دقيقة لبثنا على هذه الحال ، ولا كم سؤال وجواب
وعبرة وفرحة تطارحناها بالشفاء ، وتجادبناها بالعيون ، وتبادلناها
بالوجوه ! لقد أصابتنا السعادة بالصمم والبكم والسكون ، وانمحي
من حولنا الزمن بأسره ، حتى سمعنا طرقا على الباب ، وأقداما تصعد
في السلم ، فنهضنا وأخذت هي مكانها من الكنية ، وجلست أنا في
الجهة المقابلة ، متسترا بالظلام لأخفي احمرار وجنتي ، واخضلال
جفوني . ودخل الغرفة رجل متقدم السن ، شديد الهيبة ، وقور
الهيئة ، نبيل الطلعة ، مشرق الديباجة ، يخطو خطوات ثقيلة حتى
دنا من الكنية فقبل يد جوليا قبلة أبوية . كان ذلك الزائر الاستاذ
يونال ، ولا أدم مجيئه لأنه أفاقني من نشوتي وأعادني من ذهولي ،
بل أحمده لأنه صد النظرة الأولى في الساعة التي يشمل فيها القلب
من رحيق الحب ، ويذهب رشاد العقل في ضلال الهوى . لقد كانت
ساعة دخوله من الساعات التي تحتاج فيها النفس الى ذلك الثلج
الذي يلقيه أمثال هذا الحكيم على لهيب الخواص فتستعيد صادق
عزمها ، وتسترد ما ذهب من حزمها

عرفتني جوليا الى السيد يونال ، وعرفته اني صاحب الأشعار
التي قرأها . فدهش لحداثة سني ، وقابلني بشيء من الأغضاء
والتسامح ، وأقبل على الفتاه يناقلها الحديث بذلك التبسط الأبوي
الذي يكون في شيخ استفادته شهرته بالنبوغ ، وأشرقت نفسه
بتقدم السن ، جاء يلتبس من جانب هذه الفتاة شعاعا من الجمال يضيء
به عينه ، وساعات من السمر العذب يختم بها يومه . كان صوته هادئا
عميقا ، لأنه يصدر عن قلبه وينقل عن شعوره ، وكان حديثه مرسلا
طليقا ، لأنه يترجم عن فكر استرخى ليستجيم ، وكانت نبرات
الشرف الصميم تتمثل في لهجته ، ودلائل الخلق العظيم ترسم على
جبهته . وامتد بينهما نفس الحديث ، وأوشكت الساعة أن تؤذن
بانتصاف الليل ، فرأيت من الواجب أن أخرج أولا حتى لا أزعج
لهذا الصديق سيلا الى الريبة في هذه الألفة القوية ، وهو في هذا
البيت أوثق مني صلة وأسمى منزلة . خرجت وما نلت جزاء على هذا
الانتظار المحرق والسفر المرهق الا نظرة وصمتا . على انني نلت
رؤيتها ، وحملت صورتها ، وتأكدت اني سأراها كل يوم ، وليس
هذا بالشيء اليسير . خرجت على وجهي فهمت طويلا على ارضاف

باريس ، وبنى من حمى السعادة ورعدتها مابالمرجل الفائز ، فكشفت صدرى وفتحت فى لنفحات النسيم النديّ عسى أن يطفى حرارة قلبى ، ويهدى نأثر أعصابى . ثم عدت الى مسكنى فوجدت صديقى (ف) . . يعط فى النوم منذ ساعات طويلة . وبت أنا أعالج النوم وأتملقه فما اطمأن لى نافره الا حين تبلغ الصبح ، وملأت أصوات الباعة شوارع المدينة

٦٣

كانت هذه الأيام أملاً أيام حياتى ، لأنها لم تعد غير فكرة طويت عليها أحناء الصدر كما تطوى على المسك ناجته مخافة أن يتعرض للريح فتنبخر منه قطرة . كنت أستيقظ من نومي عند تبشير الصباح فأفتتح نهاري بكتابة رسالة ضافية الى جوليا استعيد فيها حديث البارحة والرأس مستريح والأعصاب هادئة ، فأعقب عليه ، وأتناول ماسنحلى من الافكار بعد تركها فأضيفه اليه . فكانت تتلقى هذه الرسالة لدى يقظتها كأنها تكلمة لحديث الليل باتت تسمعها بصوت خافض وهى نائمة . ثم تكتب الجواب فيصل الى قبل بلوغ الشمس حد الظهيرة . وبذلك كانت تبرد جوانحى ويهدأ قلبى من نائرة الليل . ولسكن الشوق الى لقاء المساء وحديثه لا يلبث أن

تتجرك عوامله ، فأحاول تسكينها بالشواغل ، وتعليلها بالمنى ،
وأرغمت نفسى على المطالعة والدرس والعمل ساعات طوالا ، أريد
بذلك أن أقتل الوقت الذى يكربنى ما بين فراق جوليا الى ساعة
لقائها ، وأن أهذب نفسى وأكملها من أجلها لا من أجل غيرها ، فانى
أحب الا تهجىل يوماً ما من تفضيلها إياى على سواى ، وأن أولئك
الاعلام الذين يغشون نديها ، ويبصرونى أحيانا فى بهوها ،
واقفاً بجانب المدفأة ساكتا ساكناً فى أبوالهول أو تمثال التأمل ،
يمجدون اذا ما وجهوا الى الكلام عرضاً تحت سكونى الرهيب
وحيائى المريب نفساً وذكوة وأملا ومستقبلا . ثم ثارت فى نفسى
احاديث المنى ووساوس الأحلام فتخيلت انى بنيت خطط المجد ،
وأدركت خطير المساعى ، وغالبت الدهر فى الميادين الظاهرة . فبت
وأصبحت كأنى ورقة من أوراق الشجر انتزعها عاصفة من حديقة
أبى ثم سميت بها فوق متون الهواء ، ورأيت جوليا قرية العين إذ
ترانى على البعد أصرار الدهر وأناضل الناس وأسمو فى القوة والعظمة
والفضيلة ، فتفتخر بانها أول من رأى مخايل ذلك فى دلائله على

كل ذلك فضلا عن العطلة القاهرة والفكرة الواحدة التى

شغلتنى عن كل فكرة ، والفقر المدقع الذى غل يدي عن كل مشغلة ،
والحبس الذى اعتقلت فيه عن رضا وطواعية ، قضى على بأن أحيا
حياة درس وتنقيب ومطالعة . فكنت أقضى عامة اليوم جالسا
الى منضدة صغيرة تنيرها كوة مطلة على الفناء ، ويدفئها موقد من
الفخار المدهون . ثم يستر تلك المنضدة وذلك الكرسي عن عيون
السراة من زوار صديقي حجاب ساتر . وكانت تتجارب في أفق
ذلك الفناء الواسع اصداء العربات ، وتنعكس فيه أضواء الشمس
وهي تصارع الضباب الزاحف في شوارع باريس . وكنت أرى فيه
الحين بعد الحين صبيا جميلا في الثامنة أو العاشرة من عمره يلعب فيه
وهو ابن البواب ، فذكرني رأسه الشبيه برأس الملك المجمع ، وشعره
ذو الطرة الجعدة السابلة على الجهة ، وسخنته الدالة على النجابة
والحساسة ، بحيا الاطفال البررة من أهل بلدى . فلا ريب أن
أسرته من قرية مجاورة لقرية أبى عدا عليها الفقر فلاذت منه بباريس .
وكان من أمر هذا الغلام ان اتصل الود بيني وبينه من طول ما يرانى
في النافذة التى فوق مسكن أمه . فجعل نفسه فى خدمتى وكفانى
كل ما أحتاج جلبه من الخارج من غير أجر . فكان يأتى الى كل
صباح بطعام اليوم من خبز وجبن وفاكهة ، فأنال منه عند الحاجة
فوق المكتب بين الكتب المبعثرة والصحف المنشرة . وكان

للغلام كلب أسود نسيه أحد النازلين في الفندق ، فكنا متلازمين لا يفترقان حتى أنس الكلب بي واطمان الى وألفنى الفه لصاحبه . فكننت تراهما اكثر اليوم نائمين أو لاعبين بين قدمى على الحصير تحت المنضدة . فلما تركت باريس فى مؤتلف الزمن أخذت الكلب معى واحتفظت به أعواما طويلا تذكارا مخلصاً وفيها لهذا العهد عهد الاعتكاف والخلوة . ثم فقدته وبكيتته عام ١٨٢٠ وأنا اجتاز غابات (بوتتين) بين روما وتراسين . أما الغلام فقد كبر واحترف صناعة الحفر وتعاطاها فى ليون موفقا فيها . ولما رنصيتى فى مسجعه ، ووصل اسمى الى مصنعه ، جاء يزورنى . وما كان أشد سروره برؤية صديقه ، وأمض حزنه على فقد كلبه ! مسكين قلب ابن آدم ! كل ما يحبه مرة يصبح ضرورة له ، سواء فى ذلك ما قل وما جل ! والدموع التى يذرفها على ضياع مملكة هى من نوع الدموع التى يذرفها على فقد حيوان !!

٦٥

فى ألوف الساعات التى قضيتها معتقلا بين الموقد والحجاب والنافذة والصبي والكلب ، أعدت قراءة ما كتب الأقدمون من علم وأدب ، ماعدا أولئك الشعراء الذين اتخمونا بشعرهم فى المدرسة فلم تستطع عيوننا الكلييلة أن ترى منه الا الوزن والطول والقصر :

ويكون من أثر ذلك ان يقوم بنفس الطفل اشمزارباكر يذوى فيها
أنضر ما أنبتته القرائح البشرية من زهر وعطر . قرأت كل الفلاسفة
والخطباء والمؤرخين فى لغاتهم ، واختصت باعجابى واشارى من
اجتمعت فيه هذه الممالك الثلاث : الحكاية والأداء والبحث .
أو الحدّث والحديث والمغزى . وكان السبق والقدم فى ذلك لتوسيديد
وتاسيت ، ثم لمكياقل الخبير البصير بأدواء الشعوب والممالك ، ثم
لشيشرون ذلك الوعاء الرنان الذى يحتوى كل شىء : من العبرات
الساخنة من جفون الرجل والزوج والأب والصاديق ، الى النكبات
الجامحة التى ضععت روما وزعزعت بناء العالم ، الى ما أصابه هو
من عنت الدهر وصروف القدر . فشيشرون أشبه بمرشّح استقرت
فيه هذه الحياة ثم راقّت وانجلت عن فلسفة عالية ، وحكمة صافية ،
تترأى فى جوانبها نفسه الكبيرة فياضة بالبلاغة والحكمة والرحمة
والانسجام . وكنت أظنه قبل الآن ثرثاراً أجوف يضع المعانى
الضئيلة فى الجمل الطويلة ، فأدركت الآن خطأى وضلال حكمى .
إنه الرجل الالهى فى القدماء بعد أفلاطون . أسلوبه أروع الأساليب
فى كل اللغات . تحسبه هزيبلاً لأنه ملفف بأحكام ودقة ، فاذا
نضوت عنه هذه اللغائف بدت لك النفس الكبيرة التى أدقت
الحس ، وأحسنّت الفهم ، وأجادت القول فى كل ما يحس ويفهم

أما تاسيت فلم انزع هواي في الميل اليه والتعصب له . لقد فضلته حتى على توسديد . وهو ديمستين التاريخ ، لأن توسديد أقوى على عرض الصور منه على إحيائها وتمثيلها . وتاسيت أولى أن يسمى مختصر الجنس البشري لا مؤرخه : حكايته ردّة الحادثة وصداها في قلب رجل حر فاضل حساس ، والقشعريرة التي يحتاج لها جبين قاربه لا تهز الجلد وحده ، وانما تهز الجسم والنفس معا . حساسته أقوى من تأثيره وتلك هي الشفقة ، وحكمه أقوى من انتقامه وذلك هو العدل ، وسخطه أقوى من غضبه وتلك هي الفضيلة . تبرز روح القاري بروح تاسيت وتتحدا ، فيتيه بهذه الصلة ويفخر بتلك القرابة . فاذا أردتم أن تطهروا قلوب ابنائكم من رجس الجريمة ، وتحركوا في نفوسهم عوامل الفضيلة ، فأقرئوهم تاسيت وغذوهم بأدبه . فاذا لم يصيروا بعد ذلك ابطالا فاعلموا أنهم خلقوا بطبيعتهم فخارا ، لأن الشعب الذي اتخذ من تاسيت انجيلا لسلاسته سما فوق الشعوب وشأى كل الممالك . أما أنا فمدن لهذا الكاتب لا بألياف لحي ، ولكن بأسباب كياني ونوازع نفسي . فاذا أصبح عصرنا

الصعلوك المفلوك في عظمة عصره وجيعته ، وأصبحت أنا أكرم
 ضحية في أكرم قضية ، فسأقول وأنا أريق بنفسى : ردوا شرف
 حياتى وشرف موتى للاستاذ لا للتلميذ ، فان تاسيت هو الذى عاش
 باسمى ومات فى جسمى

٦٧

وأنا بالخطباء كذلك مولع . درستهم دراسة من يعد نفسه
 لخطابة الجماهير الصم . فهو يدرس أولا معازف الانسانية ومطربها
 أمثال ديمستين وشيشرون وميرابو ، ولا سيما اللورد شاتام^(١)
 أقربهم فى رأيى لذوق العصر ، وأملكهم لأغنة القلب ، لأن
 خطابته الالهامية الوجدانية أولى أن تسمى صرخة لاصوتا . إنها
 تتعدى حدود الحفل وتتجاوز أغراض الزمن طائرة على أجنحة
 الشعر الى عالم الحقيقة السامية والعواطف الباقية . ان شاتام يتلقى
 الحقيقة من يد الله فيجعل منها نورا للهدى ، وصواعق للجدل .
 ولكن واأسفاه لم يبق منه الا ما بقى من فيدياس فى بريتون :
 أنقاض وأشلاء ! على أن هذه البقايا المحطمة اذا أعاد بناءها الفكر

(١) اللورد شاتام (١٧٠٨ — ١٧٧٨) أحد رجالات انجلترا ونوابها فى
 السياسة والخطابة والحكم . وقد اكتسب ملكة البلاغة وقوة اللسان من كثرة ماقرأ
 من نماذج القدماء

أخرج منها للناس صوراً ساحرة من البلاغة
لقد صورت لنفسى مثال ما بعث هذه الروح في هؤلاء النوابغ
من زمن وظروف وأهواء ومطامع و(فورم)، ثم أخذت أكلم المجموع
الحاشدة في نفسى، والأشباح الماثلة في خيالى، كما كان ديمستين
يكلم أمواج البحر

٦٨

قرأت لأول مرة في هذا العهد خطب (فكس) و(بت)، أما
فكس فوجدته خطيباً سوقياً جدلياً خلق للمعارضة لا للقول،
ومحمياً للدهج الحجاج وضع ضميره في صوته، ودافع للشهرة قبل أن
يدافع للحق. وأما بت فقد وجدته رجل الحكومة، فكلماته عقود،
وأشاراته عهود. وقد استطاع وحده أن يمسك بلاده حين تدهورت
أوروبا على دعائم من رصانة عقله، وعماد من متانة خلقه. فبت كاد
يكون ميرابولولم يتميز الأول بالانصاف والثاني بالتواضع. وقد
أصبح هذان الرجلان منذ يومئذ أكبر ساسة العصر في عيني،
وأجلهم موقعا من قلبي. وإذا قست غيرهم عليهم وجدت (منتسكيو)
علامة بحثة وقياسياً حاذقاً، و(فنون) الهيا خيالياً يتعلق بخيوط الوهم،
ويستمسك بحبال الهباء، وروسو طبيعياً ينقل عن أحلامه، أكثر

مما ينقل عن الهامه ، فهو في معاناة السليقة ، أقوى منه في معالجة الحقيقة . ووجدت لبوسويه لسانا من ذهب ، ونفسا من رياء وملق ، فاجتمع له من لسانه وفوائده وصفان متضادان في حضرة لويس الرابع عشر : استبداد أهل الدين ، ومصانة رجال البلاط

انتقلت بطبيعة الحال من التاريخ والخطابة الى السياسة ، فكان شعورى بذل القيد وفداحة النير الذى رفع عنا منذ قليل بزوال الأمبراطورية وفظائع النظام العسكرى الذى كنا نعانيها منذ طويل كان يدفعنى الى الحرية . ولكن ذكريات الأسرة ، وتأثيرات الصداقة ، والحال الأليمة التى كانت عليها الأسرة الملكية من الانتقال من العرش الى المشنقة ، ومن المنفى الى العرش ، وأولئك الشيوخ الذين توجهتهم الأرزاء كما توجهتهم الآباء ، وأولئك الأمراء الذين تبعث فيهم حمية الشباب وحرارة المصاب روح الأمل فى كل شىء ، كل ذلك حملنى على الرغبة فى التوفيق بين الحرية والملكية ، فوددت أن العرش التالد والحرية الطارفة يتصالحان فى هذه المملكة ، فيتم للحكومة بذلك التوفيق نفوذ القدم ونفوذ الحدوث ، أو قوة الذكرى وقوة الأمل .

تلك كانت أمنية نفسى وأحاديث أحلامى فى ذلك العهد . ولكن الأيام ما فتئت تبدد جزءا من هذا الحلم فى كل صباح حتى انجلي

عن هذه الحقيقة المؤلمة، وهي أن النظم القديمة لا تتحمل الآراء الحديثة، وأن الملكية والحرية لا يمكن أن يجمعهما ظل الا بالمشادة، وأن هذه المشادة تستنفد قوة الدولة، وأن الملك سيظل دائماً متهماً، والحرية ستكون ابداً مخونة

٦٩

ثم عدوت هذه الدراسة العامة الى دراسة أخرى شغلت فراغى وغلبت على فكرى، مع أنها بطبيعتها أجذب وأجف وأبرد وأبعد من قلب فتى سكر بخمر الخيال والحب، أعنى دراسة الاقتصاد السياسى أو علم ثراء الأمم. وكان (ف) قد وجه اليه باله وأخلى له ذرعه، فترى كل ما كتب عن هذا العلم فى الايطالية والانجليزية والفرنسية مبمثرًا على موائده ورفوفه

فمكفنا على هذه الكتب نقرأها ونناقشها ونعلق عليها بما عن لنا فيها، فصغت قلوبنا الى هذا العلم الذى كان بالأمس ولا يزال الى اليوم يقرر من المبادئ أكثر مما يقرر من الحقائق، ويضع من المسائل أكثر مما يضع من الحلول. ووجدنا فيه فضلاً عن ذلك موضوعاً للحوار الدائم والحديث المسلسل الذى تمضغه الألسنة ولا تشعر به الأفتدة، وتشتغل به القريحة دون أن تعباً به النفس،

ويسمح لك وأنت تسرده أن تشعر بما وراء قلبك من فكر مضر
 وخطر مستتر. فالحديث عن هذا العلم كالحديث عن الانغاز والمعميات،
 يروقك أن تبحث عن حلها ولا يهملك أن تجد. ثم حسبتني بعد
 المطالعة والمناقشة والتعليق أستطيع أن أميز بعض أصول هذا العلم
 النظرية، فاذا بي لا أستطيع الاجابة عن شيء، واذا بغريزة الوضوح
 في نفسى غير قانعة ولا راضية. فرميت بالكتب عند قدمي وانتظرت
 النور. إن هذا العلم لم يزل في طوره الأول، وهو من العلوم
 التجريبية لا بدله من عصور تمر ودهور تتعاقب. فالأعوام القليلة
 التى عاشها لم تبلغ به حد النضج، ولم تضمن له قوة التأكيد. إنه يبنى
 ولاية الأمور ببعض القواعد التى تقيم أود النظام، وتشد أواخى
 الصلات بين الأنام، وتضمن للأمم الرخاء والأخاء والسلام

٧٠

تلك كانت شواغل أيامي، وموضع فكري واهتمامي، لا أُرغب
 معها فى شيء، ولا أطمع بعدها فى حاجة. وما كانت رغبتى فى تولى
 منصب من مناصب الدولة صادرة عن نفسى ولا مترجمة عن هواي،
 وانما نشأت فى اطاعة لأرادة أمى المسكينة، وخفاة أن أنفق ماستها
 دون أن ترتجع منها رجعة صالحة فى تحسين حالى واصلاح أمرى.

وقد كان من الممكن حينئذ أن يجدوا لى سفارة فأترك باريس،
ويبوتوني قصرًا فأنجو من هذه الغرفة الخفية ، لولا أنى تعاميت
حتى لا أرى أبهة الجاد ، وتصامت حتى لا أسمع وسوسة الثروة ،
ووجدت السعادة الكاملة فى أن أعيش فى ظلامى على ذلك الشعاع
الذى لا يذكره الناس بينما هو يضىء ليلى ويشعله

كانت سعادتى تشرق حينما تغرب الشمس ، فأتعشى عادة وحدى
فى غرفتى على قطعة من الخبز وقُدة من اللحم المسلوق متبلة بالبقدونس
وشىء من سلطة البقول . ثم لا أشرب الا الماء القراح توفيراً لثمن
الزبد ، فكنت اتكاف لهذا العشاء الذى كان يكفينى ويكفى الكلب
الذى الفنى عشرين صديا . حتى اذا طعمت استلقيت على سريرى
استجماما من الإعياء واختصاراً لساعات الليل التى لا بد أن تمر قبل
أن تحين ساعتى وتبتدى زيارتى ، وهى الساعات التى ينفقها الشباب
فى المسارح والمواخير كدأبى أيام كنت خليع العذار من الصبابة
والعمل . ثم أستيقظ فى الساعة الحادية عشرة فألبس لباس فتي محتشم
يرى فى رشاقة قدمه ونضارة وجهه وتموج شعره غُنية عن الزينة :
حذاء نظيف ، ووشاح أبيض ، وحلة سوداء نقية من الغبار مشدودة
الازرار الى موضع البنية كحلل التلاميذ فى العصور الوسطى ، ثم
معطف عسكري مرسل الثنايا على الكتف الأيسر يصون الثوب

من دنس الطريق . ذلك كان لباسى ، وهو كما رأيت ساذج قائم لا ينم
على دخيلتى ، ولا يكشف عن حقيقتى ، ولا يشف عن سعة ولا ضيق ،
وانما يسمح لى أن انتقل من خلوتى الى جنتى دون أن أجذب الابصار
الى ما تستملحه أو تستقبجه . ثم أقطع المسافة على قدمى ، لأن أجرة
المركبة تحرمنى يوماً من حياتى . كنت أسير الهوينى فوق الأفاريز
وتحت ظلال الجدران لقاء لمطر السماء ووحل الطريق ، وحذراً من أن
ينم قدر ردائى ووحل حذائى عن مجيئى ماشياً . على اننى ما كنت
عجلان ، لأننى أعلم أن جوليا كانت تستقبل كل مساء أصحاب زوجها
فى البهو أو فى الحجرة ، فكنت أفضل الانتظار ريثما تنصرف آخر
مركبة من أمام البيت ، حتى لا ترتاب العيون فى هذه الزيارات الليلية
من فتى مجهول لفتاة جميلة ، وحتى لا يشاطرنى الخليون كلماتها ونظراتها
وهى مضطرة أن تعدل بين السامرين وتعمم السمر . لقد كان يخيل
الىّ اذا ما جالستها فى جماعة أن كل أمرئ منهم يسلبنى جزءاً من
حضورها ، وشعاعاً من نورها ، ويكون أهون علىّ أحياناً ألا أراها
من أن أراها وأستمعها وهى غير خالصة لى من دون الناس

كنت أنفد هذه الساعات وأنفقها فى الذهاب والإياب على

جسر من جسور السين قبالة بيت جوليا . ولا تسلى كم مرة
عددت الواح هذا الجسر في كل ليلة ! ولا كم قطعة من النقود
النحاسية القيتها في طبق السائل الكفيف الذى ألقاه الثلج أو المطر
الى سور هذا الجسر ! لقد كنت أرجو بفضل هذه النقود التى ترن
فى قلب هذا البائس أن يستجيب الله دعائى ويحقق رجائى فيعجل
بانصراف زائر ثقيل يؤخر أوان سعادتى ويكدر صفاء ليلتى . وكانت
جوليا قد عرفت منى النفور والامتناع من رؤية الأبعد عندها ،
فاتفقنا على إشارة تدلنى من بعيد على وجود الزائرين أو عدهم .
فاذا ما أغلقت مصراعى النافذة معالمت أن البهوغاص بالسامرين ؛
واذا أغلقت مصراعاً وفتحت الآخر دلتنى على وجود زائر أو اثنين
لا يلبثان أن ينصرفا ؛ فاذا روح السمار و خلا السامر فتحت المصراعين
وهضرت الستور ورأيتها من الشاطئ الآخر تجلس الى منضدتها
تقرأ أو تكتب منتظرة قدومى . فكان هذا النور المنبعث من
النافذة قيد عياني لا أحول بصرى عنه ولا أردده . وكان على ضالته
وخفوته أسطع فى عيني من الأنوار المنبعثة من الشبايك والمصابيح
والحوانيت والمركبات والقهوات ، بل كانت هذه الاضواء تقنى
وتحمى من عيني فلا أرى مصباحاً فوق الأرض ، ولا كوكباً تحت
السما ، غير هذا الشباك الصغير المستدير يرسل نوره الى كمين تحديق

فى وتبحث عنى فى هذا الظلام؁ فتجذب اليها أنظارى وأفكارى
ونفسى

ايه أيتها الانسان ! ما أغرب أمرى وأعجب حالى ! أحياناً يتسع
أملك وينتشر هوأى حتى يضيق عنهما البر والبحر والسهل والوعر؁
وأحياناً ينحصران ويتجمعان فى نقطة صغيرة منيرة تلمع فى ضباب
النهر؁ وتسطع فى خلال الأضواء الوهاجة فى المدينة الصخابة
العظيمة !! ولطالما رددت ذلك فى نفسى وأنا أسير الهوينى فوق
جسرى المظلم ! وكم طلبت الى الله وأنا أراقب هذا النور البعيد
أن يطفى مصابيح الأرض؁ ويكور نجوم السماء؁ فلا يدع غير هذا
النور الضئيل؁ وهو نجم حياتين وروح نفسين مرتبطين . ولو
أنه فعل لكفى هو فى رأى أن يضئ هذا الوجود وينير هذا العالم .
ولكن وا أسفاه ! لقد رأيت هذا النور منذ يومئذ؁ تخبواضواؤه
وذلك الكوكب الذى أشرق فى حياتى يخفت لألاؤه؁ فخدم لذلك
شبابى؁ وغشيت عينى؁ وأظلم قلبى ! رأيت المصر اعين يغلقان أعواماً
طوالاً على ظلام الغرفة الحزينة؁ ثم رأيتهما يعودان فيفتحان يوماً
من الأيام؁ فاطلمت لأرى من ذا الذى استطاع أن يعيش حيث
كانت تعيش : فرأيت فى يوم من أيام الصيف على حافة هذا
الشباك الذى يغمره النور؁ وترينه الزهور؁ فتاة لا أعرفها قد حمت

بين ذراعيها مولودا تضحكه وتناغيه وهي لا تدري أنها ترتع
وتلعب فوق ضريح ، وأن بسماحتها تتحول في عين بعض المارين
الى دموع ، وأن هذه الحياة التي تحياها سخرية من الموت وهزؤ
بالقدر ! ثم تعودت أن أغشى هذا المكان بالليل ، ولازلت الى الآن
أغشاه فادنو من الحائط بخطى الخائف ، وأمس ذلك الباب ، وأجلس
فوق المقعد الحجري ، وأنظر الأنوار ، وأسمع الأصوات ، ثم
أتصور أنى أرى مصباحها ، وأسمع نبرات أصواتها ، وانى ذهبت
فقرعت الباب ، وانها كانت تنتظرني ، وانى صعدت اليها ودخلت
عليها ! أوه ! ! واهاً لك ايها الذاكرة ! أنعمة أنت من نعم الجنة
أم نقمة من نعم السعير ؟

.....

ولكن عفواً يا صديقي ! سأعود بك الى مساق حكايتي
مادمت تريد

كانت جوليا قد عرفت بي شيخها ثانياً يوم قدومي الى باريس
فلقيني لقاء الوالد لولده الغائب ، لأنه عرف من قبل ما كان من
تلافينا في سثوا ، وما تبع ذلك من عهد الأخوة وتوثيق عرى

الحبة بائتلاف الهوى والسن والمأطفة ، ووقف على ما تبادلناه كل يوم من الرسائل ، وتناقلناه كل ليلة من الأحاديث ، وعلم نقاء حبنا الخارق للطبيعة على رغم الصلة الوثيقة والشباب اللجوج . ولقد كان شغله الشاغل وقلقه الشديد على سعادة ربيته وسمعتها وسلامتها . وكان يخشى أن تخدعها النظرة الأولى فتبه قلبها لمن لا يحسن فهمه ولا يستحق عطفه . فلما قرأت عليه نبذا من رسائل اليها قرأه قليلا وسكن . ولكنه عندما رآني قرأ ولا بد سطور الاخلاص على محياى ، وتوسم مخايل العفة فى أسرار وجهى ، لأن اللسان ربما وصف الكذب ، وأما الوجه فلا يقدح فى صدقه . نقدنى الشيخ بنظره وخصنى بالعين القلقة والنظر المختلس ، فكلما أدام النظر وأكثر السؤال تطأق وجهه ، وتفتحت عينه ، واطمأنت نفسه ، ومال الى يلاطفنى بالنظرات وهى أفضل وأجمل من الكلمات فى المقابلة الأولى . وكانت رغبتى الشديدة فى نيل رضا الشيخ ، والحياء الطبيعى الذى ينال الشاب فى مثل هذا الموقف ، وحضور جوليا بجانبى ، كل ذلك كان له أثر ظاهر فى هيئتى الوديعه ، ووجنتى المحمرة ، ونظرتى الحية ، فكان لسان حالى أفصح دلالة عنى من لسانى ، وأبين عن دخيلة نفسى من بيانى . فأخذ الشيخ يدي وأقبل على يقول بلمجة الوالد الحنون : « خفض عليك جأشك ياسيدى فقد ظفرت

فى هذا المنزل بصداقتين بدلا من واحدة . وما كان فى الامكان أن يوجد خير منك أخا لچوليا وولدا لى « ثم قبلنى وأخذ يتحدث الى كانه يعرفنى منذ الطفولة حتى دقت الساعة عشرة فأقبل خادم كهل فأخذ بيد الشيخ وانطلق به على عادته كل ليلة الى مخدعه

٧٣

كانت شيخوخة هذا الرجل جميلة نبيلة ليس وراءها مطمع ولا مطمح غير ضمان الدهر وأمان الغد . كانت شيخوخة نزيهة أبوية ، لا يقذى العين ولا يؤذى النفس أن تُرى بجانب هذا الشباب النضر . نعم إنها أشبه بظلال الليل على وضوح الصباح ، ولكنها ظلال حامية واقية لا تذوى هذا الشباب ولا تزرى بهذا الجمال . كانت لهذا الشيخ الجليل ملامح مطردة منتظمة كخطوط القطاعات الجانبية فى الأبنية الأثرية . يدقها الزمن قليلا دون أن يفسدها ، ونظر وديع ثاقب لعينين زرقاوين عبث بهما السكالل والجهد فهما تنظران من وراء ضباب لطيف ، وفم رقيق كأنه نصف كلمة ، ضاحك كبسمة الأب لأطفاله ، وشعر كزغب البجع فى رخصته وتكسره ، قد أشعل فيه الشيب طول الدرس وتقدم السن ، ويدان معروقتان بيضا وان كيدى تمثال سنيكا المرمى وهو

يجود بنفسه مودعاً بولين ، ووجه ظآن أعجف شاحب اللون
من طول ماكد عقله ، لا تجد فيه تعضنا ولا تضمرا ، لأن السنين
عرفت عظمه وأذابت شحمه ، اللهم الا أوردة زرقاء نازحة تتلوى
على صدغه الأسجج ، وجبين زاهر نحتت الفكر وصقله الرأي
فانمكست عليه من الموقد أضواء الذهب وهو آخر ما بقى من جمال
الرجل ، وخدر فاف البشرة شفاف اللون لأنه شاخ في ظلال البيت
فلم تلفحه ريح ولم تسفعه شمس ، وكلام نضيج مختمر يرسله في جمل
مختصرة مشرقة دقيقة مرن عليها لطول ماعانى من اختيار الصور
الكلامية لما يقول ويكتب . يقطع كلامه بالصمت الى فقر منتظمة
كأنما يملها حتى تمرق من اذن السامع الى ذهنه ، ثم يمزجه بالدعابة
الحلوة والهزل الرقيق تخفيفاً من ثقل الجد ودفعاً لسامة السامع

٧٤

لم تمض بضعة أيام حتى أشربت محبة هذا الشيخ الطريف
الكيس . ولو تنفس بى العمر الى عهد الشيخوخة لما تميت الا أن
أكونه . غير أن شيئاً واحداً فيه يؤلم نفسى ويفت كبدى كلما
رأيت . ذلك أنه يسير الى الموت بخطى هادية وهو لا يعتقد بالخلود
ولا يؤمن بالبعث ، لأن طول عهده بدراسة العلوم الطبيعية عود

فكره ألا يحكم إلا بالحس والا يصدق غير الواقع . فما لا يحس لا يعترف بوجوده ، وما لا يحصر ولا يعد لا يقوم عنده الدليل على ثبوته ، فالمادة والرقم هما في رأيه العالم . . فإلهه الاعداد ، ووحيه الظواهر ، وأنجيله الطبيعة ، وفضيلته الغريزة . وما علم أن الاعداد والظواهر والطبيعة والفضيلة ليست الارموزا هيرغليفيه على ستار الهيكل معناها المتفق عليه هو الألوهية . ذهن متوقد ذكي ولكنه عنود شرود ، يصعد في سلم العلوم بمهارة وحذق ، حتى اذا بلغ الدرجة العليا التي تؤدي الى الله وقف وحرن !!

٧٥

وكذلك الشيخ لم يلبث أن صفا الى بوده ، وأقبل على بوجهه ، وتطوع أن يعطيني من صبح الى صبح دروسا في العلوم العالية التي طيرت في الناس شهرته ، وأوجبت الآن راحته . فكنت آتية الحين بعد الحين في مكتبته صباحا فاجد جوليا قد سبقتني اليها ، فيكون ثلاثتنا منظر نادر مؤثر : شيخ جالس بين اكداس من الكتب العالمية والفلسفية التي استوعبت تناج العقول وثمار القرائح ، واستنزفت أيامه في حل رموزها وفتح كنوزها ، وشاب واقف وراءه يقبس منه أنوارها ، ويأخذ عنه أسرارها ، وفتاة نضرة الشباب رائعة

الجمال تمثل الفلسفة المثلية والحكمة العاشقة ، وتؤدي واجب التامذة
للشيخ وواجب الزمالة للفتى . فهي تحضر الكتب ، وتقلب الصفحات ،
وتشير بيناتها الوردى الجميل الى الفصول . فعامت وفهمت فى قليل
من الأيام ما لم أعلمه وأفهمه فى كثير من السنين . ولكن عاهات
الهرم الملازمة كانت كثيراً ما تقطع هذه المحادثة ، وتحرمانا هذه
المدرسة

٧٦

ولكننى واضطت على المجيء فى كل عشية أقضى هزيعاً من
الليل مع تلك التى أصبحت فى نظرى هى الليل والنهار والدهر
والخلود . كنت أغشى يتيها كما قدمت لك حين يخلو منتداها من
السامرين . وكان يتفق أحياناً أن أمضى الساعات الطوال على الجسر
أو فوق الرصيف واقفاً مرة وماشياً أخرى انتظراً انفراج المصراعين
أحدهما أو كليهما عن ساعة اللقاء . وكأين من موجة من أمواج
السين البطيئة المتخاذلة شيعتها بنظرى حتى توارت فى عيون الجسر
حاملة معها أضواء القمر الخفاقة ، أو أنوار الشبايبك البراقة !! وكم
ساعة أو نصف ساعة دقتها الكنائس القريبة والبعيدة فعددها ثم
لغتها اما على بطئها ، واما على سرعتها !! لقد كانت لى أيام سعد وأيام

نفس . فمرة كنت ادخل لا اتجشم الانتظار لحظة ولا أجد بجانبها
 الا زوجها يقطع بالحديث الحلو ساعات الاستعداد للنوم ، ومرة
 لا أجد عندها الا صديقاً أو صديقين من أولئك الذى يقضون
 صدر الليل فى سمر الصداقة ويمضون عجزه فى جدل السياسة . وكانوا
 عادة من بين رجال البرلمان ومصايق خطبائه مثل سوار وبونال
 ومُنْييه ولينيه ؛ وهذا الرجل من بين المعاصرين قد استأثر بأجلالى
 وحى ، لأنه صورة ناطقة لفضائل القدماء وبلاغتهم . فهو رومانى
 القلب واللسان والمظهر لا ينقصه الاشعار الرومان ليكون شيشرون
 أو كمتون عصره . ولقد رأيت له صورة الى فهو يختصنى أثناء
 السمر بنظرات حبيبة وكلمات عطوفة ، ثم أصبح منذ اليوم استاذى .
 فاذا كان لى فيما بعد وطن خدمته ، أو منبر صعدته ، فأنما الفضل كل
 الفضل لما رسخ فى نفسى من وطنيته وبلاغته

كان هؤلاء العضاء يتعاقبون حول المائدة الصغيرة وجوليا
 مضطجعة على كنبها وأنا جالس فى زاوية الغرفة بعيداً عنها لا أنطق
 بحرف ولا أومى بطرف ، وإنما أفكر وأقدر وأؤيد وأفند فى
 نفسى . فاذا وجه الى الخطاب انفرجت شفتى عن كلمات قليلة القىها
 بصوت خافت فى حياء وحذر . حتى كانت تعرض لى آراء أعتقدها
 تمام الاعتقاد فأجد حرجاً شديداً فى بسطها أمام القوم ، لأنهم كانوا

أعلى منى سنا وأسمى منزلة . واحترام السن والنبوغ والشهرة جزء
من طبيعتى ، فشعاع المجد يخطف بصرى ، وبياض المشيب يملك
قيادى ، ونباهة الاسم تستعبد نفسى ، وكثيراً ما صغرت من قدرى
وقالت من قيمتى بهذا الحياء ، ولكنى لم آسف على ذلك يوماً ما .
إن شعورك بسمو غيرك وتفوقه خير لك فى شيببتك وهرمك ،
لأنه يرفع فى نظرك المثل الأعلى الذى تطلبه ، والمطمح الأسمى الذى
ترغبه . أما الشعور بالكمال والاعتداد بالنفس فواقحة على الطبيعة
واهانة للدهر . وإن يكن الشعور بسمو الغير ضلالة ووهما فإن
أقل ما فيه أن يعظم الانسانية ويكبرها ، بدل أن يحقرها ويصغرها
لم يكثر لى أولئك الرجال فى بادئ الأمر ، وكنت أراهم
يميلون أحياناً على جوليا فيسألونها بصوت خافت عنى . وكأنما أعجبهم
منى وأدهشهم تلك السحنة المفكرة ، والهيئة المتواضعة المؤثرة ،
فاقتربوا منى وحولوا الى بعض الخطاب فى رقة ولطف تشجيعاً لى
من طرف خفى على الخوض معهم فى غمار الحديث . فكنت أجادبهم
طرفاً منه بالكلمات القليلة أعبى بها عن شكرى ثم ارتد سريعاً الى
ظلامى وصمتى مخافة أن تنشط المحادثة بالأخذ والرد فتطول .
وما كان هؤلاء فى نظرى الا اطاراً للصورة . والصورة وحدها
هى التى كانت مرمى بصرى ومسترق سمعى ومتجه هواى

ولشد ما تبهج نفسى ويخفق فؤادى حين أراهم يخرجون
وأسمع دروج المركبة الأخيرة تجاوز وصيد الفناء ! حينئذ أخلو
إليها ، وأنشر نفسى بين يديها ، وقد سجا الليل وسكنت الحركات
وخشعت الأصوات فلا تسمع أحيانا إلا كرا العجلات على الرصيف ،
أو غطيط البواب تحت السلم . تبدأ المناجاة بيننا باللحظ لا باللفظ
كأنما يتولانا الدهش من السعادة . ثم أدنو من المائدة التى جلست
إليها لتخيط عليها فيسقط المخيط من بين أناملها الذاهلة ، وتفتح
عينانا وتفرج شفتانا وينبض قلبانا ويزدحم الكلام على اللسان
ازدحام الأمواج على الفرجة الضيقة ، فيتلكأ بآدى ذى بدء فى
الجرىبان فلا تسيل افكارنا الاقطرة قطرة . لا نستطيع أن نعجل
فى اختيار ما نفصل الحديث عنه من الاشياء المتراكمة المختلطة ،
والآراء المتشابكة المرتبطة ، فيتفق أحيانا أن نظل صامتين من
حرج الموقف وفيضان القلب بالقول دون أن يجد متنفسا ولا
مفيضاً . ثم يأخذ الكلام فى التتابع والاثتال رويداً رويداً كظل
الغمامة يسبق الواابل المتهنون . ثم يتشقق الحديث بعضه من بعض
حتى يعب عابه فرسل الكلام فى وقت واحد ، فيخرج مختلطاً

مضطرباً لا تعرف له نظاماً ولا جواباً ولا نتيجة . لقد كان كل منا يسابق الآخر الى التعبير عن عاطفة مشتركة ، ويظن أنه هو الذى سبق الى احساس هذه العاطفة منذ حديث الليل أو رسالة الصباح ، ولكن هذا الفيضان الصاخب الذى كان ينتهى بنا الى الخجل أو الضحك كانت فورته تسكن آخر الأمر ، ثم يعقبه سقاط الحديث الهادئ نطر به الفضاء ونكشف به عن أغوار القلب . ذلك كان انسكاب نفس فى نفس ، وتبادل طبيعة وطبيعة ، واستحالتها فى واستحالتها فيها ، بما يننا من اتصال متبادل فى الحياة والحس والفكر . أبداً لا تجمد مثلينا مخلوقين غفيفى الطرف نزيهى الفكر يتصون كل منهما عن الاصحار بقلبه ، والاعلان عن حبه أمام الآخر . على أن نفسينا كاتتا عاريتين لا يسترهما حجاب ولا يحجبهما نقاب . ومع ذلك ظلتما طاهرتين كالنور يطهر كل شىء ولا يدنس شيئاً . وما كان موضوع الحديث غير هذا الحب العفيف الذى يطهر نفوسنا كلما صهر جسمونا ، ذلك الحب الذى يستمر تجدد بفضله طهارته ونقاؤه دون أن يتغير نوره فى النفس ، ولا سروره فى القلب ، ولا بهائوه فى العين ، فهو لا ينفك زهرة نضرة ، وريحانة عطرة ، ونشوة خالصة ، لأننا أبداً لا نقطف ثمرته

ظهر هذا الحب وعُلن في كل صورة من الصور التي مكن الله بها النفوس من أن تتعارف وتتآلف . فمن نظرة تنعكس فيها نفوسنا وتتردد ، الى غمضة تنطبق على صورنا فلا تتبدد ، ومن سقم باد الى هذيان متصل ، ومن زفرة محرقة الى آهة صارخة ، ومن صمت طويل شامل الى كلام دافق لا ينقطع مدده ، ولا ينتهي أمدّه ، يقطع النفس ويجفف الريق ، ويتحرك به اللسان ، دون أن تسمعه الآذان ، ثم هو بعد ذلك لا شيء غير العجز عن تصوير ما يستحيل تصويره . . .

كنا كثيراً ما نتحدث الساعات الطوال بصوت منخفض والمرفق على المنضدة ازاء المرفق ، والوجه بجانب الوجه ، والبصر غائب في البصر ، ونحن نظن أن المحادثة لم تدم أكثر من رجوع النفس أولمّح البصر ، ونعجب العجب كله أن يسرع زماننا بمقدار ما يسرع كلامنا وأن تفاجئنا الساعة بدقات الوداع ! كانت تلك الأحاديث تدور تارة على الفروق الطفيفة بين طيعتنا وآرائنا ، والمشابهة القوية بين رغباتنا وأهوائنا ؛ وتارة على اعترافاتنا الخجولة نعب عنها بأناات القلب الكسير ، ولوعات الكبد القريحة ؛ وطورا على اكتشافنا لتلك

المواطن المتحدة التي تتجاوب في قلوبنا تجاوب الاصداء، وتنعكس
فيهما انعكاس الأضواء، ثم ينتهي بنا الأمر الى وهن الجلد وخور
العزيمة متأثرين من ذلك الاتحاد العجيب، باكيين من ذلك الشعور
الجميل، بأننا نفس في صورتين، وروح في جسمين !

٧٩

وما كان أطيب للنفس أن نعود بالحديث في أكثر الليالي
الى ذكرى الأماكن والظروف والساعات التي درج فيها غرامنا
وشب، كما تنتثر لآلىء العقد من جيد الفتاة فترجع أدراجها لتلتقطها
واحدة فواحدة والرأس خافض والعين محدقة !! . وما كنا نريد أن
تمحي من ذاكرتنا تلك الأمكنة ولا تلك الأزمنة مخافة أن يمحي
معها شعورنا بتلك السعادة الخالصة والهناء المحض

ذكرنا جبال سقوا ووادي شميرى وبحيرة بورجيه وما بين
أولئك من شلالات وثلاجات وسيول ومروج وشجر، وما نعمنا
به فيها من لقاء وتعارف وتآلف وحب وسمر . ذكرنا ذلك وأعدناه
وفصلناه دون أن نجد ثقلا في اعادته، ولا مللا من تفصيله، كأنما
كنا نحكي حديثاً لا يتعلق بنا ولا يتصل بحبنا

واهاً لك أيها القلب ! ما أكثر عجائبك وأبعد رغائبك !

انك لجوج طموح لا يفوتك ممن تجب لحظة ولا لفظة ، ولا يخفى
عليك منه معرفة ولا نكرة : مع أن ايفالك في تقصيه تأجيج
لنارك وتسعير لجواك !

٨٠

وفى بعض الأحيين كان الأسى يدهم جوليا على غرة فنتحرق
ضلوعها ، وتهمردموعها ، حزنا على ما أكابد جرّأها من عناء ووجد .
فهي ترانى وقد قضى على هذا الموت المائل بينى وبينها الا أجد فيها
غير شبح للسعادة وظل للهناء اذا ضمنت ذراعى عليه انمحي وتبدد .
لقد كانت تتوجد وتتأوه وتهم نفسها بأنها شغلت فؤادى بحب
لا يدينه من غبطة ، ولا يعده لمسرة ، وتقول : « واشوقاه الى الموت !
انى أريد أن يعجل الىّ وأنا شابة محبوبة ما دمت لا أستطيع أن
أكون لك الا حقيقة من مرارة الحب ، وخيالا من حلاوة الغبطة .
فانا سراب فى يدك ، وغليل فى كبلك . ومن العجب أن يسوق
القدر المنحة والمحنة والسكره والحسرة فى سلك واحد . ليقتلنى
الحب ولتعيش أنت لتنعم بحب يلائم طبعك ويناسب قلبك . انى
اذا مت أكون أقل شقاء منى اذا عشت شاعرة بأنى أحياء بموت
سعادتك وشبابك ، وأنعم بالحياة بفضل أملك وعذايك » فاجبتها

وأنا ملى المرتجفة تموّه عبراتها المسفوحة : ما أقبح ما تتحدثين عن
هذا النعيم المقيم ! وما أسوأ ما تظنين بذلك الذى شرفه الله بأن
يعرفك ويفهمك ويحبك !! الاتعامين أن لى من هذه المدامع الحارة
التي يسكبها قلبك الآن على يدي بحراً من الحنان والغبطة أجد في
ريه من اللذة والبهجة اضعاف ما أجد في تلك المذاذذ البهيمية السوقية
من المسرات الاثيمة والمتع العقيمة ؟ هل علمتني أو سمعتني يوماً ما
ولو في ساعات هذياني أعتب على القدر في أن رفعني بك ولأجلك
فوق مستوى البشر ؟ انما جعلني القدر أعبد فيك الجمال الروحي
الخفى المجسد ، لا تلك المرأة التي تُضم وتُشم ثم تتصوح وتذوى بين
الأحضان الفانية . ألم تستطع تلك النار القدسية التي تتقد في قلبي
وجسمي أن تأتى على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة ؟ ألم
تحولني تلك النار الى لهب صاف كقلبك نقى كحبك ؟ أولى لك
يا جولييا !! اتخذي من نفسك عن نفسك فكرة تكون أوفق لك
وأليق بك . ولا يبكينك الألم الذى تظنين انك أصبتني به وجررته
على ، فاني لا أحس ألماً ولا أستشعر ندماً ولا أجد في قلبي غير
السعادة الفياضة والسرور الدائم والهدوء الشامل والنوم الذى لا يخالطه
الا طيفك . أنا أتألم ؟ ليتني وفقت الى هذا الألم ! فاني كثيراً ما
تمنيت أن أذوقه وأكابدّه لأجعل منه لله قرباناً على ما أولاني منك

ولولم يكن غير البكاء والحرمان . لأن الألم فى سبيلك هو وحده الذى
يستطيع أن يزيد فى كأس هنائى المترعة قطرة . فكيف تُسمين
مثل هذا الألم ألماً وهو لذة ! لا لا يا جولييا ! الحق أن الحياة على
مثل هذا موت ، ولكنه موت سنين معدودة فى هذه الدار الفانية ،
ليتسنى لنا الحياة السعيدة فى تلك الدار الباقية

٨١

فصدقت ما قلت ونقعت به نفسها ، لأنه صدر منى عن اقتناع
وصديق . ثم افترقنا وقد تزود كل منا من اللحظ واللفظ ما يغذى
به عواطفه ، ويقوى به عزائمه ، على احتمال البعد طول اليوم . فلما
بلغت الباب تطلعت فاذا هى محنية على حاجز الطنف بين الأزهار
تشيعنى ببصرها . وظلت واقفة ما أمكنها من رؤيتى ضباب السين .
ومضيت أنا كلما خطوت ثمانى خطوات تلفت فأرسل اليها نفسى
الطائرة ، ونظرتى الحائرة ، وزفرتى المتقدة . وكان يخيل الى انى
مقسم موزع : ففكرى معها لا يبرح ، وجمانى يسير فاقد الارادة ،
بطيء الخطى ، يتلمس فى ظلام الشوارع المقفرة باب الفندق

على هذه الحال قضيت أشهر الشتاء السعيدة لا يكاد يختلف يوم عن يوم الا بمطالعاني المتنوعة ، وانفعالاتي المتجددة ، حتى التمتعت بتباشير الربيع على أعالي البيوت ، وانصاح بياض السماء في أرض باريس المظلمة الرطبة . فسافر صديقي (ق) إجابة لدعاء أهله ، وخلفني في الغرفة وحدي بعد أن وعد بالجوع مع الخريف . ونقد المالك أجرة السكن العام كله حتى لا يحرمني كرم عنايته وحسن ضيافته أثناء غيابه . فأورثني بعده كربا وغممة ، وأعوزني من استريح اليه بمكنون صدرى وأناقله عن جوليا أطيّب الحديث . ثم ورد على من أمي أن أبي رزى في ماله وأصيب في رزقه فأعسر بعد يسر ، وأبأس بعد نعيم ، وأصبح المنزل الخصيب المضيف مهبط الاملاق والعدم . فاضطر الى انقاص مرتبي الى النصف حتى يستطيع ولو بشق النفس أن يعول ستة أطفال أخر . وأخبرتني أن لا مناص من احدى اثنتين : اما أن أعجل فأكسب لنفسي من طريق شريف ، واما أن أعود الى بيت الاسرة فأقاسمها قوتها وأعيش معها عيش الكفاف والرضا . ثم كانت تهون على وقع هذا التنبأ الفاجع بما تظهره لى من شدة العطف على ، وازدياد الشوق

الى ، وما تصوره لى من جمال الريف وبهجة الحقول ونضرة
الزروع وهدوء المعيشة القروية

ومما زاد الطين بلة ، والقلب علة ، أن نفرا من الاخذان الذين
لبستهم فى عهدى الخالى على موائد القمر ، وسابقتهم فى ميادين
الاهو والخر ، مسهم الضر وعضتهم الفاقة فلقوني فى باريس فذكرونى
ما لهم على من يد سابقة ، ورجوا أن أساعدهم من فضل ، أو أواسيهم
من كفاف . فبسطت لهم يدي بالعرف حتى سابوني أكثر ما ادخرت .
فلما أوشت الراحة أن تصفر والكيس أن يفرغ ، فكرت فى ابتغاء
الثروة من وراء الشهرة ، فنشب فى نفسى عراك شديد بين الحياء
والحب ، فهذا يدفع وذلك يمنع حتى تغلب الحب ، فعمدت ذات صباح
الى المخطوط ذى الغلاف الأخضر ، وهو ديوان شعري ومناسط
أملى ، فوضعتة تحت ثيابي وذهبت به أقدم رجلا وأؤخر أخرى الى
طباع شهير وقع اختيارى عليه دون غيره ، لأنه فضلا عن شهرته
فى عالم الطباعة أديب مذكور فى عالم الأدب . فلما بلغت بابه
وقف بنى الحياء وصدنى الخجل فكدت أرجع أدراجي لولا أن تمثل
لى وجه جوليا الجميل فشجعنى على التقدم ودفعنى الى الدخول .
فدخلت على السيد (د) . . . وهو رجل ناضج السن مجتبع الأشد ،
له دقة التاجر وسخنته ، وإيجاز الحريص على الوقت ولهجته ، فلقيني

لقاء جميلا وسألني عما أريد . فغمغمت بالكلام طويلا ودرت به حول الغرض حتى يفرخ روعى فأتبين وجوه القول . فلما ملكت نفسي أخرجت من بين ثيابي نسخة الديوان ووضعتها بين يديه بيد مرتجفة ونفس خاشعة وقلت له : اني نظمت هذه القصائد وأود أن أطبعها رجاء أن يكون لي من ورائها قليل من المجد، والامهدت لي على الأقل السبيل الى رجالات الأدب فاخطب ودهم وأكسب عطفهم . وسألته أن ينشرها على نفقته اذا رأى أن سيعود عليه منها عائدة ، ويستفيد الناس من قراءتها فائدة . فابتسم الرجل ابتسامة تنبئ عن التهمك والطيبة ، وتناول الديوان باصبعين مرتنا على تصفح الكتب وتقليب الورق ، ثم وضعه على المنضدة وسألني المهلة الثمانية أيام قبل أن يقطع الرأي فيه . فشكرته وانصرفت

كان اليوم من هذه الأيام الثمانية يمر على وكأنه في طوله قرن . وكانت ثروتي وسمعتي وأمل أمي وحياتي ومماتي قد تجمعت كلها في يد هذا الرجل . فتارة كنت أتمثله يقرأ هذه الأشعار وبه من النشوة والصبوة ما كان بي ساعة ألهمتها وأنا في بلادى فوق قنن الجبال ، أو على ضفاف السيول ، فيجد فيها ما سكبت من عبرات عيني ، وحسرات نفسي ، وقطرات دمي ، ثم تجمع من حوله صحابته من صفوة الأدباء فيشددهم هذه الأشعار فيطربون منها ويصفقون

لها ، وتارة يدركنى الخجل ويصيبنى الندم من عرضى هذه البضاعة المزجاة على مثل هذا الرجل ، وكشفتى عن عجزى وعوزى سعييا وراء أمل كاذب من الفوز قد يتحول من المسرة والسعة ، الى المذلة والضعة . ولكن الأمل كان يتقلب على اليأس ، وينبلاج صبح الرجاء فى ظلام النفس ، فتجدونى الأحلام وتقودنى المنى من ساعة الى ساعة حتى انقضى الأجل

٨٣

وفى اليوم الثامن صعدت السلم الى الطباع وأنا مشرد الفكر مببل الخاطر . فلما بلغت الدرجة التى أمام الباب لبثت طويلا لا أجرؤ على قرعه ، حتى خرج أحد الناس فتركه مفتوحا فلم أجد بدا من الدخول . دخلت على الرجل خياني وأجلسنى وأخذ يبحث عن كتابى بين اكدياس من الورق ثم قال : لقد قرأت كتابك ياسيدى فوجدت له حظا من القريحة والذكاء ، ولكنه خال من البحث والدرس . إنه لا يشبه شيئا مما ينشرو ويؤثر عن شعرائنا . ولا أدرى من أين أخذت هذا الاسلوب ، واقتبست هذه الآراء ، ونقلت تلك الصور ، التى لا تجرى على سنن القواعد المعروفة ، ولا تدخل فى باب من الأبواب المألوفة . على أنها وا أسفاه سلسلة عذبة .

فأعرض عن هذا التجديد الذى ينكره الذوق الفرنسى ، وأقرأ
لفحول أدبنا أمثال دليل وبارنى وميشو ورنوار وفتان ممن يجلبهم
الشعب ويفخر بهم الأدب . تشبه بأحدهم اذا أحببت أن يعرفك
انسان أو يقرأ لك أحد . انى اذا أشرت عليك بطبع هذا الديوان
أكون قد دلست عليك الرأى ، ولم أتحرك لك وجوه النصيح . واذا
قمت أنا بطبعه خدمتك شرخدمة ، واتخذت عندك أسوأ صنيعه » ثم
نهض من مقعده ورد الى النسخة ، فأخذتها وغيبتها فى ثيابى دون أن
أحاول معارضة القدر أو محاولة القضاء ، فانهما كانا يكلمانى بلسان
هذا الرجل . ثم شكرته وحييته وزلت السلام وجفونى مخضلة
بالدموع ، وأعضائى تكاد تنزائل من الهم . وأقسم لو كان يدرى
ذلك الرجل الطيب القلب الرقيق الشعور ان ذلك الشاب لم
يأت مستجديا مالا ولا شهرة ، وانما جاء وكتابه فى يده ينشد
الحب والحياة ، لما تردد فى طبع هذا الكتاب ، ولما ارتجى من غير
الله جزاء ولا صلة

ثم عدت الى غرفتى وأنا أتعثر فى أذيال اليأس . فأنكر الصبي
والسكاب ما بى ، وعجبا اذ رأيانى لأول مرة مكفهر الوجه طويل

الصمت . ومضيت الى الكانون فأوقدته ثم القيت فيه الديوان كله
ورقة ورقة لا استثنى منه شيئاً . ولم استثنى ؟ وهذا كله لم يستطع
أن ينيلني يوماً واحداً من أيام صفوى وحى !! وما يضرني أن
تأكل النار فيما تأكل خلود اسمي ، فاني أرى الخلود في الحب لا في
المجد . وفي ذلك اليوم خرجت عند اقبال الليل فبعت ماسة أمي
المسكينة ، وكنت لا أزال محتفظاً بها رجاء أن أجد في شعري فداء لها
وغنى عنها فأردها اليها صحيحة سالمة فلما كذب الرجاء وأخطأني رائد
التوفيق دفعها الى الجوهري ، وقد أشبعها بالقبل ، وبلاتها بالدموع ،
حتى ترقق قلب التاجر وتحقق من حزني البادي وعبرتي المسكوبة
أن الماسة غير مسروقة . ولما نقدني الثلاثين ديناراً ثمنها تخازلت
أناملي عن قبضها ، فتبددت على الأرض كأنها مكسب حرام . ولطالما
وددت بعد ذلك بجذع الأنف لو استرد هذه الماسة العزيرة ببذل
أضعاف أضعافها مما أملك من نفائس المال والحلى ، ثم أردتها الى أمي ،
فإنها ضوء حبها ، وقطعة من قلبها ، وآخر دمة من عيناها . آه ! ليت
شعري أية أصبع تحتمت بهذه الحلية ؟

ورد الربيع مفضض السماء مذهب الأرض منضور الجنبات

مسكى النسيم ، فامتلاّت حدائق التويلرى بالتبطلين ذوى الدعة ،
وكثر خروجنا للاستراحة فى مراتع الجمال ، والاستراحة فى منازحه
الطبيعة . فكنت اذا أرسلت الطرف من فوق الجسور الى ما وراء
الأفق رأيت هضاب (فلورى) و(ماندون) و(سنكلو) تكسوها
الخصرة المتموجة ، وتشقهها الخطوط المتعرجة ، فتستشعر نفسى
الندم على أن فرطت فى جانب الطبيعة ستة شهور . فاذا ما سجا
الليل بزغ القمر وتكسرت أضواؤه الزاهرة ، على أمواج النهر
الفاترة ، وكشف فى طرف السين عن دروب زاهرة ومناظر
ساحرة يضل البصر فى أبجرتها الكثيفة ، وظلالها الوريقة ،
وتسير النفس وراء العين كرها مأخوذة بفاتن جمالها . وكانت وجوه
الحوانيت وخوارج الطنوف والشبايك مغطاة بأصص الأزهار
يفغم السابلة عبيرها الطيب وأريجها الشذى ، والزهارات فى زوايا
الطرق وأفواه الجسور جالسات خلف أستار من التبت المزهر
يحركن بأيديهن اضغاث الرياح كأنما يردن أن يعطرن المدينة ،
وموقد النار فى غرفة جوليا قد تحول الى غيضة صغيرة من نبات
الأشنة ، والمناضد والموائد قد ازدانت بزهريات البنفسج والسوسن
والورد ، وغير ذلك من أزاهير الربيع المسكينة التى خرجت من
روضها ، وتزحت عن أرضها ، فكانت أشبه بمصافير السنونو أقحمها

النزق داراً من الدور ثم أعيها الخروج فأخذت تدور من جانب الى جانب ، وتتخبط من حائط الى حائط ، وبنو الدار لا يدركون من دوراتها وثوراتها غير البشارة بقدوم ابريل الجميل !

تضوع الطيب من هذه الرياحين والأزاهير فملاً الخياشيم والقلوب ، فذكرنا بهذه العطور والصور تلك الطبيعة البهيجة ، والأودية الاريحية ، التي تساقينا فيها كئوس الهوى مترعة صافية ، ونعمنا فيها بطيب الحياة الخلوية الراضية ، وقد كنا نسيناها والأيام عابسة ، والسماء طامسة ، والجوقارس ، والافق مغلق ، واناوهى جالسان في تلك الغرفة الضيقة لا نشعر بالوجود ولا تفكر في الناس ، ولا نذكر أن هناك سماء وشمسا وطبيعة غير ما يتصور كل منا في الآخر . فاما أقبلت أيام ابريل الجميلة ذكرتنا إياها ، وازعجتنا بذكرها ، وحركت في أنفسنا عوامل الوجد ، ودعتنا بدافع الغريزة الى اجتلاء انوارها ، واقتطاف أثمارها ، في الغابات والخلوات من أرباض باريس ، اذ نكون أدنى الى الطبيعة وأقرب من الربيع . فكان يخيّل لنا ونحن ننعم معا بلذة الاستراحة في غابات (فنتينبلو) و (قنسين) و (سن جرمان) و (فرساي) انا وجدنا غاباتنا وأموهنا من وديان الألب ، أو على الأقل وجدنا شمساً كشمسها ، وظلا كظلمها ، وعرفنا في خفيف الأغصان أنين هوائها

وكان من أثر الربيع الذى رد الى السماء رونقها وصفاءها ،
ولازرع حياتها ونماءها ، ان أعاد كذلك الى جوليا بهجة القلب ومرح
الصبا وجمال الشباب . فترق ماء الحياة فى وجنتيها ، وقوى بريق
الفتنة والجمال فى عينيها ، وازداد كلامها خلاصة ونحو لها رقة ومشيهـا
خفة ، وألهبها حمى الحياة فتتابعت كلماتها ، وتسارعت حركاتها ، وبدا
على جوارحها القلق ، فهي أبدا لا تسكن ولا تستقر . وكانت اذا
أمسى المساء تركت الستائر مهصورة ، والنوافذ مفتوحة ، وأقبلت
من لحظة الى لحظة تطل من أحد الشبايك فتتنسم طراة الماء
وأشعة القمر وعبير النسيم . فقات لها ذات ليلة وهي على تلك
الحال : ما أولانا أن نجعل لأنفسنا أعياداً من هذه الأيام السعيدة !
فان الله لم يجعل السموات ولم يزين الأرضين الا لداكرين الشاكرين
من عباده ، ونحن أقوى الناس شعوراً ، وأجزلهم شكوراً ، فلا
يزكو بنا أن نكون أول من عمى عن جماله ، وفرط فى واجب افضاله .
فلننغمس معاً فى هذا الهواء وذلك الضياء ، ولنغص فى ذلك المحيط
الزاهر بالنبات والحياة الذى طبق الأرض فى هذه الساعة . هلم
لنرى هل تغير ما عهدناه فى أنفسنا من وقدة الحس ، وفيض الشعور ،
وقوة الإدراك ، واضطرام العاطفة ، فوق جبال سقوا أوعلى أمواج

البحيرة . فقالت لى : أجل هلم ! فانا لن نشعر أكثر مما شعرنا ،
ولن نتحاب أكثر مما تجايبنا ، ولكننا نشهد على سعادة قلوبنا
رقعة من الأرض وبقعة من السماء غير تلك البقاع التى شهدت ذلك
الحب ورأت تلك السعادة

ثم شجعنا الشيخ على هذا التجوال فى الغابات الخضرة ، والتمائل
النضرة من ضاحية باريس ، رجاء أن يكون لنفحات الحقل ، وملابسة
الشمس ، ورياضة الجسم ، فى نقاء الهواء وسكون الخلاء ، أثر حسن
فى تهدئة أعصاب جريلا وانشراح قلبها وانبلاج صدرها . فكنت
أغدو عليها ساعة الظهيرة من كل نهار فأخرج بها الى الخلوات فى
مركبة مقفلة اتقاء للعيون ودرءا للظنون ، ولا نزل منها الا عند
مداخل الغاب ، أو على سفوح الهضاب ، أو لدى أبواب البساتين من
ضواحي باريس . ثم نبحت فى فلورى ومندون وسثر وساتورى
وفنسين عن الأماكن المهجورة التى وشتها يد الطبيعة بأفواف الزهر ،
وغشتها بمنصور النبت ، وطهرت من أوضار الناس وضوء الحياة ،
اللهم الا بعض الأطفال أو بعض النساء يشققن الأرض بأسلحتهن
ليقلعن منها الهندبا ، ووعدة وجلة تأتى الحين بعد الحين ترى ،
فاذا لمحتنا فى العريش انطلقت عادية مذعورة . كنا نسير صامتين
إما متعاقبين وإما متنازعين ذراعها تحت ابطى . فاذا ما تكلمنا جامنا

الأحلام وتمنينا الأمانى وتصفحنا وجوه المستقبل ، ثم قطعنا
مختلف الزهر فتبادلتنا لغة ، وصورناه عواطف ، وأودعناه ذكرياتنا
ونظر اتنا وزفر اتنا وصلواتنا ، ثم احتفظنا به لنعود اليه اذا حم الفراق
فندكر به تلك الأحاديث العذبة والأمانى الحلوة . ثم كنا نجلس
فى الظل على حافة الطريق فنفتح كتابا نقرأ فيه فلا نستطيع أن
نأتى على آخر الصفحة ، فنلقيه ونفضل عليه أن نقرأ فى وجوهنا
ما يختلف عليها من شتى المعانى وجم الصور . فاذا مسنا الجوع
ذهبت الى ما يجاورنا من الضياع فاحتلت شيئاً من اللبن والخبز
الاسمر فأكلناه فوق العشب ثم صبينا فضلة الاقداح الى النحل ،
وثرنا فتات الخبز الى الطير . حتى اذا تضيفت الشمس الى الغروب
عدنا الى صخب باريس وضوضائها ، فينقبض الصدر ويستوحش
القلب ، فأبلغ جوليا بيتها وهى نشوى من بهجة اليوم ، وأرتدأنا
الى غرفتى الخالية منهوكة من الغبطة متساقطة من الجذل ، فأضرب
بيدى حوائطها الأربعة عسى أن تتصدع فتزد الى ما سلبته من
النور والطبيعة والحب ، ثم أوقد المصباح واتعشى من غير شهية ،
وأقرأ من دون روية ، ثم أفزع الى تعداد الساعات مترقباً حلول
الساعة التى أذهب فيها اليها ، لأنعم بالمثل بين يديها ، وأسأل الليل
أن يعيد علىَّ أحاديث النهار

كننا نعيد اليوم ما بدأناه بالأمس من استراحة واستراحة .
ولا تسل عما أحدثته بما يتى من السمات في جذوع الأشجار التي
تقيأتها واستنشيت في ظلالها نسمة من الحياة ، أو شعّة من الشمس ،
أو نفحة من أريج الغاب . سيري المار هذه الاشجار دون أن يدري
أنها عند بعض الناس أعمدة لهيكل مقدس على الأرض عابده ، وفي
السماء معبوده . هيهات أن أنكر ما حيت هذه الأشجار ! ولا زلت
الى اليوم أزورها مرة أو مرتين في كل ربيع . وإذا ما وقعت
عيناي على الفأس تجذفروعها ، وتقضب جذوعها ، أحسست أنها
تعمل في الحى وتقطع من حشاى

على هضبة شاهقة من جنبات (سن كلود) تشرف على سهل
(اليسى) ومجرى السين وضريق فرساي كان مراحنا ومغدانا . فكنا
نتمتع فوقها بعلو القمة وسكون الوادى وهدوء الخلاء ، ونتملى
فوق ذلك بما يكتنف المكان من مروج وزروع وسفوح لا يكدر
صفوها جلبة ، ولا يقطع سكونها حركة . وهناك تتردد الانفاس

منتظمة في الصدر ، وتتوارد الأصوات محددة واضحة على الأذن ،
وتطير النفس طليقة مترامية في أفق الحياة . صعدنا اليه ذات صباح
من شهر مايو والغابة يومئذ لا يغشاها الا الظباء الشواذن يشبن
ويعرحن على مماشيتها المقفرة الخلاء ، وبعض حراس الصيد يجتازونها
من حين الى حين كالنقطة السوداء في أقصى الأفق .. وكان
مجلسنا تحت الشجرة السابعة التي تتم بها نصف الدائرة في ملتقى
الطرق من الهضبة ، فوق أريكة طبيعية من العشب متكأها الشجرة
وظلها الاغصان . وكان الضحى نقى الهواء رفاف الاديم ، والشمس
في سمائها الصافية تمد الهضبة الشجراء بأشعتها المحرقة ، والطبيعة
خرساء لا تاعو فيها لاغية ، فلا تسمع الا نثار أوراق الشتاء الجافة
المختلفة أسقطها نبض الحياة في عروق الشجر لتنبت مكانها الاوراق
الجديدة ، واصطفاق أجنحة الأطيوار حول أعشاشهن في الاشجار ،
وأرائين الذباب أتمله الضوء فهو يبدو ويختفى زمراً كالغبار كلما تموج
النبات المزهر

كان بين شبابنا وشباب العام وشباب اليوم اتحاد عجيب .
وكان بين احساسنا وبين هذا الضوء اللاأواء ، وتلك الحرارة الممتعة

وذلك السكون المتقطع ، وهذه البهجة الشاملة ، توافق تام ، حتى
حسبنا أنفسنا قد امتزجنا بهذا الهواء وهذى السماء ، واستحلنا الى
هذه الحياة وذلك الهدوء ، واستولى كل على أخيه تمام الاستيلاء ،
ووجد في فكره وحسه الكفاية والغناء . وما كنا في حاجة الى
الكلمات نترجم بها عن افتدنا النابضة ، وعواطفنا الفائضة ، لأننا
كنا أشبه بالاناء الطافح كلما ازداد فيضه ازداد ركوده . لم يبق في
قلبيننا مكان لحس ولا موضع لاختلاجة ، على أنهما عظاما حتى وسعا
كل شيء ، ولا شيء مما استوعباه يريد أن يخرج . لذلك صمتنا حتى
يعييك أن تسمع أنفاسنا تتردد

لا أدرى كم ساعة لبثنا صامتين ساكتين تحت هذه السنديانة
قد اعتمد كل منا رأسه بيده وقد مد رجليه فوق العشب الضاحي ،
ومدت الافنان على جبينينا ظلها السجسج . الا أنني حين رفعت
رأسي كان الظل قد انسحب عن ثوب جوليا وانبسط أمامنا فوق
الخرصة . فنظرت اليها ورفعت هي أيضاً رأسها تنظر الى كأنما
دفعها الى ذلك ما دفعني ، وكأنما حاولت الكلام فعى به لسانها
فانفجرت باكية . فقلت لها بصوت خافت متهافت مخافة أن أزيد
في تأثرها ، أو أخرجها من تفكرها : مم تبكين ؟ فقالت : من
الغبطة !! ثم جرت على شفتيها ابتسامة حلوة كما جرت من عينيها

عبرات كأنداء الربيع فوق الورد . وعادت الكلام تقول : أجل
أبكي من الغبطة ! فإن هذا اليوم ، وهذه الساعة ، وهذا المكان
الساكن الهادئ ، وهذه الخلوة الصامتة معك ، وذلك التماثل الذى
مزج نفسينا فجعلهما نفساً واحدة لا تقتقر الى لغة ولا تختلف فى
شعور ، أ كبر من أن تنحمله طبيعة بشرية يقتلها فرط السرور
كما يقتلها فرط الألم ، وتئن لأنها لا تملك الأنين ، وتبكي لأنها
لا تستطيع الشكر

ثم سكنت هنيهة وعلت وجنتها حمرة ونضرة ، فارتعد جسمى
خشية أن يأتى الموت ساعة تفتجها فيقطعها . ولكننى اطمأنت
حين نادتنى بلهجة الجد والعزم كأنما تريد أن تعلن الى خيراً جديداً
طال انتظاره . قالت : رفائيل ! رفائيل ! لقد صدقت أن الله موجود .
فقلت لها : وما الذى قرر فى نفسك اليوم هذا المعنى أكثر من
كل يوم ؟ فقالت : الحب ! نعم هو الحب الذى أشعر بسيوئه الآن
تندفق فى قلبى هادرة فياضة . وما عهدت نفسى من قبل قد شعرت
هذا الشعور القوى الرضى الهادئ . كلا ! لم يعد فى قلبى موضع
للشك . فإن ينبوع الذى يفيض منه هذا النعيم على القلوب ليس
من ينابيع الأرض ، فلا يعتره نضوب ولا يدركه عدم . فلا بد من
اله ينبثق عنه هذا الحب الخالد ، وما حبنا الا قطرة منه ، وسينتهى

بنا الأمر الى أن نختلط معا بهذا المحيط الالهى الذى اغترفنا منه ،
وما ذلك المحيط الا الله . لقد رأيته وأدركته وفهمته فى هذه اللحظة
بفضل سعادتي ومعونة ذبطني . فما أنت يا رفايل الذى أحبه ، ولا
أنا التى تحبها ، وإنما هو الله الذى تعبده فى وأعبدته فيك ، ويعبده
كلانا فى هذه العبرات التى نسكبها من الغبطة الدائمة والنعيم المقيم .
فلنمح هذه الاسماء الباطلة التى سمينا بها هذا الميسل المتبادل الذى
بيننا . فليس بعد اليوم الا اسم واحد يدل عليه ويعبر عنه . ذلك
الاسم هو الله !! وستكون العاطفة التى تتولانا بعد ذلك هى
العبادة لا الحب . وستكون أنت صلاتى الى الله لا معبودى ولا
حبيبى . أفهمتني يارفايل ؟ ففمت والقلب يستخفه نواز من الحمية
والطرب ، فقبانا الشجرة وباركنا عليها لأنها كانت مهبط هذا
الوحى وموضع ذلك الالهام ، ودعوناها بعد ذلك شجرة العبادة . ثم
هبطنا منحدر سان كلود وعدنا فانغمسنا فى ضوضاء باريس ، ورجعت
هى الى منزلها وقد عرفت ربها ، وغمرت بنوره قلبها ، ورجعت أنا
مثلوج الصدر قرير العين لاهتدائها الى هذا الضياء ، وظفرها من
الله بهذا العزاء

لم يتحمل ثمن الماسة الأخيرة من حلى أمي نفقة الخروج كل يوم مع جوليا الى ضواحي المدينة ، فأسرع اليه النفاذ في زمن يسير ، ولم يبق منه الا عشر لويسيات . ولشدة ما أظلم في عيني اليأس ، واستولى على قلبي الهم ، حين عدت في المساء هذا الباقي الضئيل وعلمت اني لا أنال به غير أيام معدودات من أيام السرور ! وما كان أشد خجلي لو بحث الى حبيبتي بسر هذه الفاقة ! ولو اني فعلت لأمدتني بكل ما تملك وهو لا يفيض من راحتها ، ولا يزيد على حاجتها ، واذن يتضع حبي في عيني ، وأنا أوثر أن أموت على أن أحقر من شأنه أو أطأ طي من سموه . وكانت حياة القعود التي حيتها طول الشتاء في ظلام الغرفة ، وادمان الدرس ، ولجاجة الهوى ، ومكابدة الأرق ، والوهن الذي أصاب قلبي الضعيف من توقانه الدائم وفيضانه المستمر مدة عشرة أشهر ، قد أنحلت جثامي ، وضععت كياني ، فلم يبق وراء وجهي الضامر الشاحب غير لهيب يتأجج من غير وقود لا يلبث أن يأكل بعضه ويخبو . فلما رأيت ذلك جوليا نشدتني الله أن أعود الى مسقط رأسي فأستروح نسيمه ، وأتذوق نعيمه ، وأن أبقى على حياتي ولو على

حساب حي . ثم أرسلت إلى طبيبها الدكتور (الآن) لتعزز وسيلة الحب بسلطان العلم . وذلك الطبيب أو بالحرى ذلك الصديق كان من رجال الخير وأهل السمات الذين يحملون إلى ما يزورون من أكواخ الفقراء بركة الدين ونور اليقين وعزاء الأمل . أصابته علة في القلب على أثر غرامه الخفى النقي بامرأة من أجل نساء باريس ، ووجد نفسه في كفاف من الرزق يتسع لقضاء حاجاته وإسداء مبراته ، وهو من بعد رجل ورع عطوف نشيط حمول ، فقصر طبه على بعض أصحابه وذوى المتربة ممن يعرف ومن لا يعرف . وصناعة الطب جميلة مالم يشوهها الطمع ، شريفة مالم يحقرها الحرص . وهى الصق الصناعات باحساس الرجل وقلبه ، تبتدىء بالطبع وسيلة من وسائل الرزق ، ثم تنتهى فى غالب الأمر فضيلة من فضائل النفس . وقد أصبحت فى اعتقاد هذا الطبيب أقوى من الفضيلة وأسمى من الواجب ، واستحالت فى قلبه إلى هوى ملازم وشغف مُمِلح بالتخفيف عن جسوم المرضى ، والترفيه عن نفوس البائسين . فحيثما حل ينكشف سر الحياة ، وينتشر نور الله ، وينبعث فى النفوس الهالكه جمال الوجود ، وجلال الخلود ، حتى فى سياق الموت . ولقد رأيته بعد سنين يموت ميتة الأختيار البررة ، بعد أن طال قيامه وقعوده على أسرة المحتضرين فتهيأ لها وراض نفسه عليها . أثبتته

المرض في فراشه ستة شهور يعالج الروح ويكابد النزع ويعد بعينيه الساعات التي تفصله عن الأبدية . وكان على مؤخر سريره ساعة معلقة ، وبين يديه المشبوكتين على صدره صليب لا تفارقه عيناه لحظة . فاذا رهقه من الألم ما ضاق عنه طوقه طلب ممن حوله أن يدنوا الصليب من فمه فيفضى اليه بصلاته وشكاته . ثم انتهى أمره الى أن رقد رقدة الخلود بين اخضرار الأمل ، واييضاض العمل تاركاً الى الفقراء والمرضى أن يتقدموه الى الله حاملين ما ادخر من عمل صالح وكلمة طيبة

مات هذا الكريم على حصيرة في غرفة حقيرة ، وماخلف غير السمعة الجميلة والأثر الحسن . فحمل الفقراء جثته ، ومنجوه مرتهم قبرا من قبور الصدقة في الأرض المشتركة !

أيها النفس الطاهرة المطمئنة ! ! الكائن أنظر اليك الآن تشرقين في ذلك الوجه المتهلل السموح ! ! هل وجدت عاقبة هذه الفضائل الغر وتلك المحامد المشكورة وهما باطلا وكذبا صريحا ؟ وهل تفنين فناء ضوء المصباح أنار لي عن وجهك ثم أطفأته ؟ لا لا ! حاش لله أن يخدعك وأنت لم تخدعي في دنياك طفلا !

تعلق بي الطبيب وجعلني موضع اهتمامه ومكان عطفه ، ولم تخف عليه حقيقة دأى وان لم يبيح لي بما عرف عنه . الا أنه أمرني بالرحيل مخافة أن يدركني الموت . ثم أفضى الى جوليا بما يتوقعه لي من المكروه إن عصيته . واستعان بحنان الحب وسلطانه ، على أن يبتزغني من بين أحضانه . ثم أخذ يسيفني مرارة الفراق بحلاوة الأمل ، فأمرني أن أقضى زمنا بين أسرتي لتعود الى صحتي ، ثم ارتد الى حمامات سقوا فانتظر جوليا هناك أوائل الخريف . وهكذا فصبا هذا الحكيم التماسا لنجاتنا من عناق كاد يشفى بنا على موت الخناق لو استمر طويلا

قبلت أخيراً أن أرحل أولاً ، وأقسمت لي جوليا أن توافيني على سقوا بعد قليل . وكان وا أسفاه من مدامع عينها ، واصفرار وجنتها ، وارتجاف شفيتها ، أوثق يمين وأصدق عهد . ثم حمَّ البين وأفد الفراق وضرب يوم ١٨ مايو موعدا للرحيل . فأصبحنا نعد الدقائق بدل الساعات ، والساعات بدل الايام . وتمنينا على الله أن يجمع السنين في لحظة ، ويختصر اللغة في لفظة ، لنتمتع الآن بما سيسلبه الزمن من سعادتنا أثناء الغيبة

لقد كانت هذه الايام أيام نعيم ولذة ، ولكنها كانت كذلك

أيام عذاب ومحنة ! فقد كنا نحس في كل مقابلة ، وكل مصافحة ،
وكل نظرة ، وكل كلمة ، برودة الغد القريب واليبين المحتم . والسعادة
على مثل هذه الحال لا تسمى سعادة ، وإنما هي لوعة القلب ولذعة
الحب وحرقة الجوانح

جعلنا للوداع عامة اليوم السابق ليوم الرحيل ، ثم اخترنا أن
يكون في سكون الخلاء تحت نظر السماء وبين أحضان الهواء ،
لا في ظلام المنازل التي تكظم النفس وتظلم العين ، ولا بين العوازل
الذين يفتنون السكبد ويصدعون الفؤاد . والطبيعة شريكة الانسان
في شعوره ، ومشاطرة في حزنه وسروره

وفي صباح ذلك اليوم ركبنا عربة كنت أكثريتها من قبل ،
فاجتازت بنا وهي مغلقة النوافذ مرخاة الستائر شوارع الاحياء العليا
من باريس تقصد حديقة (مُئسو) . وكانت هذه الحديقة محبوسة
اذ ذاك على نزه الامراء الذين يملكونها ، فلا يدخلها داخل الا باذن ،
ولا يتال هذا الاذن الا قليل من الغرباء أو المفتونين بسحر هذا
الفردوس . نلت هذا الامتياز بمعونة صديق من أصدقاء أمي له
بمنزل هؤلاء الأمراء صلة وثيقة . ووقع اختياري على هذا الروض

لأننى أعلم أن الأمراء غُيِّبَ ، وأن الدخول اليه الآن منقطع ،
وأن البستانيين أنفسهم تركوه ليحتفلوا بيوم عيد وعطلة . ففى
هذا اليوم لم يعش هذه الرياض الأريضة ذات الماء السلسال ، والظل
السجسج ، والأعمدة المرفوعة ، والاطلال المصنوعة ، إلانحن وأشعة
الشمس ، وحشرات الارض ، وأطيّار السماء . ولم تُسَقِ ووايلتناه
أوراقها ووراقها بمثل ما سقتها مدامنا الثروة المبهلة ! ! على أننا
كنا كلما دفؤ الهواء ، وصفت السماء ، وتصارع الظل والنور على
العشب المتكهل ، وغرد البلبل تغريد الطروب الثل ، وانعكس
النور والنور على صفحة الجداول الصقيلة ، واستضحكت ثغور الربيع
فى هذه الربى الجميلة ، ارتدت هذه البهجة فى نفوسنا كآبة ،
وغشيت قلوبنا الحزينة من صفائها سحابة فوق سحابة . ولم
حاولنا فى غير طائل مخادعة أنفسنا بالنشاط والانبساط الى روعة
المناظر ، وبهجة الأزاهر ، وعبير النسيم ، وكثافة الظل ، وصلاحية
هذا المكان لإيواء عالم المحبين بأسره ! ! فألقينا عليه من باب المجاملة
نظرة ذاهلة ، ولكنها سرعان ما ارتدت الى الارض ! وأردنا أن
نتبادل كلمات الإعجاب والجدل ، ولكنها أسفرت عن نضوب المعنى
وعزوب الفكر . لقد كانت أفكارنا فى مكان آخر ! !
كذلك حاولنا أن نقضى ساعة الوداع الاخيرة تحت ظلال

الأشجار العطرة ، أو فوق قطع الأعمدة الخصرة ، أو على حافة
الجداول العشبية النضرة ، فما استقر لنا حال ولا سكن لنا بال ولا
اطمأن بنا خاطر . فما نكاد نختار مكانا حتى يساورنا القلق والضجر
فنتركه الى غيره . هنا الظل ، وهناك النور ، وهناك هدير الشلال
أو هديل الغندليب ، ولكن هذه الأشياء كانت تحول في نفوسنا
هذه اللذة الماء ، وتقلب في عيوننا ذلك المنظر قبحاً . ! متى التاع
القلب بجمرة الهم لا تزده الطبيعة كلها الا همماً وسأماً ، وجنة
الفردوس اذا أصبحت مكاناً لوداع عاشقين كانت أشد من الجحيم
عذاباً والماء . انتهى بنا الكلال من طول المطاف الى أن جالسنا
قريباً من قنطرة على جدول . جالسنا متباعدين مسافة غير قصيرة
كأن صوت أنفاسنا كان يضايقنا ، أو كأننا أردنا بدافع الغريزة
أن يخفى كل عن أخيه هنين نحيبه المكتوم وقد أوشك أن ينفجر
أطلسنا النظر في زهول الى الماء المخضر الراغى وهو يغور
مبطئاً تحت عقد القنطرة ، تارة يحمل معه ورقة بيضاء من أوراق
السوسن ، وتارة يكسح عشا خالياً من أعشاش الطيور رمى به
الهواء من فوق الشجرة . فرأينا على حين بغتة جثة طير غريق
من طيور السنونو قد حملها الماء حتى غيبها رويداً رويداً في حنية
القنطرة . وما كادت تتوارى جثة الطائر حتى أقبل طائر آخر من

جنسه وأخذ يقع ويقوم ، ويسف ويحوم ، حول القنطرة وهو ين
أنين الحزين ويضرب بجناحيه أحناء العقد . فتبادلنا النظر عن غير
عمد . وما أدري ماذا قالته عيوننا حين التقين . غير أن يأس هذا الطائر
المسكين قد صادف منا جفوناً مترعة ، وقلوباً موجعة ، فأدار كل
منا ظهره لأخيه ثم انفجرنا بالبكاء . كانت العبرة تبعث العبرة ،
والفكرة تجر الفكرة ، والطيرة تجلب الطيرة ، والزفرة تستتبع
الزفرة . ولقد عالجنا الكلام مراراً فتكسرت نبراته في حلوقنا حتى
عاد أنينا وحشرجة . فنزلنا على حكم الطبيعة وظلما نذرف صامتين
كل ما في مآقينا من دموع ، حتى نخضل النبات وتبلل الثرى ،
وحتى لم يبق من الدمع قطرة في عيوننا ، ولا من الهم نقطة في
قلوبنا . ذلك كان وداعنا : صورة محزنة ، ودمعة هائلة ، وصمت
أبدى ! ثم افترقنا وكلانا لا يستطيع معاودة النظر لأخيه مخافة أن
يخر إلى الارض من صدمة النظرة .

حرام على هذه الحديقة بعد أن شهدت وداعنا ، وفرت
اجتماعنا ، أن تشهد ثانية وفودى إليها ، أو ترى آثار قدمي عليها ! !

وفي صباح اليوم التالي كانت العجلة تدرج بي على هضاب

(ميدى) الجديبة والعقل شارد ، والجسم هامد ، والاسان صامت ،
والرأس مدثر فى معطفي ، وحوالى خمسة أو ستة من دهماء الناس
يتحدثون فرحين عن نوع النبيذ وثمر الغداء فى الخان . فقطعت هذه
المرحلة الطويلة الثقيلة دون أن تأبه أذناى لحديث ، أو تنفرج شفقتاى
عن كلمة . ولما بلغت عرين الأبوة وعش الأمومة لقيتني أمى بحنائها
البشوش الذى يرد الشقى سعيداً . وماذا لقيت معى ؟ لم تلق
وأسفاه الاجسام ناحلا ولونا حائلا وقلبا ذاهلا وشبابا عاطلا
ويأسا قاتلا عزته هى الى سأم الفراغ وسقم الخيال ، وأخفيت أنا
مبعثه الحقيقى حتى لا أضيف الى آلامها ألما لا طبله ولا برء منه .
فلم تجد بدا من أن تبعث بى الى واد من الأودية الخلاء لنا فيه
مزرعة مستأجرة تعمل فيها أسرة نشيطة ، رجاء أن أجد فى هواء
الجبال متنفساً من الهم ، وبين هذه الأسرة متمسكاً من العزاء .
فقضيت الصيف وحيداً فى هذا المكان لا يشغل ذرعى الا عد
الايام التى تفصلنى عن لقاء جوليا فى وادى الألب ، ولا يملأ فراغى
الا الرسائل التى أكتبها اليها أو التى أتلقها منها

وكانت هذه الرسائل الشيقة الرقيقة حرة أن تجلو ما ران على
قلبي من صدا الهم يوم الوداع . ولكن بعضا من كلمات الأسى
والجزع كان يسيل من شق يراعها الحين بعد الحين عن غير قصد

ولا روية فتكون أشبه بالورقة الذابلة بين أوراق الربيع المضيرة
النضيرة . وأراها تناقض ما تحدثني عنه من هدوء بالها ووفور
صحتها . فكنت أعزو هذا التنافر النادر الى شجون الذكرى أو
الى أبطاء الزمن

ثم كان من جفاف الهواء في الجبل ، وطيب الرقاد في الليل ،
ولذة الاستراحة بالنهار ، والعمل البدني في الحديقة أو في المرج ،
فضلا عن اقتراب الخريف ودنو اللقاء ، أن مسح الله ما بي من
ضنى الجسم وشفوف الألم . فلم يبق من آثار السقم إلا انقباض
لطيف يبدو على ملامح وجهي بدو الضباب الرقيق على حاشية
الصباح الجميل ، وصمت عميق كصمت الخفاء وعمق السر ، وعزلة
عن الأنس أو همم المشغولين منهم أنى مؤاخ للجن . لقد أمات
الحب في نفسي كل مطمح ، فرضيت من الحياة الدنيا بالنصيب
الأخس من خول وفقر ، وأصبح كل ما أتمناه على الله أن أعمل
بيدي أو بقلمي عشرة أشهر في السنة ، فأجمع من المال ما يمكنني من
العيش بجانب جوليا شهرين في كل عام . حتى اذا ما نجعها الموت
في الشيخ جعلت نفسي في خدمتها ، وثت لهما مقام روسو
للسيدة دفرنس ، وعشت معها تحت ظلال الحب في كوخ من
أكواخ هذه الجبال ، أو في جوسق من جواسق سفوا ، غير

آسف على هذا العالم الفارغ ، ولا مبتغ من الحب جزاء غير
السعادة بأنى أحب !

٩٤

على أن شيئاً واحداً كان يوقظنى من هذه الغفوة ، ويزعجنى
أثناء هذا الحلم ، ذلك ما كانت تكابده الأسرة من الفقر المدقع ،
والضيق الموجه ، مما أعقبته نفقاتى الضائعة ، ونقص الثمرات أعواماً
متتابة . فكنت كلما ذهبت يوم الاحد أزور أمى كشفت لى بدمعها
الهاتل وألمها القاتل عن اشتداد الأزمة واستحكام اليأس مما تسر
نبأه عن أبى واخوانى . وكنت أنا فى تلك الآنة قد بلغت الغاية
القصوى من العوز والفاقة . فأنا أعيش فى المزرعة على الخبز
الأسود مآدوماً بالابن والبيض ، ولم أجد أجرة البريد عن رسائل
جوليا الا ببيع ما أملك من متاع وكتب . ومع ذلك فقد شارف
سبتمبر تمامه ، وكتبت الى جوليا تقول إن قلتهما على زوجها العليل
يحبسها بباريس أكثر مما كانت تظن ، وتطلب الى أن أبادر
بالسفر الى سقوا فانتظر قدومها اليه آخر أكتوبر . وتلك كانت
خدعة من خدع الحب الطاهر عمدت اليها اخفاء لآلامها واقصاء
ظمى . وكانت رسالتها مشرقة السطور بنصائح الأخت الحنون

للأخ العزيز : تأمرني بدالة الحب وسلطانه أن آخذ حذرِي من داء
يكن في إهاب الشباب النضر فلا يزال يذويه ويضويه حتى يفتك
به في الساعة التي يرجو فيها الظفر به والانتصار عليه . وبين مطاوي
هذه الرسالة اشارة من طيبها وطيبى الدكتور الشفيق (ألن)
ينذرني فيها بسوء العقبي اذا لم أقض مدة طويلة في ربوع إكس
وحماماتها . فأطلعت أمي على هذه الاشارة لتكون ذريعة لى الى
السفر . فلما قرأتها بدا عليها القلق ونال منها الهم ، وضمت رجاءها
الى أمر الطبيب . ولكن واأسفاه ما كان في مقدورى أن أجد
النزr اليسير من نفقات الرحلة ، ولا التافه الحقيق من متاع السفر .
على أن أمي فى ليلة واحدة وجدت فى قلبها مورداً لهذا المال ، وما
يستطيع غير قلب الأم أن يهتدى الى هذا المورد !

كان فى زاوية من زوايا الحديقة التى تكتنف بيت الأسرة
ايكة صغيرة مؤلفة من ثلاث شجرات من شجر الزيفون وسنديانة
خضراء وثمانى دوحات من باسق الشجر ، وعلى كل ما بقى من
غابة قديمة العهد اجثوا أشجارها ليخطوا فوقها البستان ، ويرفعوا
عليها البيت . كانت هذه الاشجار الجميلة الظليلة منتدى الأسرة

ومتفياًها أيام الصيف ؛ وكانت براعمها في الربيع ، واختلاف ألوانها في الخريف ، وسقوط أوراقها في الشتاء ، تعين لنا أوقات الفصول ؛ وكان ظلها وهو يتقلص تحت جذوعها ، أو يمتد بعيداً عن فروعها ، أتم دلالة على ساعات النهار من الساعة . وكانت أمي تغدينا وتناغينا وتهدهدنا وتدرّبنا على المشي تحت ظلالها . وكان أبي اذا ما عاد من الصيد جالس تحتها وكتابه في يده وبندقيته اللامعة معلقة على غصن من أغصانها ، وكلابه اللاهثة راقدة في ركن من أركانها . وأنا نفسي قضيت الذ ساعات الخدانة في فيئها ، أنعم بقراءة هوميرو أو تليماك ، وألذ بالاستلقاء على العشب الدافئ وأمامي الصفحات منشورة تثب عليها من حين إلى حين عناية أو ذبابة . وكانت البلابل تطرب البيت بأغانيها رخيمة العذبة دون أن يعرف أحد مبعث أصواتها ، أو يقف على مكان أعشاشها . كانت هدد الأيكه مجد الأسرة وذكري الجنود ويهري الأفئدة . فتجربها إلى كيس من الدنانير لا تبعث ذكري ، ولا تسرقها ، ولا تظن أسرة . لا يخطر على قلب أحد . اللهم إلا الأم التي أذاب الهم لغائف قلبها واشغافاً على حياة وحيدها وفئدة كيدها . خطرت هذه الفكرة ببال أمي فلم تكده تستيقظ من النوم حتى أسرمت بحكم غريزتها وصدق عنيتها إلى دعوة الخطاب وأمرته أن يجتث هذه الشجرات بسرعة

قبل أن تعلمنى مخافة أن يبدو لها ، أو أحول أنا بينها وبينها . ورأت بعينها الباكية فأفس الخطاب تعمل فى جذور هذه الشجرات ملجأ صباها ، وشاهد لهوها وهواها ، فأشاحت بوجهها ، وجعلت أصابعها فى أذنهما ، حتى لا تسمع أنينها . ولا ترى سقوطها على أرض الحديقة العارية الجديدة

وفى يوم الأحد التالى بينما كنت عائدا الى (ميل) بحثت بعينى من فوق الجبل عن لقيف الشجر الذى كان يجمل الهضبة ويظل البيت فلم تقع عينى منه الا على جذور مبتورة ، وجذوع منشورة ، وأغصان منشورة ، وآلات منصوبة كآلات العذاب ، ونشارين يجذونها جذ الرقاب ، نخيل الى انى فى حلم ، وهرولت الى السور ، وفتحت باب الحديقة الصغير بيد ملتفة ، وأعصاب مضطربة ، ونظرت فلم أرقأما والهفتاه غير السنديانة وشجرة واحدة من شجر الزيزفون ودوحة من الأدواح الثمان جعلوا تحتها المقعد . ورأتنى أمى فأقبلت الى وارتمت بين ذراعى وهى تنهه دمعها المصبوب وتقول : حسبنا هذا ! ان فيما بقى كفاية ! وإن ظل شجرة واحدة ليعدل عندى ظلال غابة بأسرها ، ولكن ليس فى ظلال

الأرض قاطبة ما يساوى ظلك . ولقد كتبت الى أليك أقول له
 إن الشجر قد آف ولا بد أن يعدى البستان ويؤذى الزرع اذا ترك .
 فلا تلمنى على شئ ، ولا تلحنى فى واجب ، ولا تحدثنى هذا الحديث
 بعد . . . ثم قادتني الى البيت وفتحت خزانها فأخرجت منها كيساً
 من الدنانير مملوءا الى نصفه وناولتني إياه وهى تقول : خذ هذا
 المال يا ولدى وسافر ! واذا ردك الله على موفور الحظ من العافية ،
 معمور القلب بالسعادة ، كان لى من ذلك الثمن الأوفى لهذا
 الشجر . فمددت يدي خجلان ولهان باكياً ، وأخذت الدنانير منها
 وفى عزمي أن أردّها اليها ، تخفيفاً من عبء الهم على وعليها

سافرت على قدمي في لبسة الصائد . فعلى الساقين (دُزلك)
 من الجلد ، وفوق الكتف بندقية من بنادق الصيد . ثم أخذت من
 الكيس مائة فرنك وخلفت الباقي سرّاً فى المزرعة حتى أردّه الى
 أمي متى عدت ، فعزّيز على أن أكلفها هذا العنت وأحرمها هذا
 المال ، وهو ثمن قطعة من كبدها . ومضيت أأطعم وأنام فى الفنادق
 الحقيمة من كل قرية ، وسبق الى ظن الناس اني طالب سويسرى
 فقير يعود من جامعة استرسبورج فلم يكلفوني غير الضرورى من

ثمن الخبز والنور والفراش ، ثم تحققوا صحة مازعموا حين رأوني
أقرأ في كل مساء أمام الدار (آلام قرتر) بالالمانية ، وما كنت أحمل
من الكتب غيره

على هذه الحال اجتزت مضائق (بورجي) وعبرت الرون لدى
صخرة (بيير شاليه) وتسلقت جبل القط من شعاب صيادی
الرعول . فلما علوت قمته اطلعت في الحضيض فرأيت أودية
اكس وشمبيري وأنيسي ، وأبصرت البحيرة قدرقطتها أشعة الاصيل
الخفاقة بصبغ الورد ، فتمثل في نفسي وأشرب حسی أن صورة
واحدة تملأ رجب هذا الأفق ، فهي تبدو من جواسق الجبل ، ومن
حديقة الطيب ، ومن تين (بون بور) ، ومن كستناء (تريسرف)
ومن غابات (سنت انوسنس) ، ومن جزيرة (شاتيلون) ، ومن
الزوارق الداخلة في المرسى ، ومن كل ما أرى من أرض
وجو وموج

جثوت أمام هذا الأفق المعمور بهذا الخيال ، وفتحت ذراعی
وضممتها كأنی أعانق نفسي بعناق النسيم الهاب على مسارح سعادتنا ،
ومواطیء أقدامنا . ثم جلست خلف صخرة أتأمل واتخيل وأتمثل
حتى مست الشمس قم الثلج من (نيثولكس)
لم أرد أن أعبر البحيرة ولا أن أدخل المدينة في ضوء النهار ،

فإن خشونة ملبسى وجشوبة عيشى وضيق ذات يدي كانت تبدو للقاطنين فى منزل الطبيب والنازلين به شاذة غريبة ، وتناقض كل المناقضة ما كنت عليه فى العام الماضى من أناقة الملبس وحسن الشارة وخفض العيش

فوطنت نفسى وعقدت عزمى على أن اتسلل بالليل الى قرية صغيرة من أرباض المدينة أعرف بها خادمة فقيرة تدعى (فنشيت) قد أعتدت فى كوخها الحقيقى سريراً أو سريرين لتعول فيهما مريضاً أو مريضين من ذوى المتربة بأجر زهيد . وكان صديقى لويس قد سبق الى هذه الفتاة فاحتجزلى سريراً فى الكوخ وكرسيا على المائدة ، ثم وعدنى أن يتلقى رسائل باريس على عنوانه فى شمبيري ، ثم يبعث بها الى مع سائق من ساقاة المركبات التى تنتقل على الدوام من مدينة الى أخرى . وكنت مضطراً أثناء مقامى فى اكس أن احتبس طول النهار فى الكوخ أو فى البساتين القريبة . فاذا أرخى الليل سدوله خرجت فصعدت الى بيت الطبيب من وراء المدينة فأدخله من باب الحديقة المفتوح على الخلاء ثم أقضى به ساعات المساء فى خلوة حلوة وتأمل لذيد . لو أننى عانيت أضعاف ما أعانى من ذلة وقلة لكان فى هذه الساعات المباركة جزاء أوفى عن مهاتتى ، وعوضاً أسمى من فاقتى

حررت خطاى فى طريقى من جبل القط الى دير الهتكب على
 أن أصل اليه يوم جمع الله قلوبنا برباط الحب فى منزل الصياد . فن
 الضفة العمودية التى تنحدر من قنة الجبل نحو البحيرة لاح لى من
 على الشمال أطلال الدير وظلاله مرقومة سوداء على صفحة الماء . ولم
 يكن غير دقائق معدودة حتى بلغت ، وكانت الشمس قد غرقت
 وراء الألب ، وشفق الخريف قد سحب على الجبال والوديان
 والشيطان والأمواج ذيله الضافى المذهب

لم أقف على الاطلال ، بل أجزت البستان الذى جلسنا فيه تحت
 كومة المرعى وكانت لا تزال على حالها تلك ، الا أنك لا تبصر
 ضوء النار من زجاج البيت ، ولا الدخان من فوق السطح ، ولا الشبّاك
 معلقة على سور الحديقة . قرعت الباب فلم يجب أحد ، فعالت
 الرتاج فانفتح من نفسه ، ودخلت القاعة فاذا الموقد مكنوس ، واذا
 الأثاث ، مرفوع ، واذا البلاط مغطى بالقش والريش المتناثر من
 اعشاش السنونوا الخاوية . صعدت السلم الخشبي الى الغرفة التى
 أفاقت فيها جوليا من الاغماء ، واستجمت من الاعياء ، ودخلتها دخول
 العابد المحراب ، ثم أجلت فيها النظر فاذا السرير والخزانة والكبرى

مفقودة ، واذا طائر من طيور الليل أفرغته خطاى فرك جناحيه وضرب بهما الحائط ثم استقلهما ناجياً بنفسه من النافذة . تلمست المكان الذى جثوت فيه بجانب جوليا وهى مغنى عليها من الفرق فمن بعد لأى عرفته فقبلته . وأخذت عيني تطلب فى جنبات الكوخ انسانا اسأله عن مصير أهل هذه الدار فما وقعت على أحد . فغلب على ظنى أن تأخر الحصاد عاقهم فى الجواسق العليا من الجبل ، وأنهم لا ينزلون منها الا فى الشتاء . فصح عزى على أن أقضى الليلة بهذا الكوخ فى الموضع الذى كانت تكابد جوليا فيه الموت . فحُت بضغث من العشب الطرى وبسطته على أرض الغرفة ، ثم أخرجت من جرابى رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن وذهبت اتعشى على حافة الينبوع الذى كان يجرى ثم يقف على التعاقب كأنه النفس المتقطع

لقد كان من حفاى هذه الهضبة ومن اشراف هذا الدير فى وقت الأصيل منظر ساحر هو لقلوب المختلين ، ومشاعر المفكرين ، ونفوس المحبين . مستراد وفتنة . فهنا ظلال الجبل الأخضر الندى ، وخير الينبوع الحلو الشجى ، وحفيف الورق الظليل الرخى ؛

وهناك اظلال الهيكل أوحشها البلى ، وصدوع الحوائط غشاها
 اللبلاّب ، وإروقة الدير عمها الظلام وكن فيها السر، وأمواج البحيرة
 المزبدة تموت واحدة فواحدة على سحيق الرمل أو على وعر الصخور ؛
 وهنالك على العدوّة الأخرى تجمد الجبال الزرق تكسوها الظلال
 الشفافة ، وترى على اليمين لدى رجع البصر ذلك الدرب المستنير
 خلعت عليه شمس الاصيل حلة أرجوانية !

غصت بنفسى وحسى فى هذه الظلال والأنوار والأموّاج
 والسحب ، وامتزجت بهذه الطبيعة، وامتزجت بى صورة الحبيبة ،
 حتى أصبحت هى الوجدان والزمان والمكان والمنظر : فهذا هو المكان
 الذى لمحت فيه زورقها يصارع الموت ، وذلك هو البستان الذى
 تساقطنا فيه شهى الحديث وتبادلنا به حبيّ النظر ، وهناك أعالى
 الحور تظلل ذلك الطريق اللاحب الذى ينساب فى الأرض انسياب
 الأرقم الأخضر قد خرج من الماء ، وهنا الجواسق والمخاضر وأدواح
 القسطل والطرق الجبلية التى كنت اقطف من حفافها الزهور وأجنى
 الفريز والسكستناء ثم املأ بها ميدعتها ، وفى هذه البقعة حكمت لى
 خبراً من الأخبار ، وفى تلك بحت لها بسر من الاسرار ، وتحت
 هذا اللفيّف من شجر الحور السليب اذ ذاك من ورقه ودعتنى
 ووعدتنى أن ترانى قبل اصفرار الاوراق الجديدة . وهاهى الاوراق

أوشكت أن تصفر ، وكذلك جوليا أوشكت أن تعود . فان الحب
صادق الوعد مسئول العهد . على أنني أراها الآن ! أأست هنا في
انتظارها ، ومن انتظر فكأنه نظر ؟ !!

٩٩

على أن الليل كان قد نشر ذوائبه على البحيرة فلم تعد العيون
تبصر الماء الا من خلال ضباب أدكن قد رصص^(١) وجهه . ففى ذلك
الصمت العميق الشامل الذى يسبق الظلمة قرع سمعى صوت مجدفين
يدنوان من الشاطئ ، ثم ما لبثت ان رأيت فى عرض البحيرة نكتة
تتحرك على وجه الماء ، فتبينتها فاذا هى زورق ينساب نحو الخليج
المجاور لمنزل الصياد ، فظننته أياه عائدا من شاطئ سفوا الى بيته
المهجور ، فهبطت من الطلل الى الساحل مسرعا الى لقائه . فلم اك
أبلغه حتى رأيت الزورق يرسو ، والنوتى ينزل ، وهو يصيح بى قائلا :
« لعلك ياسيدى الفتى الفرنسى النازل فى بيت (فاشيت) ! ان كنت
إياه فدونك هذه الرسالة فقد كلفت بحملها اليك »

دلى ثقل الرسالة على أنها تتضمن رسائل كثيرة . ففضضت
الغلاف الأول عن رقعة قرأتها فى ضوء القمر فاذا هى من صديقى
لويس كتبها الى فى صباح اليوم يقول فيها : إنه أعدلى المسكن عند

(١) رصص وجهه : ضلاه بالرصاص أو لونه بلونه Plomber

الخدام (فنشيت) وأنه لم يقدم أحد من باريس الى الآن، وأنه حين علم منى بقرب وصولي الى دير الهتكب كلف هذا الرجل الثقة أن يلقي الى وهو مار بالدير هذه الرسائل التي وردت الى من باريس منذ يومين فلا ريب انى شديد الظأ اليها. ثم أضاف الى ذلك أنه قادم غدا الى بنفسه لنعبر البحيرة معا ولندخل المدينة تحت جنح الليل

١٠٠

كنت أمسك بيدي وأنا أقرأ هذه الرقعة رزمة الرسائل فأحسستها ثقيلة على أناملي ، ثقل الهم وانشؤم على كاهلي . فنقدت الملاح وصرفته بعد أن التمت منه عقباً من الشمع اقرأ على ضوءه هذه الكتب . ثم عدت الى الغرفة العليا وأنا أطفر من الفرح وأنزو من النشوة ، وفي اعتقادي اننى سأمتع نظرى بخط الحبيبة ، وأسر نفسى برقيق كلامها وخبر قيامها . جلست على ضغث العشب الذى فرشته ، وأشعلت القنديل وتناولت الرسالة الأولى فاذا هى محتومة الغلاف بالسواد ، مكتوبة المنوان بخط الدكتور (الن) ، واذا بدلائل النعى فى مواضع البشرى !. فشت فى جسمى رعدة الخوف ، وجاشت فى صدرى غصة الهم ، وسقطت من يدي على ركبتى اضمامة

الرسائل الأخرى وكانت على حدة ، ولم اجرؤ على أن اقرأ منها كلمة
 مخافة أن أجد فيها واأسفاه ما لا تستطيع محوه الحيلة ولا البكاء ، ولا
 الدمع ولا الدعاء ، ولا الأرض ولا السماء . . . وهو الموت . . . على
 أنني قرأت مع فرط ما بي ، من شدة اضطرابي ، واختلاج أعصابي
 هذه الكلمات :

كن رجلا ! وفوض أمرك الى الله الذي لا مرد لقضائه ولا
 معقب لحكمه ! لا تنتظر أحدا . . . ! ولا تطلبها على الأرض ، فقد
 صعدت الى السماء لاهجة باسمك في مشرق يوم الخميس أفلت
 شمسها المنيرة ، وفاضت نفسها الكبيرة لقد أفضت الى
 بمكنون سرها وجملة أمرها قبل أن تموت وكلفتني أن أبعث
 اليك بآخر آثارها ونهاية أفكارها ، فقد ظلت تكتب اليك حتى
 جمدت أناملها على القرطاس فوق اسمك أحبها في المسيح
 الذي أحبنا حتى الموت ، وتعز عنها عزاء جيلا ، وعش لأمك
 طويلا !!
 (الن)

سقطت على الفراش هامد الجسم فاقد الرشيد لا أرتمز ولا
 أعي . ولم يثب إليّ حسي الا بنفحات الهواء الصرصر عند نصف

الليل . وكان القنديل لا يزال مضيئاً ، وأصابني لانتفك معقودة
على كتاب الطبيب ، واضامة الرسائل ساقطة من حجري على أرض
الغرفة . ففتحتها بشفتي كَأَنِّي خشيت عليها من يدي أن تلمسها
فقدنسها . فانتشرت منها على ركبتي طائفة من الرسائل الضافية
منمقة يراعة جوليا ، ومرتبة على حسب تواريخها
وهاك ما حوته أولها :

رفائيل ! أي رفائيل ! أخي رفائيل ! اغفر لأختك خديعتها
اياك هذا الزمن الطويل ! فما كان في أملي ولا مرجوئ أن
أراك ثانية في سفوا . . . ! لقد كنت أعلم أنه لم يبق من عمري الا
أيام معدودة ، ولا من نفسي الاحشاشة مجهودة ، فبهيات أن
أعيش حتى أحظى بهذه السعادة ! . . . أتذكر يارفايل ساعة قلت
لك : (الى اللقاء) لدى باب حديقة منسو ؟ إنك لم تفهم ماذا كنت
أعني بهذه الجملة . لقد كنت أريد أن أقول : « الى اللقاء ! الى
الهناء ! الى الحب الأبدي في ملكوت السماء ! ! »

لقد أوصيت الطبيب أن يخذلك هو أيضاً ليحملك معي على
ترك باريس ، فقد كنت أريد حتماً أن أقيك هذه الفجعة المحرقة
تجد مسها من قرب فتقطع حشاك ، وتضعض قواك . . . كذلك
اغفر لي يارفايل ما سأعترف لك به الآن ! لقد كنت أكره أن

ترانى أموت ، فضربت بينى وبينك حجابا من البعد حتى لا ترى
سريان البلى فى جسمى المعمود ! ! آه ! ما أقسى الموت وما أشد
برده ! انى أحسه ، وأراه ، وأشعر به يدب فى جسمى
ويفزعنى من نفسى . . . !

لقد كان متمناى يارفائيل أن أترك فى عينيك صورة من الجمال
تأملها وتعبدها ، ولكن الرجاء خاب ورائد الأمل ضل فلا
تسافر يارفائيل ! ولا تنتظرنى فى سقوا . . . فاهو الا
يومان أو ثلاثة ثم لا ترى لى أثراً ، ولا تسمع عنى خبرا فى أى
مكان ! سأكون هناك يارفائيل ! وسأحل دائما فى
كل مكان تحله ! »

وكان على هذا الكتاب فطرات من الدمع أزاله صقاله
وخذدت صفحته !

ثم رسالة أخرى كتبها فى اليوم التالى تقول فيها :

نصف الليل فى . . .

رفائيل ! . . . إن صلواتك ودعواتك أنزلت على من السماء
رحمة وبركة . لقد ذكرت بالأمس شجرة العبادة فى سان كلو ، وهى
الشجرة التى فى فيها رأيت الله من خلال نفسك . إن شجرة
الصليب أطر منها وأقدس فانا طول النهار أعانقها ولا

فأرقها أواه ! ما أجل أن يظل المرء تحت هذه الدماء وتلك
الدموع التي تطهره وتعطره ! ! بالألمس دعوت قسيساً كان يحدثنى
عنه (الرب) فالفيتة كهلاً شامل العلم كامل الفهم واسع المغفرة ،
فكشفت له عن دخيلة نفسى فعمرها بنور الله وفضله . ما أكرم
هذا الوالد وما أعظم عفوه وأقل عامنا به ! ! إنه لا يسخطه أن
أحبك وأن تكون أخى ! ويرضى أن أظل أختك فى الدنيا اذا
عشت ، وملاكك فى الآخرة اذا مت . . . فلنحببه يا رفائيل
لأنه شاء أن نتحاب كما تحابينا . . . »

وفى ذيل هذا الكتاب رسم صليب صغير ووسم قبلة من حوله !

١٠٣

وثم رسالة ثالثة كتبها بخط متشابك الحروف مطموس
الكلمات مختلط السطور تقول فيها :

رفائيل ! انى أريد أن أقول لك اليوم كلمة أخرى . . . فلعلمنى
فى الغد لا أستطيعها . . . ! اذا انا مت فلا تم أنت . . . ! فانى
سأعنى بك فى السماء ، وسأكون برة قادرة كذلك الاله الكريم
الذى شاء أن يجمعنى به ويضمنى اليه

أحب بعدى يا رفائيل . . . وسيتيح الله لك أختاً أخرى

تكون خليفة بمؤاخاتك ، رفيقة صالحة لحياتك . . . أنا أطلبها لك
 من الله بلساني وقلبي ، فلا تخش يارفائيل أن تؤلم بذلك نفسى فى
 رمسى ، فانى لا أغار فى السماء من سعادتك فى الأرض ، ولا
 أشعر بعد هذا الكلام الا براحة القلب ورضا الضمير
 إن صديقى (الن) سيوصل اليك مع هذه الكلمات خصلة
 من شعرى ، وانى ذاهبة لأنام . . . ! »

ثم يلى ذلك الرسالة الأخيرة وهى من سقم الخط لا تكاد
 تقرأ . فعاجلت حروفها المتزايلة ، وسطورها المتخاذلة ، فاذا فيها :
 رفائيل ! رفائيل ! أين أنت ؟ لقد آنت من نفسى القدرة
 على ترك السرير . . . وصرفت الممرضة التى تسهر على طلبها لاه حدة .
 ثم زحفت على ضوء المصباح اتنقل من أثاث لأثاث حتى بلغت
 منضدة الكتابة . . . ولكنى لم أعد أبصر شيئاً . . . إن عينيَّ
 تغشاهما الظلام فهما تسبحان فى لينل داج . . وانى ألمح على وجه
 القرطاس سمادير^(١) تطفو وتحقق . . . رفائيل ! انى أرانى لا أستطيع
 الكتابة . . . ولكنى اكتب اليك هذه الكلمة إملاً !
 ثم يلى ذلك كلمتان كتبتهما بحروف غليظة أشبه بتناشير^(٢)

(١) السمادير : نقط سوداء تترأى للانسان من ضعف البصر

(٢) التناشير كتابة غلمان الكتاب لا واحد لها

الصبيّة عند أول عهدهم بالخط . فشغلنا كل السطر ، وملأنا ذيل
 الصحيفة ، وهما : « وداعا يارفائيل !! »

١٠٤

تخاذلت أنا ملي من هول ما قرأت فتنشرت من بينها الرسائل
 على الأرض . ثم أخذت انتحب من غير صوت ، وأبكي من غير
 دموع ، حتى وقعت غيناي على رسالة أخرى نمتقها يد زوجها الشيخ
 ودستها بين الرسائل . فتناولتها ثم فضضتها فاذا فيها :

« لقد انطفأ سراجها ويدها في يدي بعد أن كتبت اليك رسالتها
 الأخيرة ببضع ساعات . لقد فجعتني الموت في ابنتي ، فلتجعلك
 الحياة ابني مدى الأيام القليلة التي بقيت لي فيها . . . إنها مُسَجَّاة
 فوق سريرها كالنائمة الحاملة ، وعلى أسرار وجهها سمة المتهلل بالبسم
 رأى من وراء الحياة شيئاً يسره . . أبدا ما رأيته على هذا الجمال !
 وما عهدتها بهذا الحسن ! وان ادمان النظر اليها على هذه الحال
 ليوحى الى نفسى الشاكة عقيدة الخلود . لقد أحبتك بفضلها
 ولأجلها فأحبنى !! »

من سعادة النفس البشرية ألا تعتقد في الحال بفقدان من
تحب جملة واحدة .

فأقد كانت شواهد موتها مبشورة من حولى ، ولكنى لم أستطع
أن أصدق بفنائها ، واستحالة اقامها ، طول الأبد . فان فكرتها ،
وصورتها ، وملامح وجهها ، ونبرات صوتها ، وذكاوة حديثها ،
وصباحة محياها ، كانت ماثلة فى عيني ، حاضرة فى ذهني ، حتى ليخيل
الى أنها أتم من قبل وجوداً ، وأقوى على الحياة شهوداً ، وانها
لا تزال تملأ كياني ، وتشغل وجداني ، فهي تحدثني وتدعوني ، وانني
اذا مانهضت سمعت اليها فسامت عليها . تلك فترة يفصل بها الله
بين اليقين بالخسارة وبين الشعور بالحقيقة ، كما تفصل الحواس بين
رؤية العين لهوى الفأس فوق الجذع وبين سماع الاذن لضربتها ترن
طويلا بعد ذلك . تلك الفترة تخفف سورة الحزن ، وتكفكف غرب
الألم بالمغالطة والخديعة . ! انك اذا فقدت من تحب فلن تفقده
مرة واحدة ، وانما يحيا فيك ردحا من الزمن . وشبيه ذلك أن
العين اذا أطالت النظر الى الشمس وهي تغرب بقيت فيها اشعتها
بعد افولها وذهاب نورها ، لأنها لا تزال متلاثلة في نفسك ، مشرقة

فى حسك . وهبأت أن تدرك الفقدان التام والحرمان المطلق الا اذا ادرك شعورك القصور ، وحدده الفتور ، فتستطيع حينئذ أن تقول : « لقد ماتت فى ١١ »

ذلك لأن الموت لا يتم بالفقدان ، وانما يتم بالنسيان !!

١٠٦

كابدت حرازة هذا الألم طول تلك الليلة على أشد ما تكون
لوعة وحرقة ! ولم يشأ الله أن أشتف كأس الألم فى جرعة واحدة
مخافة أن تهلك نفسى غرقاً فيه . وانما ابتلانى ثم آسانى بأن جعلنى
أتمثل فى ومن حوالى وبين يديّ حضور تلك المخلوقة التى لم يرنى
الله اياها تلك الفترة القصيرة إلا ليوجه انظارى وأفكارى إلى
المكان الذى نقلها اليه وأنزلها به

ولما احترقت ذبالة الشمعة ضمنت رسائلنى الى صدرى ، وقبلت
ما استطعت أرض هذه الغرفة التى كانت لغرامنا مهدياً ، فأصبحت
له اليوم لحداً . ثم تنكبت بندقيتى وخرجت اقتحم أفواه الجبال
ومخارم الشعاب موله العقل ، شارد القلب ، لا اهتدى لطريق ، ولا
أسير الى غاية . وكان الظلام شديد الحلك ، والريح عاصفة الهبوب ،
والبجيرة تقذف الصخور بأمواجها الهوج ، فتحدث أصداء كأصداء

الغيران ، وأصواتاً كأصوات الانسان ، حتى وقفت مراراً وأنا
مكروب النفس ، مقطوع النفس إذ وقع في حسى أن أحدا
يدعوني باسمي

أواه ! أجل ! لم يخذعني حسى ، ولم تكذبني نفسى ، فقد هتف
باسمى هاتف ولكنه كان في السماء !!

١٠٧

أنا لا أذكر شيئاً عن ذلك الذى لقينى صباح تلك الليلة سادماً
هائماً على شفا الهاوية فى ضباب الرون فأنتقذنى وأعانتى وأعادنى
الى أحضان امى المسكينة ، فحسبه جزاء الله على معروفه وفضله !

.....
.....

والآن وقد أتى على هذه الفاجعة عشر سنين لا أجد من
نفسى القدرة على استذكار هذه السنة العظيمة التى مازها القدر
من سنى صباى . على أن الله قد أنجز لى وعد جوليا فأتاح لى
مخلوقة^(١) فتحت فى وجهى أبواب الرجاء ، ومسحت على جواى

(١) يريد بها لامرئين زوجته فقد كانت على قيد الحياة أيام نشر

بيد العزاء ، فكنت كثيراً ما أزور معها وادى شميبرى وبحيرة
 إكس . فاذا ما علوت ربوة (ترسرف) وجلست تحت سرحات
 الشاهبلوط التى أحس لحاؤها بوجيب قلب جوليا وهى تحضنها ،
 ثم أبصرت هذه الجبال والثلوج ، وتلك الأشجار والمروج ، وهذه
 الأسنان الصخرية تغوص فى جو حار كأنما ينضح الأرض بسائل
 معطر معنبر ، ثم سمعت الأوراق تحف ، والنسيم يرف ، والحشرات
 تطن ، والأمواج تنن ، ثم رأيت ظل قرينتى يرسم بجانبى على
 الرمل أو على العشب ، وجدت فى صدرى سعة لا تنقصها رغبة ،
 ودعة لا تشوبها رهبة ، واعتقدت حينئذ أنى أرى روح تلك الفتاة
 الراضية السامية تبدو فى كل ناحية من نواحي هذا الافق مشرقة
 الوجود ، محققة الخلود ، فتملأ هذه السماء وهذا الفضاء وذلك الماء ،
 كأنها بركة الله أفاضها على هذا الوادى الجميل !

(الى هنا إنتهى مخطوط رفائيل)

مرأتى لامرتين لجوليا

كان حب لامرتين أو (رفائيل) لجوليا من أقوى الاسباب فى صفاء نفسه ودقة حسه فتفتحت قريحته فى رثائها عن شعر كمنصور الزهر وأفواف الوشى . من ذلك ست قصائد بدأ بها ديوانه (التأملات) وهى من عيون الشعر الفرنسى وغرره . ترجم منها اليوم قصيدة (البحيرة Le Lac) وقصيدة (الوحدة L'Isollement) واعدن أن ترجم باقيها فى الطبعة الثانية

البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة فى بحيرة بورجييه من سفوا وقد وفد على اكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا اليها كما مر بك فى سياق القصة ، وجوليا يومئذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه . فزفر لامرتين هذه الزفرة وأرسل هذه العبرة من صدر مكروب وعين قريحة ثم عاد الى (ميل) شارد اللب مضطرم الجوانح وهذه هى :

أهكذا قضى الله أن نمخر فى عباب
الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطئ
الى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع الى

ملجأ ، أو الرسو ذات يوم على مرفأ ؟

أنظري أيتها البحيرة ! ها هو الفلك
قد أوشك أن يتم دورته ، والعام قد كاد
يشارف تمامه ، وأنا وحدي بجانب أمواجك
الحبيبة أرتقب عبثاً عودة جوليا إليها ،
جالساً فوق الصخرة التي كنت ترينها جالسة
عليها !!

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق
هذه الصخور المعلقة ، وتتكسر أواذك
على جوانبها الممزقة ، ويقذف هواؤك
الزبد على قدميها المعبودتين

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك
بين الماء والسماء نجدف في سكون وصمت
وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم

على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا
نسمع ركزاً غير ايقاع المجاديف على أنغام
الموج ؟

واذا بصوت لا عهد للأذان بمثله
ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب
السكون ، واطلق لسان الصدى ، وهنالك
أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا
الصوت الحبيب الى يساقط هذه الكلمات:

أيتها الارض قفى دورائك ! وأنت
أيتها الساعات قفى جريانك ! ودعينا تتمتع
بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجل أيام شبابنا

ان كثيراً من صرعى الحياة وفرائس
البؤس يتضرعون اليك أن تسرعى بهم ،
لتخففى من كرههم ، فاستجيبى اليهم ، وكرى

مسرعة عليهم ، وخذى مع عمرهم الزاهب ،
 ألم عذابهم الواصب ، وأتركى السعداء
 والناعمين غارين فى غفلات العيش وضلال
 الامن !

* * *

على أننى واويلتاه كلما لججت فى
 الطلب لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى
 عايمه المنى فلا تحقق ، وأستزيده البرهة
 اليسيرة فلا أوفق ، فسألت هذه الليلة أن
 تكون أطول وأمهل ، ولكن السؤل
 خاب وبازى الصبح قد افترس غراب الليل !!

* * *

فلننساك اذن كؤوس الهوى دهاقاً ،
 ولننقض ما ربناعجالاً ، فليس لسفينة الانسان
 مرفأً ، ولا لخصم الزمان ساحل . ان الزمن
 ليتدفق وإنا مع تياره نمر ونمضى !

* * *

أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أ كذلك

قضيت أن تمضى لحظات الانس وسكرات
الحب سرعا كما تمضى أيام الشقاء والبؤس ؟؟

ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن
نتبين آثارها ! ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟
أتراها قد ذهبت الى غير رجعة ، وماتت الى
غير بعث ؟ واويلتناه ! هل انقضى كل
شئ ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ،
والذى طمسها وعفأها ، لا يردّها ثانية علينا ؟؟

حدثني أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها
الماضى ! أيها الغور العميق ! ماذا تصنع
بهذه الايام التى تغيبها فى أحشائك ، وتطويها
فى أثنائك ؟ ؟ أما تُرجع إلينا ما سلبتنا من
سكرات نبيلة ؟ ومسرات جميلة ؟ ؟

أيّتها البجيرة الصاخبة ! أيّتها الصخور

الصامته ! أيتها الغيران الموحشة ! أيتها
 الغابات المظلمة ! أنتن اللاتي يبقى عليهن
 الدهر ، فيجدهن بعد البلى ، ويخصهن
 بعد المحل ! فاحفظن من هذه الليلة السعيدة
 على الأقل بذكرها ، واندجن على شذا
 أرجها وطيب رباها !

لتبق ذكرها أيتها البحيرة في
 هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ،
 وهضباتك الضحوك ؟ لتبق في هذا
 الصنوبر الزاهب في السماء ، وفي وعر
 الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبق في النسيم
 العابت بوجهك ، وفي الهدير المردد بين
 ضفافك ، وفي الكوكب القضى يضىء
 سطحك بأنواره الناعمة الزهية !

وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب
 الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يضوع !

ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم :
« لقد كانا عاشقين !! »

الوحدة

استسلم لأمرتين بعد فجيعة في حبيبته الى الهم ، واستأنس بالوحدة ،
واستكان للعبء ، وخلا الى الحزن في خلوات (ميلي) ومن هناك بعث الى
صديقه (فريو) بهذه القصيدة في ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهى :

جلست محزون القلب ، مستطار
اللب ، على قلة الجبل ، وتحت ظلة السنديانة
العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ،
وأسرح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير :

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش
الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل
فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة
السطح ، راقدة الماء ، تراءى فى جوانبها
نجوم الليل !

* * *

والظَّفَل لا يزال يلقي على رءوس
الجمال الشجرَاء ومضا من شعاعه ، وملك
الليل قد أخذ يصعد الى عرش السماء في
محفته الندية ، فأشرقت جوانب الارض
وازدهرت حواشي الافق

* * *

وناقوس الكنيسة الغوطي ، قد بدأ
يقرع الهواء برنينه الديني ، فكف الفلاح
عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ،
واختلطت هذه الارانين المقدسة بما بقي
من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولكن نفسى كانت من كل هذا
خلية ، فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ،
ولا تلك الصور الجميلة ، نشوة ولا بهجة !
لقد كنت أتأمل الارض وكأنها ظل
ممتقل أو خيال طائف !

إن شمس الاحياء لا تدفىء الموتى !

فكنت أنقل عيني من الربى الى
الجبال ، ومن الجنوب الى الشمال ، ومن
ظامة الغسق الى حمرة الشفق ، وأنفض^(١)
السهل والوعر ، والمأهول والقفقر ، عسى
أن أجد لِنَفْسِي سعادة في مكان ، أو أتوسم
لِقَلْبِي راحة في انسان ، فلا أعود بطائل !

وما تصنع لي هذه الوديان والاكواخ
والقصور ما دمت لا أجد لجمالها في عيني
روعة ، ولا لسجرتها في قلبي فتنة ؟
أيها الانهار والاحجار والغابات
والخلوات العزيزة علي !! ان غيبة مخلوق
واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا ،
وردد أنسكن وحشة !!

سواء على أتطلع الشمس أم تغرب ،

(١) نقض المكان : نظر الى كل ما فيه ليعرفه

وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم
ينير الصبح ، فليس لى بغية فى اليوم ولا
رجية فى الغد

* * *

وحينما أرسل عينيَّ تتبعان الشمس فى
مدارها الرحب القصى لا أبصر فى كل
مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى الى من
تظله السماء ، ولا رغبة لى فيما تنيره الشمس !

* * *

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر
وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى
تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلوأتيح لى
أن تخلص من قفصها لرات فى تلك السموات
حبيبها الذى طالما بكى عليه ، وحنى اليه !

* * *

هنا لك أنتشى من رحيق الغبطة ،
وأظفر بالامل والمحبة ، وأنعم بما تاقت اليه
نفسى من متع لا تمر على سمع ، ولا تدور بخلد

* * *

ما أعجزني أن أطير اليك وأنا مثقل
 بقيود المادة خاضع لجاذبية الارض !!
 وليت شعري لماذا قضى الله أن أبقى الى
 الآن في أرض المنفى وما تربطني بها رابطة ،
 ولا تصلني بأهلها صلة !!

* * *

إذا ما ذوت الاوراق في المرج ،
 وأسقطها قر الخريف في الوادي ، هبت عليها
 الشمال فذهبت بها أبديدا ! وأنا بهذه
 الاوراق الذابلة أشبه ! فاحملني أيتها الريح
 كما حملتها ، وانثريني في وجوه الفضاء كما
 نثرتها ، فما بعد الصباح الا المساء ، وما بعد
 اليأس والوحدة الا الفناء !



الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



صدرت ترجمة "رفائيل" سنة ١٩٢٦م، أى فى العام نفسه الذى شهد أزمة معركة كتاب د/ طه حسين "فى الشعر الجاهلى" وقبلها بشهور كانت هناك معركة كتاب على عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم". كانت مصر قد دخلت عهد دستور ١٩٢٣م، وبدأت المرحلة التى ستُعرف لاحقاً باسم "المرحلة الليبرالية فى مصر"، وكان العقل المصرى يشق طريقه فى اتجاهين مترابطين متكاملين، التعامل النقدى مع الأفكار القديمة المتوارثة والمرتبطة بالتراث الإسلامى، وكذلك الانفتاح بوعى وبروح نقدية على الأدب والفكر الغربى، تمثل ذلك فى صدور أعمال متميزة فى التراث العربى تحقيقاً وشرحاً وانتقاداً، بالإضافة إلى ترجمة عدد من الأعمال والدراسات المهمة عن بعض اللغات الأجنبية، خاصة الفرنسية والإنجليزية، وفى هذا الصدد قام الزيات، بالإضافة إلى رفائيل، بترجمة عمل آخر لا يقل أهمية، وهو للشاعر الفيلسوف الألمانى المعجب بالشرق الإسلامى وحضارته "جيته"، وقد ترجم الزيات "آلام فرتر" عن اللغة الفرنسية وليس عن الأصل الألمانى، وانقطعت صلته بالترجمة بعد ذلك؛ حيث شُغل بالتأليف وإصدار الكتب العربية إلى أن أصدر "الرسالة" فى ١٩٣٣م.